أبو حمزة الشاري

حياة "من أجل الحق"

تأليف
الدكتور فرحان بن علي الجبيري

1040

1040

هذا الكتاب هو الاصدار الثانى من سلسلة "من اعلامنا"
التى تصدرها وزارة التربية والتعليم والشباب

شئون الشباب

المديرية العامة للنشاط الثقافى والاجتماعى ...

سلك جمعة
زين إسحاق إبراهيم الطيش
لجنة التراث

ابو حمزة الشارى

حَيَاةٌ مِنْ أَجْلِ الحَقِّ

"إنما يخشى الله من عباده العلماء"
صدق الله العظيم

تأليف

دكتور. فرحان بن على الحبيدى

مقدمة

قال تعالى ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ صدق الله العظيم.

باسم الله نبدأ العام الثاني من عمر ندوة من أعلامنا وهي الحصيلة التاريخية والثقافية للسلف الصالح. حيث أنها المنبع الفكري والروحي والمنهل الثقافي الأصيل لشبابنا الذين يتحتم عليهم أن ينهلوا منه بما يعود عليهم بالفائدة الجمى ويهيء لهم السبل للتمسك بأصالة الماضي وضمان استمرار بقائه الحضاري واجلاء وابراز هويته الثقافية الأصيلة.

تهدف هذه الندوة الى تعميق انتماء الشباب الى جذوره الاسلامية والعربية عملا وقولا وسلوكا والعناية باعلام الفكر الذين أسهموا في ارساء قواعد الأصالة الحضارية والثقافية.

ولعل من يُمن الطالع أن تنظم هذه الندوة كل عام لتشارك بها الوزارة (شؤون الشباب) في احتفالات البلاد بالعيد الوطني المجيد. فكان لحصيلة هذه الندوة الى جانب البحوث المقدمة تأليف هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وما هو إلا بقعة ضوء سلطت على حدث تاريخي في خشبة مسرح التراث العماني وهو كشف لبعض المكنونات الحضارية.

ان المتصفح لهذا الكتاب لا شك أنه سيجد خصوصية نكهة التاريخ العماني ومواقف وأفعال رجالات قلما نراها بهذه الخصوصية وبهذا العبق الخاص الذي عرفت به مجان وما زالت.

وإننا ونحن نقدم هذا الكتاب لا يسعنا إلا ان نشيد بالمجهود الكبير الذي قام به الدكتور/ فرحات بن على الجعبيري في تأليفه لهذا الكتاب .

كما اننا عاجزون عن الشكر والامتنان للجهود العظيمة التي قدمها بكل رحابة صدر معالي سماحة الشيخ/ مفتي عام السلطنة الذي لم يدخر جهدا في تدعيم هذه الندوة والمساهمة الفعالة فيها .

كما نشكر أصحاب الفضيلة العلماء الاجلاء المشاركين في انجاح هذه الندوة سواء كانوا من داخل السلطنة أو خارجها .

نسأل الله أن يوفقنا لبناء مستقبل عمان المشرق الزاهر في ظل القيادة الحكيمة لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم حفظه الله وأيده بنصره .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يحيى بن محفوظ المنذري
وزير التربية والتعليم والشباب

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين. . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . . . الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له. وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله.

اللهم صل على نبينا محمد وعلى آل محمد كما صليت على أبراهيم وعلى آل أبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على أبراهيم وعلى آل أبراهيم في العالمين أنك حميد مجيد.

أما بعـــــد ، ، ،

يقول عز من قائل ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [١٢ يوسف ١١١] وقديما قالوا «تجارب الأقدمين مرايا للمحدثين».

ونحن على يقين أن صرح الحضارة الانسانية تعاقبت على وضع لبناته أجيال وأجيال. . كل جيل يترك بصمة من بصماته تستنير بها الأجيال اللاحقة فتترك ما كان زبدا لتستبقي ما ينفع الناس ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيبقى في الارض، كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ [١٣ الرعد ١٧]. وتشاء العناية الربانية أن يستنير العالم بنور الرسالة المحمدية رسالة الاسلام الخالدة ﴿**إن الدين عند الله الاسلام**﴾ [٣ آل عمران ١٩]﴿**ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ [٣ آل عمران ٨٥] فيدفع هذا النور الحضارة الانسانية أشواطا الى الأمام ما دام حاملو لوائه متمسكين به عقيدة وقولا وعملا.

ثم تدور عجلة الزمن وما أسرع دوران هذه العجلة فتقوم الحضارة العالمية المادية المعاصرة لتلتهم كل روحي ومقدس ظنا منها أن السعادة كل السعادة في كل ما هو مادي فحسب،

فانبهر بزخرفها كثير من المنتمين الى الاسلام،والاسلام منهم براء، وظلوا وراء سراب هذه الحضارة يلهثون، ومن عطائها الغث والسمين يكرعون، وتصوروا ألا سبيل الى نهوض العالم الاسلامي إلا بالأقتداء بهذه الحضارة شبرا بشبر وذراعا بذراع، وبنبذ كل ما له صلة بالاسلام لأن الاسلام دين والدين لن يكون إلا أفيونا للشعوب.

وفعلا سرت في كثير من الشباب فكرة أن الاسلام رجعية وتراث، ككل تراث ليس له إلا أن يبقى محنطا في المتاحف بعيدا عن واقع الحياة النابض. إلا أن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الملاحدة والكافرون فيقيض للاسلام من المسلمين رجالا يشع من عقولهم المستنيرة بنور القرآن الكريم والسنة الشريفة نور صحوة إيمانية يقظة لمع في أرجاء المعمورة يبين للعالمين. ألاَّ سبيل الى النجاة الا بالدين القيم، دين الفطرة الزكية ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[٣٠ الروم ٣٠]. وفعلا قال هؤلاء المصلحون بأعلى اصواتهم لا للتراث من أجل التراث ولكن نعم للتراث من أجل المستقبل بين ماض لا ينبغي أن نقف منه موقف المتأفف المتحسر وانما يجب أن نقف منه وقفة بناءه تنفض عنه غبار الزمن عسى أن تتقشع سماء وجهه، وبين مستقبل مشرق يستنير بأصالة أمتنا، هذه الأصالة التي لا يزال أعداء الاسلام يحاولون اجتثاثها من تحت ارجلنا.

وإيمانا بهذه الصحوة الإسلامية المباركة تم التعاون بين وزارة العدل والأوقاف والشؤون الاسلامية، وقطاع شؤون الشباب بوزارة التربية والتعليم والشباب بسلطنة عمان لأقامة ندوة سنوية بعنوان «من أعلامنا» ترمي الى نفض الغبار عن كثير من مشاهير هذا الجناح من أجنحة العالم الإسلامي الذي لن يطير عملاقا في سماء الحضارة العالمية إلا إذا التأمت جميع أوصاله على درب واحد محوره كلمة الإيمان «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد وصلتنا رسالتان من الوزارتين المذكورتين مؤرختين بنفس التاريخ ١٤٠٩/٩/٢٥ الموافق ١٩٨٩/٥/٢م.

الاولى بامضاء سماحة مفتي عام سلطنة عمان الشيخ / أحمد بن حمد الخليلي حفظه الله.

والثانية بامضاء سعادة الشيخ / سالم بن مستهيل بن أحمد المعشني وكيل وزارة التربية والتعليم والشباب لشؤون الشباب بالوكالة تطلبان «إعداد كتاب عن شخصية المجاهد أبي حمزة الشاري يكون موجها للمثقف العام مهتما بالحقائق دون اغراق في التفاصيل المتخصصة يعرض القضايا بتشويق للشباب بصفة خاصة، لا يتجاوز المائتي صفحة من القطع المتوسط».

وإننا لا يسعنا أمام هذه الثقة الغالية التي وضعها فينا الأخوة المشرفون على تنظيم هذه الندوة جازاهم الله كل خير، رغم قلة الزاد وقصر الباع، إلا أن نتوجه الى العلي القدير ليجزل لهم العطاء من خزائنه التي لا تنفد، وليأخذ بأيدينا لنضطلع بهذه الأمانة التاريخية المتمثلة في عرض حقيقة رجل لم يخرج على خلافة عادلة وانما ثار على دولة جائرة لم يلبث أن أخرجها جورها من دائرة التاريخ بعد ثورة أبي حمزة الشاري وان لم يكن ذلك على يديه.

ولا أراني مضطرا بأن أطيل في عرض المنهج الذي سألتزمه في هذا العمل المتواضع وإنما أذكر بأنني لا أريد أن أسلك فيه مسلكا أكاديميا حتى لا تثقل الهوامش وإلاحالات على المثقف العام الذي يهمه مسار الأحداث أكثر مما تهمه مختلف مصادر الأخبار، وللقارىء المختص مندوحة في ما نعرض من قائمة المصادر والمراجع بشيء من الدقة في آخر الكتاب لمزيد الاطلاع إن كانت له رغبة في التحقيق والتحري.

ليس معنى ذلك أن أجنح في الخيال حتى أجعل من أبي حمزة أقرب الى الأسطورة بل سأتحرى الحقيقة باذلا في ذلك كل ما في وسعي حتى أعرض بين يدي القارىء صورة جلية ناصعة عن اخلاص أبي حمزة في امتشاق السنان والافصاح بحسن البيان ليدفع كل انواع الطغيان.

ولتكن خطتنا كالتالي:

الباب الأول : العالم الاسلامي والدولة الأموية.

الفصل الاول : قصر الخلافة في دمشق.

الفصل الثاني : الحجاز:عزلة سياسية واغراق في اللهو.

الفصل الثالث : ظلم الولاة الثقفيين في اليمن.

الباب الثاني : استعداد أهل الاستقامة بمركز الدعوة بالبصرة لاحياء الامامة.

الفصل الاول : الامام جابر بن زيد وحكمة التنظيم في مسلك الكتمان.

الفصل الثاني : الامام أبو عبيدة والاستعداد لمسلك الظهور.

الفصل الثالث : الامام عبد الله بن يحيى واعلان الظهور باليمن.

الباب الثالث : أبو حمزة الشاري والشوق الى إمامة المسلمين عامة.

الفصل الاول : النشأة الاولى.

١) مجد تليد.

٢) في صحار أعرق الأمصار.

٣) النبوغ في حلقات أبي عبيدة.
٤) تحسس الأخبار بين الحرمين واليمن.
٥) شار لا خارجي.

الفصل الثاني : المجاهد أبو حمزة الشاري.

١) عند عبد الله بن يحيى طالب الحق واعلان إمامة الظهور في حضرموت.
٢) الثورة على الباطل واجب مقدس.
٣) أبو حمزة في مكة المكرمة.
٤) أبو حمزة في المدينة المنورة
٥) الانتصار: الخطب وضبط عوامل الثورة ومنهج الحكم.
٦) أخطاء حركية.

الفصل الثالث النكبة والاستشهاد.

١) التعبئة الأموية.
٢) الهزيمة في الميدان «مكة».
٣) معركة مكة واستشهاد أبي حمزة.
٤) النكبة باليمن.
٥) العودة الى مسلك الكتمان.
٦) تحويل الوجهة الى عمان والمغرب.

هذه هي مراحل هذا البحث أحببنا من خلالها أن نضع ثورة الامام عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة في اطارها التاريخي العام حتى يدرك القارىء أنها ليست مجرد فتنة كما يذكر صاحب شذرات الذهب [1]، ولا تمرد على السلطة الحاكمة من أجل اثارة البلابل والغزو والسلب والاستيلاء، وانما هي محاولة تصحيحية لمسار التاريخ الاسلامي لتعود للمسلمين امامتهم العادلة التي تقف عند حدود الاسلام بحق، وتطبق أحكام الشريعة في السلم والحرب.

وأرى لزاما علي ـ ازاء مناقشتي للمصادر الأمهات أباضية وغير أباضية ـ أن أعترف بالجميل للاستاذ عمرو خليفة النامي في اطروحته عن تطور الفكر الاباضي ١٩٧١م، وللدكتور عوض

---

١) أبن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت د.ت: ١/١٧٧.

خليفات في كتابه «نشأة الحركة الأباضية الذي نشر بعمّان الأردن سنة ١٩٧٨م وللأستاذ مهدي طالب هاشم في كتابه «الحركة الأباضية في المشرق العربي نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري» لما وجدت في بحوثهم من حرص على تحري الحقيقة مكنهم من انصاف حركة طالب الحق وقائده أبي حمزة انصافا ليس بعده من انصاف، مع المام بكل خيوط هذه الحركة في أدق أسرارها، وما ذلك بغريب من رجال اطلعوا عن كثب على جميع النصوص التي أرخت لهذه الحركة دون تحيز لهذا أو ذاك.

ولا يفوتني كذلك أن أنوه بالمجهود الذي ما يزال يبذله الأستاذ مبارك الراشدي في رسالته عن الامام أبي عبيدة حيث أطلعني مشكورا على الفصول التي خصصها لتلاميذ الامام ومن بينهم طالب الحق وقائده أبو حمزة ورجاؤنا أن يكلل عمله بالنجاح لأنه نفد الى دقائق لم ينتبه إليها من قبل.

وسيرى القاريء ان شاء الله تعالى أنني حرصت على التزام جميع ما حددت من التزامات من شأنها أن تجنبني الوقوع في الزلل والخطأ والانحياز، ومع ذلك فأنني لا أبريء نفسي، ورجائي من القراء الكرام أن يدلوا على مواطن الزلل إن وجدت فطوبى لمن أهدى الي عيبي.

وليس لنا هنا إلا أن أردد قوله تعالى ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به وآعف عنا وآغفر لنا وآرحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ [٢ البقرة ٢٨٦].

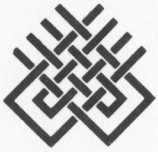

الباب الأول

العالم الإسلامي والدولة الأموية

الفصل الأول
قصر الخلافة في دمشق

كلنا نعلم قصة رسول كسرى الذي ظل يبحث طويلا عن قصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولما لم يجد قصرا، ووجد من كان ينتظر أن يجده وراء ألف حجاب نائما على قارعة الطريق، قال قولته الشهيرة : «عدلت فأمنت فنمت».

وتمضي ثلاثة عقود على هذا الحديث وأمثاله، ويتحول مركز الخلافة من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بلاد الشام ليستقر في مدينة دمشق حيث ما يزال معاوية يهيىء الأسباب من زمان لاقامة دولة أموية وراثية، فوسع دائرة ولايته زمن عثمان، ثم انتصب مطالبا بدم هذا الخليفة، واخترع مع صاحبه عمرو بن العاص خدعة المصاحف والتحكيم فآلت إليه الخلافة بعد مقتل الامام علي بصفة آليه اذ لا منازع إلا الحسن وقد سلم هذا لمعاوية عام واحد وأربعين ٦٦١/٤١ فسمي معاوية هذا العام عام الجماعة، وهو في الحقيقة عام تغلغل العصبية الأموية التي من شأنها أن تفرق لا أن تجمع، وإنما هي السياسة الماكرة تعتمد على التمويه والشعارات الفضفاضة، وما أقدر معاوية وصحبه على مثل هذا.

ولا أراني أزيد في علم المسلم الواعي شيئا عندما ألاحظ هذا التنافر في اضافة الخلافة الى القصر، ونحن نعلم أنهما ليسا من طينة واحدة، فان وجد القصر فلا خلافة، وإن وجدت الخلافة فلا قصر، وما دام قد وجد القصر بل وجدت القصور فكبر على الخلافة اربعا، وقديما صرح بذلك المؤرخ ابن خلدون رغم قربه من الحكم الأموي بأن معاوية حول الخلافة الى ملك عضوض[٢]

وهاك أيها القارىء فقرة ننقلها عن الشيخ محمد الخضري بك تصور المقابلة الصارخة بين سمات الخلافة وسمات الملك، وهذا قبل أن نعرض عليك بعضا من العينات عن أحوال بني أمية تجعلك تحكم بنفسك لهذه الدولة أو عليها.

يقول الشيخ المذكور «لبست الخلافة في عهد الدولة الأمويه مظهر الملك وأبهته، واستشعرت سطوة الحكم وعظمته، فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم

---

٢) عبد الرحمن بن خلدون (١٤٠٦/٨٠٨) ، المقدمة.

دون الخلافة حجاب، ولا يصدهم عنه باب، وجد في العهد الأموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة، وبعد ان كان عمر بن الخطاب يقول على منبر رسول الله ﷺ من رأي منكم فيَّ اعوجاجا فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد مقتل ابن الزبير «ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه» وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظهر الترف، يجترىء أحدهم بأقل ما يجترىء به الضعفاء من رعيتهم، ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفاف لا عليه ولا له، صرنا نرى بني مروان قد انغمسوا في الترف، فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب، فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد، وبعد أن كانت تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد، يختار كل خليفة ولي عهده من أهل بيته اما ابنه أو اخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم . . . .»[٣].

أما عن معاوية فانه يعترف بنفسه أنه شغوف بالدنيا وزينتها، وها هو في هذا الخبر الذي ينقله الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعدة بن حكمة الفزاري من بني آل بدر قال «انتقل معاوية من بعض كور الشام الى بعض عمله فنزل منزلا بالشام، فبسط له على ظهره اجار مشرف على الطريق فأذن لي فقعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجواري والخيول فقال: يا ابن مسعدة، رحم الله أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، أما عمر ـ او ابن حنتمة ـ فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، وأما نحن فتمرغنا فيها. . . . .»[٤].

وأنىَّ لرجل دعا عليه الرسول عليه السلام بألا يشبع الله بطنه ألا يعتز بالتمرغ في الدنيا، والواقعة كانت كالتالي: «كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله قد جاء، فقلت ما جاء إلا إلي، فأختبأت على باب فجاءني فخطاني خطأة او خطأتين ثم قال: اذهب فادع لي معاوية، وكان يكتب الوحي، فذهبت فدعوته له فقيل انه يأكل فأتيت رسول الله فقلت: انه يأكل، فقال: اذهب فادعه، فأتيته الثانية فقيل انه يأكل فأخبرته فقال في الثالثة: لا أشبع الله بطنه، فما شبع بعدها»[٥].

---

٣) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية، الدولة الأموية، دار الفكر العربي ـ د.ت ٢/٢٠٨.

٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠/٩٢٢) تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط٢، ١٤٠٨/١٩٨٨ ـ ٣/٢٦٧.

٥) عباس محمود العقاد ـ معاوية بن أبي سفيان ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ د.ت. ص ٨٥.

وان كان لا ضرر على معاوية من هذا الترف ان هو كان عبدا شكورا ولكنه ها هو ذا يعترف بظلمه وطغيانه في وصيته لأبنه يزيد في مرض موته «. . . إن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها دعا يزيد ابنه، فقال: يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب. . .»[٦].

وانظر الى معاوية وهو فعلا يذل الأعداء، فمن هم الأعداء يا ترى، ان جلهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتجلى هذا في أخذه البيعة قسرا لابنه يزيد من عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وغيرهم من المسلمين.

«. . . . قال (بعد محاولات ومحاورات): فإنني قد أحببت أن أتقدم إليكم انه قد أعذر من أنذر، اني كنت أخطب فيكم فيقوم الي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم بكلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسه في حضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، فان ذهب رجل منهم يرد عل كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. . . .»[٧].

ثم الى جانب هذا فان معاوية وشيعته ان لم يلجأوا الى القوة فإنهم يلجأون الى الرشوات والهبات وفعلا فقد جرب الأمر مع عبد الله بن عمر قبل السيف حيث أرسل اليه معاوية مائة ألف درهم فقبلها فلما أدرك أنها من أجل بيعة يزيد ردها ثم قال: هذا أراد (اي بيعة يزيد) ان ديني عندي لرخيص وامتنع»[٨].

ولم يكن معاوية ليخفى عليه ظلمه، ويتجلى هذا في هذه المحاورة الظريفة بينه وبين عمرو بن العاص اذ كل منهما خبير بالأخر. قال عمرو بن العاص لمعاوية معابثا اياه، وقد لذ له أن يحرجه ويعاكسه، معرضا بأعماله السيئة وجرائمه واذا معاوية ينكشف له عن خصم أشد مضاء ودهاء وألطف تعريضا وأبلغ مقالا: «رأيت في النوم أن القيامة قد قامت وجيء بك وقد ألجمك العرق، فقال معاوية: هل رأيت هناك شيئا من دنانير مصر»[٩].

---

٦) الطبري ـ تاريخ ٣/ ٢٦٠ .

٧) أبن خلدون ـ التاريخ ٣/ ٣٦ نقلا عن ابن الأثير ـ الكامل ٣/ ٢٥٢، طبع مصر .

٨) ن . م ـ ٣/ ٣٥ .

٩) أحمد محمد الحوفي ـ الفكاهة في الأدب، القاهرة ـ ١٩٦٦/ ١٦٩ .

وإن كان هذا رأي القرين المطلع على السرائر ومدبر المكائد فلا نعجب من رأي الخصوم. ومن ذلك ما جاء في رسالة من أهل الكوفة موجهة الى الحسين عند موت معاوية: «فالحمد الله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي افترى على الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتآمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها. . . .»[١٠].

ومن ذلك ما جاء في رسالة عبد الله بن أباض الى عبد الملك بن مروان «فلا تسأل عن معاوية وعن صناعته غيري لأني قد أدركته ورأيت عمله وسيرته، ولا أعلم من الناس أحدا أترك للقسمة التي قسمها الله ولا لحكم حكمه الله ولا أسفك لدم حرمه الله منه، فلو لم يصب من البلاء إلا دم ابن سمية[١١] لكان فيه ما يكفره. . . .»[١٢].

ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي حمزة الشاري: ثم «ولى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول الله ﷺ وابن لعينه وجلف من الأعراب، وبقية من الأحزاب، مؤلف طليق فسفك الدم الحرام، واتخذ عباد الله خولا، ومال الله دولا وبغى دينه عوجا ودغلا، وأحل الفرج الحرام، وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله. . . .»[١٣].

ثم يتربع على عرش (الخلافة) يزيد بن معاوية وقد وطأ له أبوه الاشياء وذلل له الأعداء ومكنه من رقاب المسلمين، لكنه حذره من أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر، ودعاه بأن يصفح عن الحسين إن هو ظفر به «لأن له رحما ماسة وحقا عظيما»[١٤].

لكن أنىّ (لأمير المؤمنين) صاحب الطرب والجوارح والكلاب والقرود والفهود ولزبانيته من أمثال ابن زياد أن يدركوا دهاء معاوية وبعد مراميه وقدرته على الجمع من المتناقضات اذ يضرب بيد ويعطي بأخرى.

---

١٠) الطبرى - تاريخ ٣/٢٧٧.

١١) أبن سمية - هو عمار بن ياسر.

١٢) أبو القاسم ابراهيم البرادي - الجواهر المنتقاه لما أخل به كتاب الطبقات، ط. حجرية القاهرة - ١٣٠٢/١٨٨٥ - ١٦٣-١٦٤.

١٣) انظر المحور الثالث - خطب أبى حمزة وتحليلها.

١٤) الطبرى - تاريخ - ٣/٢٦٠.

وما أن أعلن الحسين الثورة على الظلم حتى جند له يزيد أخلص أعوانه عبيد الله بن زياد للتصدي له، ولا يهمنا هنا وصف المعركة بقدر ما يعنينا الوحشية التي عوملت بها جثة الحسين سبط رسول الله ﷺ، وحشية فرعونية جاهلية ليس في قلوب أصحابها ريح الاسلام وإن كانوا ينطقون بكلمة الايمان.

ولك أيها القارىء ما جاء في تاريخ الطبري عن هذا الواقع الأليم الذي لا ينقله المؤمن إلا ليتألم لما صار إليه المسلمون وليثبت شرعية من ثأر الثائرين إن كان على حق. . . . قال: فنادى شمر (أحد قواد الجيش الأموي) في الناس: ويحكم، ماذا تنظرون بالرجل؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. قال: فحمل عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى ضربة، ضربها زرعة بن شريك التميمي، وضرب على عاتقه، ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو، قال: وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعي فطعنه بالرمح فوقع، ثم قال لخولى بن يزيد الأصبحي: اختز رأسه فأراد ان يفعل، فضعف فأرعد، فقال له سنان بن أنس: فت الله عضديك وأبان يديك، فنزل إليه فذبحه واحتز رأسه، ثم دفع الى خولى بن يزيد وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف. . . . . .

. . . . قال: وسلب الحسين ما كان عليه، ومال الناس على الورس والحلل والابل وانتهبوها، قال: وما الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فان كانت امرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها. . . » قال: ثم ان عمر بن سعد نادى أصحابه: من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة. . قال: وما هو إلا أن قتل الحسين، فسرح برأسه من يومه ذلك مع الخولى بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدى الى عبيد الله بن زياد، فأقبل به خولى فأراد القصر، فوجد باب القصر مغلقا، فأتى منزله فوضعه تحت اجانة في منزله. . . »[١٥].

سبحان الله اقدت قلوب هؤلاء الناس من حجر أم هي الرئاسة تعمى وتصم، وتستمر رحلة هذا الرأس فيوضع بين يدي ابن زياد في موكب بهيج ويظل أمام الملأ «ينكب بقضيب بين ثنيتيه»[١٦]، ويتواصل الاحتفال وينصب رأس الحسين ويدار به في الكوفة تعبيرا عن النصر المبين، ثم يسرح رأس الحسين ورؤوس أصحابه لتتشرف بالمثول امام (الخليفة) وينقل الطبري أن اليزيد دمعت عينه وقال قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين[١٧].

لكن هيهات هل ينفع مثل هذا البكاء ومثل هذا الكلام بين يدي الرحمن من (أمير المؤمنين). إن هذه كافية لترجح كفة ميزان اليزيد ولكن لا بأس من أن تعرف أيها القارىء ضربا آخر من بطولات (امير المؤمنين).

١٥) ن . م - ٣/٣٣٤ - ٣٣٦ . ١٦) ن . م - ٣/٣٣٦ . ١٧) ر . ن . م - ٣/٣٣٨ .

روى المسعودي في مروج الذهب (ج٢ ص٩٤): «وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود، ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد بعد مقتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربة تروي مشاشي ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا، وغلب على اصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسق...».

وروى ابن طباطبا في الفخرى (ص٤٩): «كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لا يزال لا هيا به، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب.. ويهب لكل كلب عبدا يخدمه» [١٨].

تلك حرمات رؤوس المسلمين ونسائهم وأموالهم عند من اختاره ابوه ليكون (احسن خليفة للمسلمين) ليبوأ بالاثمين معا.

ويذكر ابن خلدون أن عمر بن سعيد والى اليزيد على المدينة عزم على استحلال بيت الله الحرام لقتال عبد الله بن الزبير عذل مروان بن الحكم له: «وعذله مروان بن الحكم في غزوة مكة، وقال له: اتق الله ولا تحل حرمة البيت فقال: والله لنغزونه في جوف الكعبة» ورغم نهى الصحابى أبى شريح الخزاعى: «وجاء أبو شريح الخزاعي الى عمرو بن سعيد فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما أذن لى بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس» فقال له عمرو: نحن أعلم لحرمتها منك أيها الشيخ» [١٩]

لكن الله تعالى لم يمكنه من ذلك اذ هزم عبد الله بن الزبير جيشه وسجن قائده عمرو بن الزبير وضربه بكل من ضربه بالمدينة حتى مات تحت السياط.

كما أنه ظهر في أيامه الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب كما يذكر المسعودي [٢٠].

---

١٨) نقلا عن أحمد زكي صفوة ـ جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت ـ ١٣٥٢/١٩٣٣، الجزء الثاني للعصر الاموي ـ ٤٧٠.

١٩) ابن خلدون ـ تاريخ ـ ٣/٤٦، وقد حلل القضية ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة بيروت ـ د. ت ٤/٤١ ـ ٤٣ و ٤٧ ـ ٤٨، وقد أورد ارادء الفقهاء في شأن استحلال حرم الله تعالى.

٢٠) المسعودي (ت ٣٤٦/٩٥٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢، ٢/٩٤.

وبهذا يجنى اليزيد ثمرة النية على انتهاك الكعبة الشريفة بالسيف ومعرة نشر الرذيلة في الحرمين الشريفين [٢١].

وهذا معاوية بن يزيد يكفينا مؤونة تقويم حقيقة فترة حكم أبيه وجده حيث يقول: «ان جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الإسلام وهو علي بن أبي طالب.

ثم تقلد أبي يزيد الأمر من بعده فكان غير أهل له ركب هواه وأخلفه الأمل وان من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه وقد قتل عترة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم وخرب الكعبة[٢٢].

ثم انا نعلم بعد ذلك أنه استعفى من هذه المسؤولية بقوله «فانى قد نظرت في أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجل مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر، فلم أجدها، فانتم أولى بأمركم افختاروا لكم من أحببتم»[٢٣].

ولا نريد أن نثقل على القارىء الكريم بمتابعة أخبار كل (أمراء المؤمنين) الذين تولوا على عرش دمشق وانما ما دمنا مع بيت الله الحرام وعبد الله بن الزبير وجب أن نأتي الى الحجاج بن يوسف ولا نزيد في علم الناس شيئا اذا تحدثنا عن الحجاج وظلمه ما دام يعترف بذلك بنفسه في كل المواطن بل يعتز به كل الاعتزاز، وهو في ذلك يبيع آخرته في خدمة بني مروان والاخلاص لهم، وهاك قليلا من خطبته الشهيرة عندما ولاه عبد الملك بن مروان على العراق «إن امير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا، فوجهني اليكم... أما والله لأحونكم لحو العود، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الابل....»[٢٤].

ونحن نعلم من قبل أنه حاصر عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام ورمى الكعبة بالمنجنيق وبعث برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أخرى لعبد الملك بن مروان بعد أن أبقى جثة ابن الزبير مصلوبة منكسة على ثنية الحجون اليمنى، وقد جاء عند ابن خلدون في هذا ما يلي:

---

٢١) سنفصل الحديث عن اللهو في مكة والمدينة في العنصر اللاحق إن شاء الله.

٢٢) نقلا عن خالد محمد خالد ـ خلفاء الرسول، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢ ـ ١٣٩٤/١٩٧٤، ٦٧.

٢٣) الطبري ـ تاريخ ٣/٣٧٩.

٢٤) الطبري ـ تاريخ ٥٤٨.

ثم نصب الحجاج المنجنيق على (جبل) أبي قبيس، ورمى به الكعبة، فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلى، فلا ينصرف، ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها في أصحابه. . . . ثم أجهدهم الحصار. ثم حمل (ابن الزبير) حتى بلغ الحجون فأصابته حجارة في وجهه فأرغش لها ودمى وجهه ثم قاتل قتالا شديدا وقتل. . . . .

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل الى مكة فبايعه أهلها لعبد الملك وأمر بكنس المسجد من الحجارة والدم.

ولم يكفه ذلك بل سار الى المدينة وأساء الى أهلها وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافا بهم كما فعل بأهل الذمة منهم جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وسهل بن سعد. . . . . ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها الى الله [٢٥].

وتنتهي حياة الحجاج بالتباس عقله اثر قتله لسعيد بن جبير أحد كبار الفقهاء الصالحين وكان ذلك بعد محاورة بينهما انتهت بما يلي: الحجاج: والله لأقتلنك. فقال: انى لسعيد كما سمتنى أمى، فضربت عنقه فهلل رأسه ثلاثا أفصح منها بمرة، ويقال ان عقل الحجاج التبس يومئذ وجعل يقول: قيدونا قيدونا، فظنوها قيود سعيد بن جبير، فأخذوها من رجليه وقطعوا عليها ساقيه، وكان اذا نام يرى سعيد بن جبير في منامه آخذا بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتنى، فينتبه مرعوبا يقول: مالى ولسعيد بن جبير»[٢٦].

تلك هى عاقبة الظالمين وما عند ربك أشد وأبقى، ويستثنى من هذه الشناعات الخليفة العادل خامس الخلفاء الراشدين هذا الذي حرص على أن يملأ الارض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا، وجاءته الوفود مستبشرة من كل مكان ومن بينها وفد أهل الاستقامة ومنهم أبو الحر على بن الحصين وجعفر بن السماك والحباب بن كاتب ويكنى بأبى عبد الله بن كاتب، وأبو سفيان قنبر.

وكان من المحاورة بين عمر بن عبد العزيز وبينهم ما يلي: «. . . . ثم قالوا له: ان المسلمين قد شتموا على المنابر، فأظهر من عذرهم على المنابر، قال: انى أخاف أن لا أمكن من ذلك، فقالوا له: ان أئمة العدل لا تسعهم التقية، وقد قتل المسلمون وصلبوا، وقطعت أيديهم وأرجلهم، فأظهر عذر المسلمين والبراءة من الظالمين فانه لا يسعك إلا ذلك.

---

٢٥) أبن خلدون - تاريخ ٣/ ٩٠.

٢٦) ن . م - ٣/ ١٤٣ .

فقبل ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وقال نقيم العدل ولو غليت لحومنا المراجل بالعشى، وقال عمر بن عبد العزيز: ان فعلت ذلك عوجلت، ولكن على لكم ان نميت كل يوم بدعة، ونحيى كل يوم سنة فلم يقبلوامنه، وقالوا نخرج عنك على الا نتولاك.

فقيل لما أخبر أبو عبيدة مسلم ابن أبى كريمة بما كان منه ومنهم قال: ليت القوم قبلوا منه»[٢٧].

وموقف أبى عبيدة هو الذي استقر عند أهل الاستقامة اذ يترضون جميعا على عمر بن عبد العزيز وانما كانت رغبة الوفد في دفع العجلة بقوة، وفعلا حرص هذا الخليفة العادل بكل ما في وسعه على أن يحول الأموية الى خلفة راشدة وذلك من يومه الأول حيث أراد أن يستعفى من البيعة لكن الناس أبوا الا أن يبايعوه.

وفعلا قد صدق حدس عمر في اجابته للوفود بأنه ان تعجل عوجل، وقد عوجل بحق اذ تتفق المصادر على أنه دس له السم فرحمة الله عليه.

وهاك وصيته ليزيد بن عبد الملك وقارن بينها وبين وصية معاوية التي عرفتها من قبل «اما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، انك تترك ما أترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذرك والسلام»[٢٨].

ثم تولى اليزيد بن عبد الملك فغير كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز[٢٩] ومن ذلك ما كان بين ولاته وبين آل المهلب، وكالعادة ترسل الرؤوس فتنصب، وشتان بين الخليفة الناسك والفتى الماجن الذي يعز عليه أن يفارق حبابة المغنية حية وميتة اذ أقام أياما لايدفنها وقد ماتت في قصره حتى جيفت، وجاء فى الأغاني «كانت حبابة مولدة من مولدات المدينة حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء، وقد قال يزيد بن عبد الملك: ما تقر عينى بما أوتيت من الخلافة حتى أشترى سلامة وحبابة، فأرسل فاشتريتا له، فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال القائل:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عين بالاياب المسافر

ثم يذكر أبو الفرج أن مسلمة بن عبد الملك لأمه على ذلك وكان على وشك التوبة إلا أن حبابة احتالت عليه وأرجعته الى مجونه «فعدل اليها عندما غنت:

---

٢٧) خميس بن سعيد الشقصى ـ منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، ط. مطبعة عيسى البابى الحلبى، وشركاه القاهرة، نشر وزارة التراث العماني ١٩٧٩ ـ ١/٦١٧ ـ ٦١٨.

٢٨) أبن خلدون ـ تاريخ ٣/١٦٥. ٢٩) ن. م ـ ٣/١٦٥.

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وان لام في ذو الشنان وفندا

وقال صدقت والله ، فقبح الله من لامنى فيك»[٣٠].

وجاء عند ابن طباطبا في الفخرى (ص١٧): «كان يزيد بن عبد الملك خليع بنى أمية شغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والأخرى حبابة فقطع معهما زمانه وقالوا فغنت يوما حبابة:

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فأهوى يزيد ليطير، فقالت: يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة، فقال: والله لاطيرن، قال فعلى من تدع الأمة؟ قال: عليك وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول «سخنت عينك فما أسخنك»[٣١].

ويورد المسعودى في مروج الذهب (٢/ ١٧٥) مدى شغفه بها مبينا أنه شغف تجازو الحد وذلك في ما يلي: «ان حبابة اعتلت، فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ثم ماتت، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيفت فقيل له: ان الناس يتحدثون بجزعك وان الخلافة تجل عن ذلك فدفنها وأقام على قبرها فقال:

ان تسل النفس أو تدع الهوى فبالياس تسلو النفس لا بالتجلد

ثم أقام أياما قلائل ومات[٣٢].

هذا هو كما ترى عمل (الخليفة) الذى عمل بعكس وصية سلفه الصالح عمر بن عبد العزيز.

ويتربع هشام بن عبد الملك عشرين سنة على عرش الخلافة لكن كيان هذا العرش بدأ يتزعزع من شدة ما عرف الناس من الظلم اذ بلغ الأمر الى أن تؤخذ الجزية حتى ممن أسلم: «وألح هانىء في الخراج واستخف بفعل العجم والدهاقين، وأقيموا في العقوبات وحرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية ممن اسلم»[٣٣]

---

٣٠) أبو الفرج الاصبهاني ـ الأغاني ١٣/ ١٤٨ نقلا عن جمهرة خطب العرب ـ ٤٧٣ .

٣١) ن . م ٤٧٣ .

٣٢) ن . م ٤٧٣ .

٣٣) أبن خلدون ـ تاريخ ـ ٣/ ١٨٧ .

وقد بلغ ظلم الولاة أشده خاصة في أطراف البلاد الأمر الذي اضطر هشام الى الأمر بعزل أسد بن عبد الله عن خراسان ذلك انه كان: «يتعصب حتى أفسد الناس وضرب نصر بن سيار بالسياط، وعبد الرحمن بن نعيم، وحلقهم وسيرهم إلى أخيه وكتب اليه أنهم أرادوا الوثوب بي، فلامه يوما فلعن أهل خراسان»[٣٤]، ولكنه وان انتبه إلى خراسان فانه غفل عن افريقية فثار عليه أهلها بعد أن أقاموا الحجة وأيقنوا أن الخليفة شريك للولاة في طغيانهم اذ أقاموا ببابه حتى نفدت نفقاتهم دون أن يسمح لهم بالدخول عليه رغم ما تجشموه من عناء الرحلة.

«لم يزل أهل افريقية، من أطوع أهل البلد، واسمعهم الى زمان هشام، حيث دب اليهم أهل العراق فاستشاروهم وشقوا العصا وفرقوا بينهم الى اليوم، وكانوا يقولون: لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، فقال لهم انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقال حتى نخبرهم. فخرج ميسرة في تسعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم فدخلوا على الابرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا غنمنا نفلهم ويقول هذا أخلص لجهادكم، واذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم، يقول هذا ازدياد في الأجر، ومثلنا كفى اخوانه، ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء الابيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فاحتملنا ذلك، ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم فكتبوا أسماءهم ودفعوها الى وزرائه، وقالوا: ان سأل أمير المؤمنين فاخبروه، ثم رجعوا الى افريقية فخرجوا عن عامل هشام وقتلوه، واستولوا على افريقية وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك».

وإزاء ثورة أهل افريقية نشطت ثلاث حركات في المشرق دعت الى الكتاب والسنة، أما الأولى وهي التي ستطيح بهذا العرض بعد حين لكن لتقيم عرشا وراثيا مماثلا له، وهي الحركة العباسية، وقد انطلقت متحالفة مع بعض الشيعة وقد حرص هشام وعماله على وأدها قبل أن تولد. ومن ذلك «أن أسد بن عبد الله في ولايته الثانية سنة سبع عشرة أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب، ولاهز بن قريط بثلاثمائة سوط، كما أنه من قبل قتل أبا محمد زياد، مولى همدان في عشرة من أهل الكوفة لانهم سعى بهم لديه[٣٦] كما أن هشام نفسه قطع أيدي من ظفر به منهم (دعاة العباسية) وصلبه»[٣٧].

---

٣٤) ن . م - ٣/١٨٦ .

٣٥) أبن الاثير (٦٣٠/١٢٣٢) - الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨/١٩٨٧ - ٤٥٣ .

٣٦) أبن خلدون - تاريخ ٣/٢١٦ . ٣٧) ن . م ٢١٥ .

وأما الثانية فهى حركة زيد بن علي، وقد كان الحكم بن الصلت على الكوفة من قبل يوسف بن عمر حين انطلقت الثورة الزيدية شعارها «الدعوة الى الكتاب والسنة وإحياء السنن وإطفاء البدع، لأن الأمويين ظلموا المسلمين أجمعين» [٣٨].

وتنتهي الثورة بقتل زيد بن علي لكن ليت الأمر وقف عند هذا الحد وإنما هو الطغيان والرغبة في إهداء الرؤوس تدفع إلى نبش القبور «.. ثم رمى زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزع النصل من جبهته مات فدفنوه، وأجروا عليه الماء وأصبح الحكم يوم الجمعة يتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه وقطع رأسه وبعث به الى يوسف بالحيرة، فبعثه إلى هشام فنصبه على باب دمشق، وأمر يوسف الحكم أن يصلب زيدا بالكناسة ونصر بن قريمة ومعاوية بن اسحاق، ويحرسهم فلما ولى الوليد أمر باحراقهم» [٣٩].

تلك هى حرمة الموتى عند الأمويين تقطع الرؤوس وتصلب الجثث، كل ذلك عبرة لمن يعتبر حتى لا يجرؤ امرؤ على مخالفة بنى مروان كأن الملك يجب أن يكون فيهم أبديا لكن لله في خلقه شؤون.

وأثناء هذه المهرجانات الخالدة تلقى الخطب وتنشد الأشعار التي تقلب الحق باطلا والباطل حقا، ومن ذلك خطبة يوسف بن عمر على منبر الكوفة في هذه المناسبة السعيدة لدى أسياده ومنها «.... أما والله ما علوت منبري إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه، فإنكم أهل بغي وخلاف، ما منكم الا من حارب الله ورسوله... ولقد، سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم، ولو اذن لقتلت مقاتليكم وسبيت ذراريكم» [٤٠].

ومن الاشعار قول قائلهم:-

ألا يا ناقص الميثا ق أبشر بالذي ساكا
نقضت العهد والميثا ق قدما كان قدماكا
لقد اخلف ابليس الـ ذي قد كان مناكا

هكذا فالمخالف للفكر الأموي حينئذ يتحرك عن أماني أبليس ويحق سبى ذراريه ليرتدع. ويموت هشام ورغم تردده في شأن الوليد تأتيه هذه (الخلافة) على ما هو عليه من مجون وليس

---

٣٨) ن . م ٢١٥ .

٣٩) ن . م ٢١٣ .

٤٠) الطبري ـ تاريخ ٤/٢١٠ .

هو الأول من نوعه فلا غرابة في الأمر بل العكس هو الغريب. وتأمل في رحلته التأديبية الى الحج كما يوردها الطبري «واتخذ الوليد ندماء فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحج سنة ١١٩هـ -٧٣٧م فحمل معه كلابا في صناديق فسقط منه صندوق، فاجالوا على الكرى السياط، فأوجعوه ضربا، وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه خمرا... وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به....»[٤١].

ولم تثنه (الخلافة) عندما أفضت اليه عما كان عليه بل «لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق الا تماديا وحدا»[٤٢].

ومما نسب اليه من الشنائع رميه المصحف بالسهام حين استفتح فوقع على قوله تعالى ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ [١٤ إبراهيم ١٥] وينشدون في ذلك:

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: يا رب خزقني الوليد[٤٣]

ويكفي هذا الخليفة - ولا فخر - انه لم يكتف بقبول رأس يحيى بن يزيد هدية وما أكثر الرؤوس المتطايرة الى عاصمة الخلافة بل «كتب الى يوسف بن عمر اذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق فأحرقه ثم انسفه في اليم نسفا، قال: فأمر يوسف خراش بن حوشب، فأنزله من جذعه (وقد كان مصلوبا) وأحرقه بالنار، ثم رضه فجعله في قوصرة، ثم جعله في سفينة ثم ذراه في الفرات»[٤٤].

وينتهي أمر الوليد بأن يقتل في قصره وهو آخذ المصحف وأحبه يوما كيوم عثمان وقدم رأسه هدية ليزيد كما استقبل هو من قبل رؤوسا هدية، وحجة القتلة أنهم ينقمون عليه في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيه واستخفافه بأمر الله لكنه ذكر لهم أن في ما أحل الله سعة»[٤٥]

ولم يستقر الأمر لا لليزيد ولأخيه ابراهيم من بعد وتأججت نار الخلافة من كل مكان، ورغم الجهد الجبار الذي بذله مروان بن محمد لانقاذ العرش الأموي أبت هذه الدولة التي شاخت إلا أن تلفظ أنفاسها لتخلفها دولة أخرى شبيهة بها ألا وهي دولة بنى العباس.

---

٤١) ن. م - ٤/٢٢٥.
٤٢) ن. م - ٤/٢٣٥.
٤٣) أبن خلدون - ٣/٢٢٥.
٤٤) الطبري - تاريخ - ٤/٢٣٣ - ٢٣٤.
٤٥) ر.ن.م. - ٤/٢٤٣.

تلك اذن بعض معالم خلافة بنى أمية، تلكم الخلافة التى سخر معاوية كل مكره ودهائه لإرساء قواعدها على أسس الطغيان والجبروت، وأبى إلا أن تبقى سفيانية أموية إلا أن القدر أبى إلا أن يحبط قراره فقام حفيده معاوية ليدين الأموية كما رأينا ادانة تامة.

ويتزعزع الايوان الكسروى وتكاد تعصف به العواصف لكن مروان قفز قفزة فرعونية فضرب الرقاب، وقهر العباد، وحول مجرى الوادي الى المروانية فورثها عبد الملك وجاء من بعده الوليد ويكفي هذا العهد المجيد فخرا شهادة عبد الملك نفسه «ماذا سأقول يوم المسألة عن أمر الحجاج» هذا الحجاج الذي بشر بوعيده فأخذ الولي بذنب مولاه، والمقيم بذنب الظاعن، والمطيع بذنب العاصي، فصار الرجل يلقى أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد، ولم يكفه ذلك فلم يسلم من عتوه حتى أول بيت وضع للناس.

بهذا وغيره مما عرفت انقلبت القيم فصار الصالحون يلعنون على المنابر والحجاج يمدح في المحافل.

ولم أر كالحجاج عونا على التقى ... ولا طالبا يوما طريدة نابل
بسيف الله يضرب من عصى ... على قصر الاعناق فوق الكواهل

وكذا تحول الوليد الى امام مصطفى على حد تعبير جرير:

ان الوليد هو الامام المصطفى ... بالنصر هز لواؤه والمغنم
ذو العرش قدر أن تكون خليفة ... ملكت فاعل على المنابر واسلم

وفي هذا القدر كفاية لتعلم لماذا ثأر ابو حمزة وأمثاله لتخليص العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد، وقبل أن ننتقل الى ذكر استعداد أهل الاستقامة لاقامة امامة الظهور يحسن ان نطوف قليلا في حمى الحرمين لنعلم شيئا مما تردت اليه الاوضاع هناك.

١) أبن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت د.ت: ١/١٧٧ .

٢) عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨/١٤٠٦) ، المقدمة.

٣) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية، دار الفكر العربي ـ د.ت ٢/٢٠٨ .

٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠/٩٢٢) تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط٢، ١٤٠٨/١٩٨٨ ـ ٣/٢٦٧ .

٥) عباس محمود العقاد ـ معاوية بن أبي سفيان ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ د.ت. ص ٨٥.

٦) الطبري ـ تاريخ ٣/٢٦٠ .

٧) ابن خلدون ـ التاريخ ٣/٣٦ نقلا عن أبن الاثير ـ الكامل ٣/٢٥٢، طبع مصر .

٨) ن . م ـ ٣/٣٥ .

٩) أحمد محمد الحوفى ـ الفكاهة في الأدب، القاهرة ـ ١٩٦٦/١٦٩ .

١٠) الطبرى ـ تاريخ ٣/٢٧٧ .

١١) أبن سمية ـ هو عمار بن ياسر .

١٢) أبو القاسم أبراهيم البرادي ـ الجواهر المنتقاه لما أخل به كتاب الطبقات، ط. حجرية القاهرة ـ ١٣٠٢/١٨٨٥ ـ ١٦٣-١٦٤ .

١٣) أنظر المحور الثالث ـ خطب أبى حمزة وتحليلها.

١٤) الطبرى ـ تاريخ ـ ٣/٢٦٠ .

١٥) ن . م ـ ٣/٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

١٦) ن . م ـ ٣/٣٣٦ .

١٧) ر . ن . م ـ ٣/٣٣٨ .

١٨) نقلا عن أحمد زكي صفوة ـ جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت ـ ١٣٥٢/١٩٣٣، الجزء الثاني للعصر الأموي ـ ٤٧٠ .

١٩) أبن خلدون ـ تاريخ ـ ٣/٤٦، وقد حلل القضية أبن حجر العسقلاني في فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحبب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة بيروت ـ د.ت ٤/٤١ ـ ٤٣ و ٤٧ ـ ٤٨، وقد أورد آراء الفقهاء في شأن إستحلال حرم الله تعالى .

٢٠) المسعودي (ت ٣٤٦/٩٥٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢، ٢/٩٤ .

٢١) سنفصل الحديث عن اللهو في مكة والمدينة في العنصر اللاحق إن شاء الله .

٢٢) نقلا عن خالد محمد خالد ـ خلفاء الرسول ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢ ـ ١٣٩٤/١٩٧٤، ٦٧ .

٢٣) الطبري ـ تاريخ ٣/٣٧٩ .

٢٤) الطبري ـ تاريخ ٥٤٨ .

٢٥) أبن خلدون ـ تاريخ ٣/٩٠ .

٢٦) ن . م ـ ٣/١٤٣ .

٢٧) خميس بن سعيد الشقصى ـ منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ، تحقيق سالم بن حمد الحارثي ، ط. مطبعة عيسى البابى الحلبى، وشركاه القاهرة، نشر وزارة التراث العماني ١٩٧٩ ـ ١/٦١٧ ـ ٦١٨ .

٢٨) أبن خلدون ـ تاريخ ٣/١٦٥ .

٢٩) ن . م ـ ٣/١٦٥ .

٣٠) أبو الفرج الأصبهاني ـ الأغاني ١٣/١٤٨ نقلا عن جمهرة خطب العرب ـ ٤٧٣ .

٣١) ن . م ٤٧٣ .

٣٢) ن . م ٤٧٣ .

٣٣) أبن خلدون ـ تاريخ ـ ٣/١٨٧ .

٣٤) ن . م ـ ٣/١٨٦ .

٣٥) أبن الاثير (٦٣٠/١٢٣٢) ـ الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨/١٩٨٧ ـ ٤٥٣ .

٣٦) أبن خلدون ـ تاريخ ٣/٢١٦ .

٣٧) ن . م ٢١٥ .

٣٨) ن . م ٢١٥ .

٣٩) ن . م ٢١٣ .

٤٠) الطبري ـ تاريخ ٤/٢١٠ .

٤١) ن . م ـ ٤/٢٢٥ .

٤٢) ن . م ـ ٤/٢٣٥ .

٤٣) أبن خلدون ـ ٣/٢٢٥ .

٤٤) الطبري ـ تاريخ ـ ٤/٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

٤٥) ر.ن.م. ـ ٤/٢٤٣ .

الفصل الثاني

الحجاز، عزلة سياسية واغراق في اللهو

يروى عن الطبري بسنده عند حديثه عن معركة قديد [1] واصفا جيش الحجازيين بما يلي: «فنزل قوم مغترون ليسوا بأصحاب حرب».

وجاء في الأغاني «فوجه (والى المدينة) ثمانية آلاف رجل من قريش والأنصار والتجار اغمار لا علم لهم بالحرب، فخرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهو» [2].

لماذا لم يكن أهل المدينة أصحاب حرب وكانوا قوما مغترين على حد تعبير الطبرى، وغيره؟ هذا ما سنعرفه في هذه السطور بشيء من الاختصار غير المخل.

كل مسلم عندما يذكر عنده الحرمان الشريفان يهتز كيانه ويتصور الا يكون هناك الا ما يقارب الكمال من الرجولة والشجاعة والتقوى والورع خاصة في القرن الأول لهجرة رسول الله ﷺ. لكن سرعان ما يتبدد هذا التصور ويحل محله العكس تماما أو يكاد ولم يكن ذلك من باب الصدفة وانما هو تخطيط السياسة التي عرفنا من اخطبوطها في ما سبق، فإذا ما تتبعنا قائمة أسماء الولاة الذين ولاهم الأمويون بعد ان استأثروا بعاصمة الخلافة في دمشق - على الحجاز بما فيها مكة والطائف والمدينة وجدنا أن ثلثهم أو اكثر من الأسرة الحاكمة والبقية من الموالين لها من الثقفيين والمخزوميين، كأن أمر الحجاز محجور على أهله.

مع العلم أن السلطة المركزية قد تجعل واليا واحدا على الحجاز وقد تفرد لكل من الحرمين واليا، وقد تضيف إلى أحدهما الطائف وفي بعض الأحوال تكون الجزيرة كلها بما فيها لوال واحد [3].

وبهذا ندرك كيف ابعدت الدولة الأموية ابناء المهاجرين والانصار عن عالم السياسة حفاظا على كيانها لأنهم نازعوا مؤسسها من يومها الأول ما كانوا من أهل العراق من صف الامام علي، ولم يكن معاوية لينقصه الذكاء وهو من أكبر دهاة العرب فعمل على إغداق الأموال على

---

١) سنفصل الحديث ان شاء الله عن هذه المعركة في المحور الرابع ضمن أخبار أبي حمزة الشاري.

٢) الطبري - تاريخ ٤/٣٢٨ - الأغاني ٢٣/١٢١.

٣) لزيادة التفصيل أنظر - ابن خلدون - تاريخ عمال بني أمية على النواحي ٣/٢٨٧ - ٣٠٣.

وكان عمر بن عبد العزيز (وكان واليا على المدينة آنذاك) اذا وجد رجل يصفف جمته السكينية جلده وحلقه»[11] ، والثانية عائشة بنت طلحة وأنظر إليهما تختصمان إلى عمر بن أبي ربيعة «قالت سكينة لعائشة بنت طلحة : أنا أجمل منك، وقالت عائشة : بل أنا فاختصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال: لاقضين بينكما، أما أنت يا سكينة فأملح منها، وأما أنت يا عائشة فأجمل منها، فقالت سكينة : قضيت لي والله »[12] .

وكانتا تتنافسان ومن ذلك ما جاء في الاغاني «أن عائشة بنت طلحة حجت وسكينة بنت الحسين (رضي الله عنهما) معا، وكانت عائشة أحسن آله وثقلا فقال حاديها :

عائش يا ذات البغال الستين لا زلت ما عشت كذا تحجين

فشق ذلك على سكينة ونزل حاديها يقول :

عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما أهتدى أبوك

فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف »[13]

أنى لشباب الحجاز أن يصمد وهاتان ومثيلاتهما كثير يعملن على أن يجعلن من أنفسهن تحفا فنية، تحفا تملك ضروبا وألوانا من الحسن والجمال لا حسنا واحدا ثابتا، وإذا لتفننهن في زينتهن تأثير شديد قاهر حتى في هيئة الرجال وزيهم، فيعمدون إلى تقليدهن دون مبالاة بما يحتمه فارق الجنس من إختلاف في الزي والهيئة»[14] .

وهذه جميلة تجرؤ على عبد الله بن جعفر تستزيره بعد أن هيأت المجلس ونسقته تنسيقا غريبا «جلست جميلة يوما للوفادة عليها وجعلت على رؤوس جواريها شعورا كالعناقيد إلى أعجازهن، والبستهن الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان وزينتهن بأنواع الحلى، ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره، فما كان من عبد الله بعد أن لبى الدعوة وحضر المجلس إلا أن قال «ما ظننت أن مثل هذا يكون أو أنه لما يفتن القلب» [15] .

ولا ترى سكينة حرجا من التحرر في القول . . . ولعل من أسباب هذا التحرر (والعهدة على صاحب الأغاني) الذي حدا بها الى الأفحاش في القول احيانا إختلاطها بالرجال مما قد يؤدي الى التشبه بهم واحتذائهم في القول والفعل.[16].

---

١١) الأغاني - ١٦/٩٤. ١٢) ن . م - ٦/١٠٠. ١٣) ن . م - ١١/١٧٧ - ١٧٨.

١٤) البشير المجدوب - الظرف والظرفاء بالحجاز في العصر الأموي - دار التركي للنشر - تونس ١٤٠٨/١٩٨٨ - ٣٤ .

١٥) الأغاني - ٨/٢٢٧ - ٢٢٩. ١٦) ن . م - ١٦/٩٤٤ .

هؤلاء، ومال طائل مع فراغ مهول ويأس من خوض غمار السياسة لا تولد إلا أحد أمرين إما علم ونسك وزهد في الدنيا، وإما إنغماس في الشهوات الى الأذقان.

وفعلا فقد عرف الحرمان الشريفان، مدرستين إسلاميتين عريقتين تخرج منهما جيل من التابعين على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ ويأتي في مقدمتهم في مكة مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبى رباح، وطاؤوس بن كيسان، وفي المدينة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام[٤].

لكنهما أيضا عرفا طبقة من المترفين الذين ضربوا أشواطا في اللهو والعبث والمجون، ومن سياسة الأمويين انهم كانوا يدينون هؤلاء حتى بقوا دائما تبعا لهم، ومن ذلك ما جاء في الأغاني «كان السلطان بالمدينة إذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش منه، وكتب بذلك صكا عليه فيستعبدهم به ويختلفون إليه ويدارونه فإذا غضب على أحد منهم أستخرج ذلك منه . . . . . »[٥].

ويذكر أحمد أمين أسبابا عدة من بينها العامل السياسي «وربما كان السبب أن الأمويين تبوأوا الخلافة وحصروها فيهم بل في بيت من بيوتهم وضيقوا على من عداهم من بطون قريش، وحجروا عليهم التفكير في الشؤون السياسية . . . . . فأنصرف فتيان الحجاز بما لهم من مال وفير وجاه عزيز عن الأمارة والخلافة والسياسة الى اللهو فكان الظرف وكان الغناء وكان المجون»[٦].

وذ لك هو مذهب طه حسين حيث يقول «وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا الفن (الغزل) كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار الذين ورثوا الأموال الطائلة الضخمة عن آبائهم وحيل بينهم وبين العمل السياسي. ومن هنا كانت مكة والمدينة ـ في العصر (عصر عمر بن أبي ربيعة) أقرب إلى اللهو والمجون والإفتتان باللذة وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخلافة»[٧].

---

٤) إنظر ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ط ٦ ١٩٦٤ ص١٧٠ ـ ١٧٦.

٥) أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦/٩٦٦) الأغاني ـ دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ ـ ١٥/٦ ـ ٧.

٦) أحمد أمين ـ فجر ١٧٩.

٧) طه حسين ـ المجموعة الكاملة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٠ ـ حديث الأربعاء ـ م٢/٣٣٨.

والى جانب سياسة الامويين الهادفة يذكر ما نال اهل المدينة ومكة من خير الجوارى وأرفعهن نسبا والأمراء تأدبا، ومنهن من تربت ببيت الملوك والأمراء وتأدبت بأداب الحضارة فنقلن ذلك الى الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية، وكان لهن الفضل في تأسيس مدرسة الغناء بالحجاز [٨] . وفي هذا المضمار يطوف بنا أبو الفرج الأصفهاني في أطراف مكة والمدينة ونواديهما ومجال الأنس فيها فنجد ما لا يخطر على بال حتى يدخلنا الريب أنحن في الحرمين حيث كانت الأرض متصلة بالسماء، أم بدلت الأرض غير الأرض وتمرد الأحفاد على مسلك الرعيل الأول الذي لم يعرف في حياته إلا الجد والتفاني في الدعوة الى الله، ذاك هو الواقع وان كان أليما وثقيلا على النفس الطاهرة التي لا ترى في الحرمين إلا القداسة.

وهل لك أن تعيش مع هذا المشهد لتدرك كلف أهل الحجاز بالغناء والمغنين «أجتمع ابن سريج ومعبد والغريض وكتبوا لحنين (وهو بالعراق) يقولون: نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت اولى بزيارتنا، فشخص إليهم . . وأجتمعوا بمنزل سكينة فلما دخلوا أذنت للناس إذنا عاما فغصت الدار بهم . . وأزدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه، فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم» [٩].

وإن بدا لك هذا المشهد غريبا فأنظر إلى أهل المدينة وهم ينتحبون بكاء، لماذا يا ترى؟ ألمصاب جلل!! نعم إنه لمصاب أن تفارق سلامة المغنية محيطهم: «قدمت رسل يزيد بن عبد الملك المدينة فاشتروا سلامة المغنية من آل رمانه بعشرين ألف دينار . . . فخرجت حتى نزلت ساقية وشيعها الخلق من أهل المدينة، فلما بلغوا الساقية قالت للرسل: قوم كانوا يخشونني ويسلمون علي، ولا بد لي من وداعهم والسلام عليهم، فأذن للناس عليها فانقضوا حتى ملأوا رحبة القصر ووراء ذلك فوقفت بينهم ومعها العود فغنتهم:

فارقوني وقد علمت يقينا ما لمن ذاق ميتة من إياب

قال عيسى «وكنت في الناس، فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت وأنتحب الناس بالبكاء عند ركوبها، فما شئت ان أرى باكيا إلا رأيته» [١٠].

وإذا قلنا غناء فما وقود ذلك إلا نساء وشعراء وشعر ومجالس، أما عن النساء فقد اشتهرت إثنتان بدلالهن وتفننهن في هذا المضمار، إحداهن سكينة بنت الحسين وقد «كانت أحسن الناس شعرا وكانت تصفف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه، وكانت الجمة تسمى السكينة

٨) أحمد أمين ـ فجر ١٧٩ .

٩) نقلا عن احمد امين ـ فجر ١٧٦ ـ الأغاني ٢/١٢٢ ـ ١٢٣ .

١٠) الأغاني ـ ٨/٣٤٥.

كما أن هذه المجالس لا تخلو غالبا من الخمرة وهذه جميلة تقول (وقد أجتمع لديها مغنون من مكة ضيوفا عندها وبعض من مغنى المدينة «ما أحسن مجلسنا لو دام إجتماعنا، ثم دعت بالغذاء فأتى بألوان الأطعمة وأنواع من الفاكهة ثم قالت: لولا شناعة مجلسنا لكان الشراب معدا ولكن الليل بيننا، فلم يزالوا يومهم ذلك بأطيب مجلس وأحسن حديث، فلما جنهم الليل دعت بالشراب ودعت لكل رجل منهم بعود وأخذت هي عودا فضربت. . .»[17].

ومما يذكر في باب لطف معاملة الجلساء والرفق بهم ومراعاة منازعهم الخاصة والحرص على عدم إحراجهم عدم إلزام الحاضرين بتناول الشراب، وتلطفها (جميلة) في إلتماس ذلك منهم «. . .ثم دعت بأنواع الأشربة فقال عمر بن أبي ربيعة): لا أشرب، وقال إلى عتيق مثل ذلك فقال الأحوص لكنني أشرب، وما جزاء جميلة أن يمتنع من شرابها؟ قال عمر: ليس ذلك كما ظننت، قالت جميلة: من شاء أن يحملني بنفسه ويخلط روحي بروحه شكرناه، ومن أبى عذرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا من قضاء حوائجه والأنس بمحادثته، قال أبن أبى عتيق ما يحسن بك إلا مساعدتك، قال عمر: إلا أكون أخسكم، إفعلوا ما شئتم تجدوني سميعا مطيعا، فشرب القوم أجمعون»[18].

ولم يكن عمر بن أبى ربيعة حكرا على جميلة بل كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب ولذلك فهو لم يكن يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض للجمال فلا يفرغ من تشييع إمرأة إلا قال الشعر الجيد يسبقها الى موطنها، ولا يلبث أن يسقط بين أيدي المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الارستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار فكان موسم الحج موسم شعر وغناء في الحجاز، فالصلة الجنسية حينئذ هي أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس إلى عمر فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل لا يستطيع ان يعيش بدونها[19] وها أنا أدخل بك المطاف ـ وأنت تعلم قداسة هذا المكان الذي تساوى فيه الصلاة مائة ألف صلاة في غيره من الأماكن ـ لتلقى عمر بن أبى ربيعة، ما يفعل يا ترى؟ إنه بلغة العصر يعاكس إمرأة عفيفة، «قدمت إمرأة مكة و كانت من أجمل النساء، فبينما عمر بن أبى ربيعة يطوف إذ نظر إليها فوقعت في قلبه فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه، فما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها فقالت: إليك عني يا هذا، فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة، فألح عليها يكلمها حتى خافت أن يشهر بها، فلما كانت في الليلة الأخرى قالت لأخيها: أخرج معي يا أخي فأرني المناسك فإني لست أعرفها، فأقبلت وهو معها فلما رأها عمر أراد أن يعرض لها فنظر الى أخيها فعدل عنها فتمثلت المرأة بقول جرير:

---

١٧) البشير المجدوب ـ الظرف ٤١ هامش ٣٩ .
١٨) الأغاني ـ ٨/١٩٧ ـ ١٩٨ .
١٩) الأغاني ـ ٨/٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

تعـدو الـذئـاب على من لا كلاب له وتتقى صولـة المستـأسـد الضـارى[٢٠]

وترى الصلحاء يخشون على بناتهم من شعر عمر لشدة كلف الناس به ولما فيه من إثارة، يقول أبو الفرج «. . . . . حدثتني ضبية ـ مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب ـ قالت: مررت بجدك عبد الله بن مصعب، وأنا داخلة منزله بفنائه، ومعي دفتر، فقال: ما هذا معك؟ ودعاني فجئته وقلت: شعر عمر بن ابى ربيعة، فقال: ويحك، أتدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة؟ إن لشعره لموقعا في القلوب ومدخلا لطيفا، لو كان شعر يسحر لكن هو، فارجعني به قالت: ففعلت»[٢١].

كما أن الأمر لا يقف عند الكلام بل يتحول إلى الفعل حيث «واعدت الثريا عمر بن أبي ربيعة أن تزوره فجاءت في الوقت الذي ذكرته، فصادفت أخاه الحارث قد طرقه وأقام عنده، ووجه به في حاجة له ونام مكانه وغطى وجهه بثوبه، فلم يشعر إلا والثريا قد ألقت نفسها عليه تقبله، فانتبه وجعل يقول: أغربي عني فلست بالفاسق، أخزاكما الله، فلما علمت بالقصة أنصرفت ورجع عمر فأخبره الحارث بخبرها فأغتم لما فاته منها وقال: أما والله لا تمسك النار أبدا وقد ألقت نفسها عليك، فقال له الحارث: عليك وعليها لعنة الله»[٢٢] ويا ليت يقف عند هذا الحد بل شاع الزنا وكيف لا يشيع وكل مقدماته معروضة في الطريق وفي هذا الخبر دليل على ذلك.

يروي الأصفهاني أن أم أشعب قد زنت «فضُربت وحلقت وطيف بها وهي تنادي: من رآني فلا يزنين، فأشرفت عليها إمرأة فقالت: يا فاعلة، نهانا الله عز وجل عن الزنا فعصيناه، ولسنا ندعه لقولك وأنت محلوقة مضروبة يطاف بك»[٢٣].

ويضاف إلى هذا ظاهر التخنث والإنحراف الجنسي ويتجلى ذلك في ما يروى عن الدلال (وهو من المخنثين) من أخبار تتصل بإنحرافه الجنسي ومجونه الذي بلغ حد الأستهانة بحرمة الدين حتى لقد عد هذا المغنى المخنث خطرا على أخلاق أهل المدينة، ولا سيما النساء.

أنظر إليه كيف يكون سببا في قتل مروان بن الحكم بنت أخيه: «كان الدلال ملازما سعيد الأسلمية وبنت ليحي بن الحكم بن أبي العاص، وكانتا من أمجن النساء كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدوا خلاخيلهما فقال معاوية لمروان بن الحكم أكفني

---

٢٠) انظر طه حسين ـ حديث ألاربعاء ١/٣١٣ .

٢١) ألاغاني ـ ١/٨٦ ـ ٨٧ .

٢٢) ألاغاني ـ ١/٨٦ .

٢٣) ن . م ـ ١/٢١٨ .

بنت أخيك، فقال: أفعل، فأستزارها وأمر ببئر فحفرت في طريقها، وغطيت بحصير، فلما مشت عليه سقطت في البئر، فكانت قبرها، وطلب الدلال فهرب إلى مكة، فقالت نساء أهل مكة: قتلت نساء أهل المدينة وجئت لتقتلنا»[٢٤].

وقد رثاها عمر بن أبي ربيعة وأنتصر لها تلميحا لا تصريحا:

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول[٢٥]

ونختتم الحديث عن الدلال بما جاء من ذكر لا برز سمات شخصيته في الأغاني «إنما لقب بالدلال لشكله وحسن دلاله وظرفه وحلاوة منطقه وحسن وجهه وإشارته وكان مشغوفا بمخالطة النساء ووصفهن للرجال. . . .»[٢٦]

ومن أراد التعرف على ما وصل الأمر إليه من الفحش فليعد إلى أخباره في الأغاني مما نصون عنه صفحات هذا الكتاب.

و لايفوتنا أن نذكر أيضا ما عرفته هذه الربوع الزكية من رغبة في الضحك والإضحاك رغم علم أهلها أن كثرة الضحك تميت القلب وهل بقت لمثل هؤلاء قلوب ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [٢٢ الحج ٤٦].

وهذه منافسة بين مندرين ـ أشعب والغافري ـ «بلغ أشعب أن الغافري قد أخذ في مثل مذهبه ونوادره، وأن جماعة قد أستطابوه، فرقبه حتى علم أنه في مجلس من مجالس قريش يحادثهم ويضحكهم، فصار إليه ثم قال له: بلغني أنك قد نحوت نحوي وشغلت عني من كان يألفني، فإن كنت مثلي فأفعل كما أفعل، ثم غض وجهه وقال له: أفعل هكذا وطول وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر في سيف، ثم نزع ثيابه وتحادب فصار ظهره حدبة كسنام البعير، وصار طوله مقدار شبر أو أكثر. ثم قام فتطاول وتمدد وتمطى حتى صار كأطول من يكون من الرجال، فضحك والله القوم حتى أغمى عليهم، وقطع الغافري فما تكلم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء لا أعاود ما تكره وإنما أنا تلميذك وخريجك، ثم أنصرف أشعب وتركه»[٢٧].

---

٢٤) ن . م ـ ١٩/١٤٦ .
٢٥) الأغاني ـ ١٦/١٠٤ ـ ١٠٥ .
٢٦) عمر بن أبي ربيعة ـ الديوان ٤٩٨ .
٢٧) الأغاني ـ ٤/٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

ولأ شعب نوادر عديدة مع أبان بن عثمان وهو أمير على مكة [٢٨] ومع أبى بكر بن يحيى من آل الزبير [٢٩] ومع محمد بن عمر بن حزم [٣٠] والي المدينة فيها من الأخلال بالمروءة ما فيها.

والملاحظ أنه لم يسلم من أشرار هذا المحيط حتى من صلحت حاله من الصحابة والتابعين والعباد لكن مع محافظتهم عى وقارهم وإنما هي الطرفة تعرض للصالح فلا يعرض عنها ولكنه لا يأتيها ولا يولع بها.

وتعترض عائشة بنت طلحة ثلاث مرات لأبي هريرة فيعبر عن إعجابه بجمالها تعبيرا يحتسب فيه الأجر من الله.

الأولى : «أن عائشة (بنت طلحة) نازعت زوجها الى أبى هريرة، فوقع خمارها عن وجهها، فقال أبو هريرة: سبحان الله ما أحسن ما غذاك أهلك، لكأنما خرجت من الجنة»[٣١].

الثانية: «..... فصارمت عائشة زوجها، وخرجت من دارها غضبى، فمرت في المسجد وعليها ملحفة تريد عائشة أم المؤمنين، فرآها أبو هريرة فقال: سبحان الله، كأنها من حور العين»[٣٢].

الثالثة : «قال أبو هريرة لعائشة بنت طلحة: ما رأيت شيئا أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله ﷺ»[٣٣].

ولا تعجب إذا علمت أن أبن عباس كان يحفظ شعر أبن أبى ربيعة ويستجيده وما أخاله إلا لبراعته الأدبية لما فيه من خلافة ومجون وقد جاء في الأغاني «بينما أبن عباس في المسجد الحرام، وعنده نافع بن الازرق وناس من الخوارج يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس فأقبل عليه أبن عباس فقال أنشدنا فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: الله يا أبن عباس، أنا نضرب إليك أكباد الأبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام، فتتثاقل عنا، ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك:

---

٢٨) ن . م - ١٠٢/١٩ .
٢٩) ن . م - ١١٩/١٩ - ١٢١ .
٣٠) ن . م - ٨٢/١٩ .
٣١) ن . م - ٨٥/١٩ - ٨٨ .
٣٢) ن . م - ١٧٨/١١ - ١٧٩
٣٣) ن . م - ١٦٩/١١ - ١٧٠

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيحسر

فقال ليس هكذا قال، قال: فكيف قال، قال:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيحضر

فقال ما أراك إلا قد كنت حفظت البيت، قال: أجل وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك أياها . . . قال ولامه بعض أصحابه في حفظ القصيدة فقال: إنا نستجيدها فكان أبن عباس، بعد ذلك كثيرا ما يقول هل أحدث هذا المغيري شيئا بعدنا»[٣٤].

ويذكر البشير المجذوب أنه نسب نفر غير قليل من أهل الصلاح والتقوى في الحجاز إلى الظرف وأشتهروا به حتى قيل (ظرف عباد الحجاز) تنويها به وتمييزا لهم عن عباد سائر الامصار الأسلامية، نذكر منهم أبا السائب المخزومي، وعطاء بن أبي رباح، وجريج، وسعيد بن المسيب والماجشون، وعبد الله بن جعفر . . . . ونسوق خبرا واحد من بين أخبار عديدة يوضح هذه النسبة ويساعد على تصور هذا اللون من الظرف، ومن أخص ما فيه جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه، فأدنيت ناقتي منها ثم قلت يا أمة الله ألست حاجة؟ أما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس ثم قالت: تأمل يا عمر، فإنني ممن عناه العرجى بقوله:

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين بردا مهلهلا
من اللائي لم يحججن بغية حسبة ولكن ليقتله البرىء المغفلا

قال فقلت لها: فإني أسأل الله أن لا يعذب هذا الوجه بالنار، قال وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها: أغربي قبحك الله، ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز»[٣٥].

تلك هي خطة بني أمية في تشجيع تيار الترف واللهو بالحجاز قد آتت أكلها، فصرف أعيان قريش عن السياسة وأقبلوا على متع الفن ولذات الحياة، وأولعوا خاصة بالغناء والفكاهة والمزاح، سدا للفراغ، وتعويضا عن الحرمان من السلطة، بحيث يصح القول أن القرن الأول بالحجاز كان عصرا ضاحكا مرحا على ما فيه من جد وعلم عبادة.

وفعلا قد طرأ تطور مدهش على النفسية العربية في مدى جيل واحد ويتضح هذا الفارق الكبير بين ما عرف به جيل الصحابة وجانب من جيل التابعين من جد وورع وبين ما جاء في الأغاني من أخبار عن الجيل الموالي من أمثال أبان بن عثمان (وكان من أهزل الناس

٣٤) ن . م - ١٨/١١ .
٣٥) ن . م - ٨١/١ - ٨٢ .

وأعبثهم) وعبد الله بن جعفر ومصعب بن الزبير وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهم كثير . . . . . [٣٦] انها لمقابلة صارخة ليس بين الأباء والأحفاد وانما هي بين الأباء والأبناء فأين ابان من عثمان، واين مصعب من الزبير، واين سكينة من الحسين، واين عائشة من طلحة، وانت تعلم ما لهؤلاء الصحابة المهاجرين من سابقة في الإسلام لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

إنها السياسة التي عرفت كيف تستغل لصالحها ما تدفق من الأموال على المدينة ومعلوم أن معاوية أرسى قواعد هذه السياسة المتمثلة في إغداق الأموال على الخصوم حتى تلين شوكتهم ويأمن شرهم.

وتروي كتب التاريخ توفر عنصر آخر مزج الأجناس ألا وهو عنصر الرقيق، فمعاوية ذاته أرسل زمن عمر إلى عاصمة الخلافة آنذاك أربعة آلاف من أسرى قياسرية، كما قسم الوليد بن عبد الملك، وهو الذي فتحت الأندلس وشطر كبير من الهند في عهده، رقيقا كثيرا بين سكان أهل المدينة[٣٧].

كل هذا مكن من أن يجتمع في الحجاز في هذا القرن من مشهوري المغنيين والمغنيات جميلة ، وهيت، وطويس والدلال، وبرد الفؤاد ونوحة الضحى، ورحمة وهبة الله، ومعبد، وأبن سريج، والغريض، ومالك، وإبن عائشة، ونافع بن طنبورة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة، وبلبلة، ولذة العيش، والسعيدة الزرقاء. . . . » [٣٨].

ومع ذلك يبقى موطن الخير وإن طغى الشر وحرص على أن يتعالى، ومهما حاولت الدولة الأموية عزل الحجاز حتى يطمئن لها الأمر فأن أهلها في غرق الأذقان في السياسة وهددت معارضته كيان الدولة الأموية.

فمن الحجاز خرج عبد الله بن الزبير بن العوام ودعا لنفسه بالخلافة «ودوخ جيوش بني أمية ورجالهم حينا، وكان بها بيت علي بن ابي طالب. . . . » كما أن العلم لم يندرس فقد تخرج من الحجاز فقهاء نذكر منهم الإمام مالك الذي حضر خطبة أبي حمزة الشاري وشهد لها بما سيرد ذكره في مما يلي ـ ذاك الذي كاد يحرقه شرار اللهو لولا حسن توجيه أمه. جاء في الأغاني «قال (مالك بن أنس) نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم، فقالت لي أمي يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه، فدع الغناء وأطلب الفقه، فأنه

٣٦) ن . م ـ ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .
٣٧) انظر البشير المجدوب .
٣٨) شوقي ضيف ـ الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ـ دار المعارف القاهرة ـ ٥٠ .
٣٩) أحمد أمين ـ فجر ١٧٦ .

لا يضر معه قبح الوجه، فتركت المغنين، وأتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز جل ما ترى»[٤٠].

ولعلك أيها القارىء بعد صبرك على ما علمت من رؤوس متطايرة إلى دمشق وعن قلوب عصف بها الهوى في الحرمين ترغب في أن تعلم شيئا عن أخبار اليمن منطلق ثورة طالب الحق.

٤٠) شوقي ضيف ـ المصدر السابق ٢٠ .

١) سنفصل الحديث إن شاء الله عن هذه المعركة في المحور الرابع ضمن أخبار أبي حمزة الشاري .

٢) الطبري ـ تاريخ ٤/٣٢٨ ـ الأغاني ٢٣/١٢١ .

٣) لزيادة التفصيل أنظر ـ أبن خلدون ـ تاريخ عمال بني أمية على النواحي ٣/٢٨٧ ـ ٣٠٣ .

٤) أنظر ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ط ٦ ١٩٦٤ ص ١٧٠ ـ ١٧٦ .

٥) أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦/٩٦٦) الأغاني ـ دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ ـ ١٥/٦ ـ ٧ .

٦) أحمد أمين ـ فجر ١٧٩ .

٧) طه حسين ـ المجموعة الكاملة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٠ ـ حديث الأربعاء ـ م٢/٣٣٨ .

٨) أحمد أمين ـ فجر ١٧٩ .

٩) نقلا عن أحمد أمين ـ فجر ١٧٦ ـ الاغاني ٢/١٢٢ ـ ١٢٣ .

١٠) الأغاني ـ ٨/٣٤٥ .

١١) الأغاني ـ ١٦/٩٤ .

١٢) ن . م ـ ٦/١٠٠ .

١٣) ن . م ـ ١١/١٧٧ ـ ١٧٨ .

١٤) البشير المجدوب ـ الظرف والظرفاء بالحجاز في العصر الأموي ـ دار التركي للنشر ـ تونس ١٤٠٨/١٩٨٨ ـ ٣٤ .

١٥) الأغاني ـ ٨/٢٢٧ ـ ٢٢٩ .

١٦) ن . م ـ ١٦/٩٤٤ .

١٧) البشير المجدوب ـ الظرف ٤١ هامش ٣٩ .

١٨) الأغاني ـ ٨/١٩٧ ـ ١٩٨ .

١٩) الأغاني ـ ٨/٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

٢٠) أنظر طه حسين ـ حديث الاربعاء ١/٣١٣ .

٢١) الأغاني ـ ١/٨٦ ـ ٨٧ .

٢٢) الأغاني ـ ١/٨٦ .

٢٣) ن . م ـ ١/٢١٨ .

٢٤) ن . م ـ ١٩/١٤٦ .

٢٥) الأغاني ـ ١٦/١٠٤ ـ ١٠٥ .

٢٦) عمر بن أبي ربيعة ـ الديوان ٤٩٨ .

٢٧) الأغاني ـ ٤/٢٧٢ ـ٢٧٣ .

٢٨) ن . م ـ ١٩/١٠٢ .

٢٩) ن . م ـ ١٩/١١٩ ـ ١٢١ .

٣٠) ن . م ـ ١٩/٨٢ .

٣١) ن . م ـ ١٩/٨٥ ـ ٨٨ .

٣٢) ن . م ـ ١١/١٧٨ ـ ١٧٩ .

٣٣) ن . م ـ ١١/١٦٩ ـ ١٧٠ .

٣٤) ن . م ـ ١١/١٨ .

٣٥) ن . م ـ ١/٨١ ـ ٨٢ .

٣٦) ن . م ـ ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

٣٧) أنظر البشير المجدوب .

٣٨) شوقي ضيف ـ الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ـ دار المعارف القاهرة ـ ٥٠ .

٣٩) أحمد أمين ـ فجر ١٧٦ .

٤٠) شوقي ضيف ـ المصدر السابق ٢٠ .

٤١) أحمد أمين ـ فجر ١٧٧ .

الفصل الثالث

اليمن : ظلم الولاة من بني ثقيف

بعد أن عرفت بلاد اليمن لذة العيش في رحاب الاسلام في ظلال أصحاب رسول الله ﷺ من أمثال معاذ بن جبل تنكب بعض أهلها للاسلام وأرتد منهم من أرتد فقومهم أبو بكر كما قوم غيرهم، ثم شكا الناس يعلي بن أمية والى عمر على اليمن فشخص إلى المدينة وأظهر بطلان الشكاية فأسعفه عمر بن الخطاب لكنه شكى أخرى فدعاه إلى أن يشخص إلى المدينة ماشيا لكن ما إن أنطلق من صنعاء ملبيا حتى وافاه خبر مقتل عمر وإقرار عثمان إياه على اليمن فقفل راكبا راجعا وأستمر في الإثراء وجمع المال إلى أن عزله علي وعين مكانه أبن عمه عبيد الله بن العباس فما كان من يعلي بن أمية ويقال له يعلي بن منية الا أن انضم إلى طلحة والزبير وعائشة وأعان بمال وابل [٢] ، ويقول فيه الإمام علي بأنه أعطى الناس لأنه كان يعطي الرجل الفرس، والسلاح وثلاثين دينارا على أن يخرج فيقاتلني «يقول أبن الأثير: ثم صار من اصحاب علي، وقتل وهو معه في صفين» [٣] .

وقبل أن يستقر الأمر لمعاوية أرسل بسر بن أرطأة وهو قائد جبار من الفتاكين في ثلاثة آلاف إلى المدينة فأخضعها، وإلى مكة فأحتلها، وإلى اليمن فدخلها [٤] «فسفك الدماء وأرتكب الأفعال الشنيعة، وقتل ابي عبيد الله بن العباس» [٥] ، وكان معاوية أمره أن يوقع بمن يراه من أصحاب علي فقتل منهم جمعا وعاد إلى الشام» [٦]

---

١) راجع تاج الدين اليماني ـ تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ـ تحقيق مصطفى حجازي ـ دار الكلمة صنعاء ط٢ ١٩٨٥ .

٢) ن . م ـ ٢٠

٣) الزركلي ـ الأعلام طبعة ٦ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤ ـ ٨/٢٠٤ .

٤) ن . م ـ ٢١/٥١ . ٥) اليماني ـ تاريخ اليمن ـ ٢٠ ـ ٢١ ٦) الأعلام ـ ٢/٥١ .

ولاة بني أمية على اليمن

	بسر بن أرطأة
	عثمان الثقفي
	عتبة بن أبي سفيان
معاوية	النعمان بن بشير الأنصاري
	سعيد بن دادويه من أبناء الفرس
	الضحاك بن فيروز
يزيد	يحي بن زيان الحميري ـ صنعاء ـ الجند
عبد الملك بن مروان	محمد بن يوسف الثقفي (من قبل الحجاج)
الوليد	أيوب بن يحي الثقفي (أبن عم الحجاج)
سليمان	عروة بن محمد السعدي
يزيد	مسعود بن عوف الكلبي
هشام	يوسف بن عمر الثقفي
	الصلت بن يوسف الثقفي
الوليد بن يزيد	مروان بن محمد بن يوسف الثقفي (أبن أخي الحجاج)
يزيد بن الوليد	الضحاك بن واصل السكسكي
مروان بن محمد	القاسم بن عمر الثقفي (أخو يوسف بن عمر)

إن المتأمل في أسماء ولاة بني أمية على اليمن يدرك أن الأمويين إنما أرادوا أن يجعلوا من اليمن مقاطعة ثقفية خاصة وقد أدركوا أن هوى اليمنيين مع الزبير والعلويين.

ونحن نعلم أن هذه البلاد صارت تابعة لأبن الزبير زمن إعلانه الخلافة وهذا مما زاد الأمويين شراسة وكثيرا ما تتكرر عبارات «فسفك الدماء» و«قاطعة عليها بمال عظيم». والمتتبع لأخبار بعض هؤلاء الولاة يتحقق أنهم لم يختاروا إلا ليسوموا أهل اليمن سوء العذاب، كذا

كان بسر بن أرطأة كما رأينا ويليه في العسف بجير بن زيان الحمري إذ « قاطعه يزيد عليها (مخلاف صنعاء ومخلاف الجند) بمال عظيم في كل سنة يرسله إليه وكان بجير عاتيا متجبرا»[٧]

أما محمد بن يوسف الثقفي فيكفي أنه موفد من قبل الحجاج والطيور على أشكالها تقع، وأستمع إلى عمر بن عبد العزيز يقول في خلافة الوليد «الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وأخوه (محمد بن يوسف) باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، أمتلاءت الارض والله جورا»[٨].

ويذكر أبن الأثير أنه «كان يأخذ الخراج من أهل اليمن مجددا»[٩]، ومن شرأته أنه قد جمع المجذومين بصنعاء وجمع لهم الحطب ليحرقهم، فمات قبل ذلك[١٠] ولسنا ندري ماذا أصاب الوالي ممن أبتلاهم الله تعالى بمثل هذا الداء، وكيف يجرؤ على إحراق خلق الله بغير ذنب أقترفوه. ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى واليه على اليمن «يأتمر بأقتصار على العشر وترك ما جدد، محمد بن يوسف»[١١] لكن لم تدم حلاوة العيش هذه لا لأهل اليمن ولا لغيرهم من المسلمين في أطراف العالم الاسلامي وحالما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك «أمر وإليه مسعود بن عوف الكلبي أن يأخذها (الأموال) من أهل اليمن حتى إذا إقتضى الحال أن يصبحوا ضد الدولة الأموية»[١٢].

ثم تربع على كل مخاليف اليمن مدة ثلاث عشرة سنة يوسف بن عمر الثقفي، وهو من جبابرة ولاة بني أمية، يسلك سبيل الحجاج في الأخذ بالشدة والعنف، وكان يضرب به المثل في التيه والحمق، يقال أتيه من أحمق ثقيف، ويقول عنه الذهبي «كان مهيبا جبارا ظلوما»[١٣].

ويعتبر هشام بن عبد الملك صقرا من قريش إذ يقذف به من اليمن إلى العراق ليذل واليها خالد بن عبد الله القسري لأنه أظهر بعض التمرد حيث يقول متوعدا خالدا «أما والله إني لأظن أن أول من يأتيك صقر من قريش يشد يديك إلى عنقك»[١٤]. ولم يشأ يوسف أن تنفلت منه اليمن بخيراتها فيستخلف عليها أبنه الصلت[١٥] وينطلق إلى العراق ليلبي رغبة سيده في العسف والطغيان، وبهذا ظلت بلاد اليمن ثقفية صرفا زمن هشام بن عبد الملك تتلظى بنار القسر والقهر مع هؤلاء الذين توارثوا الظلم صاغرا عن كابر. وتبقى مع الوليد بن

---

٧) اليماني تاريخ اليمن - ٢١ .
٨) الأعلام ١٤٧/٧ .
٩) أبن الأثير - الكامل في التراريخ ١٦٦/٤ .
١٠) اليماني - تاريخ اليمن - ٢٢ .
١١) أبن الأثير - الكامل ١٦٦/٤ .
١٢) ن . م - ١٦٦/٤ .
١٣) الأعلام - ٢٤٣/٨ .
١٤) أبن خلدون - تاريخ ٢٠٥/٣ .
١٥) ن . م - ٢٠٦/٣

يزيد سنة أخرى ولاية ثقفية بأمرة مروان بن محمد بن يوسف الثقفي، ثم تختم الحلقات بالقاسم بن عمر الثقفي، الذي يقول طالب الحق في عهده «أنه رأى اليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة»[١٦].

وفي هذا المعنى يقول أحمد جابر عفيف: «فقد تعددت الثورات في داخل البلاد في العهد الأموي والعباسي عندما كان يأتي الى اليمن ولاة قساة يظلمون أبناء البلاد ويسعون الى ابتزاز أموالهم»[١٧].

وهكذا يتراءى لنا ـ مع مهدي طالب هشام ـ «بوضوح أن الحكم في اليمن وراثي تقريبا في بني ثقيف خلال نصف قرن تقريبا من تاريخ اليمن ومثل هذا العسف الذي يحرم أهل البلاد، من التصرف في بلادهم من شأنه أن يثير حفيظتهم من هؤلاء الولاة ومن الخلفاء الذين يقذفون بهم إليهم الواحد تلو الآخر، ليكونوا على أستعداد ليثوروا مع أول داع للثورة»[١٨]. وحق لطالب الحق أن ينشد عندما عزم على الخروج كما سنرى في الفصول اللاحقة:

كوى بالأسى قلبي وأبكى نواظري بكاء اليتامى وابتسام الجبابرة[١٩]

وكيف لا يبكي المظلومون وهم تبتز أموالهم صباح مساء ولا يبتسم الجبابرة وهم في القصور يرفلون، وقد كان «سماط يوسف بن عمر كل يوم خمسمائة مائدة»[٢٠].

وبهذا ندرك أن الأوضاع الخاصة باليمن بلغت درجة قصوى من التدهور من النواحي الأقتصادية والأجتماعية والسياسية كافة ذاك أن الحكم فيها عوض أن يقوم على مبادىء الإخاء والتقوى قام على أساس التعصب القبلي المخالف لروح الشريعة الإسلامية.

كل هذا مع ما عرفته الدولة الاموية من تقلص في أطرافها جعل أهل الإستقامة يتحينون الفرصة من اليمن بغية الوصول إلى دمشق عسى أن تتحقق على إيديهم الإمامة الراشدة التي ما زالوا ينشدونها منذ عزموا القعود سنة ٦٤/٦٨٤ في إجتماع البصرة.

---

١٦) الأغاني ـ ٢٣.
١٧) أحمد جابر عفيف ـ الحركة الوطنية في بلاد اليمن ط١ دار الفكر دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢ ـ ٤٠.
١٨) مهدي طالب هاشم ـ الحركة الإباضية في المشرق العربي ـ ط١ ـ دار الإتحاد العربي للطباعة ـ ١٤٠١/١٩٨١م ـ ١٠٢.
١٩) ن. م ـ ١٠٢.
٢٠) الأعلام ـ ٨/٢٤٣.

١) راجع تاج الدين اليماني ـ تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ـ تحقيق مصطفى حجازي ـ دار الكلمة صنعاء ط٢ ١٩٨٥ .

٢) ن . م ـ ٢٠

٣) الزركلي ـ الأعلام طبعة ٦ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤ ـ ٢٠٤/٨ .

٤) ن . م ـ ٥١/٢١ .

٥) اليماني ـ تاريخ اليمن ـ ٢٠ ـ ٢١

٦) الأعلام ـ ٥١/٢ .

٧) اليماني تاريخ اليمن ـ ٢١ .

٨) الأعلام ١٤٧/٧ .

٩) أبن الأثير ـ الكامل في التراريخ ١٦٦/٤ .

١٠) اليماني ـ تاريخ اليمن ـ ٢٢ .

١١) أبن الأثير ـ الكامل ١٦٦/٤ .

١٢) ن . م ـ ١٦٦/٤ .

١٣) الأعلام ـ ٢٤٣/٨ .

١٤) أبن خلدون ـ تاريخ ٢٠٥/٣ .

١٥) ن . م ـ ٢٠٦/٣ .

١٦) الأغاني ـ ٢٣ .

١٧) أحمد جابر عفيف ـ الحركة الوطنية في بلاد اليمن ط١ دار الفكر دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢ ـ ٤٠ .

١٨) مهدي طالب هاشم ـ الحركة الإباضية في المشرق العربي ـ ط١ ـ دار الإتحاد العربي للطباعة ـ ١٤٠١/١٩٨١م ـ ١٠٢ .

١٩) ن . م ـ ١٠٢ .

٢٠) الأعلام ـ ٢٤٣/٨ .

الباب الثاني

إستعداد أهل الإستقامة بمركز الدعوة بالبصرة لإحياء الإمامة

الفصل الأول

الإمام جابر بن زيد وحكمة التنظيم في مسلك الكتمان

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ [٤٩ الحجرات ١٣].

تلك هي رسالة الإسلام التي قام بها المصطفى الذي أرسله ربه رحمة للعالمين ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [٢١ الأنبياء ١٠٧] ولم يفتر عن الدعوة إلى الله تعالى مذ قال لزوجته خديجة: مضى عهد النوم يا خديجة عندما قال له ربه ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر والرجز فأهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ [٧٤ المدثر [١-٧].

لقد ظل قائما إلى آخر رزق في حياته يبشر وينذر ويحول العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن وحشة الفرقة إلى أنس الإخاء والمحبة والوئام، فتقاربت أطراف الجزيرة العربية وتعارفت قبائلها وشعوبها بعد أن كانت مضرب الأمثال في التنافر والتناحر، بل ضمت الدعوة في جنباتها الحبشي والرومي والفارسي، وآجلست في حلقة واحدة العبد وسيده، كل ذلك عسى أن يحصل على درجة الإتقى ورجاء أن يكون عند الله أكرم. ولم يكن ذلك حكرا على العرب في جزيرتهم بل لم ينتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن وصلت رسائله مبشرة بنور الهدى أطراف العالم المعروف آنذاك تنعم بالمسلمون المخلصون بالطمأنينة فتألقوا وتآخوا وتحابوا، وأقاموا مجتمعا إسلاميا ساميا إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فكانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

بأرساء هذ المعاني والتمسك بها أندحر المرتدون وواصل الفاتحون التبشير بدين الله مخلصين له الدين همهم أن تكون كلمة الله هي العليا لا أن يغنموا ويكدسوا من متاع الدنيا الفاني. هكذا كان الأمر ردحا من الزمن، مسلك واحد وأمة واحدة.

ثم طرأ ما طرأ ـ وياليته لم يطرأ ـ لكن لله في خلقه شؤون، فكانت واقعة الدار وقتل عثمان، وقام علي فكانت واقعة الجمل، ثم جاءت الطامة الكبرى في صفين، وأي طامة أكبر على

المسلمين من صفين هذه المعركة التي فرقت المسلمين بعد الوحدة، وأذكت فيهم نار العصبية من جديد بعد أن أدركوا أنها منتنة. وتعصف رياح الملك التي حبك أمرها داهيتان من دهاة العرب - وليتهما سخرا دهاءهما في ما يجمع لا في ما يفرق - بالإمام علي وينزع من أمامته الشرعية نزع الخاتم من يد أبي موسى الاشعري، وليثبت مكانه فيها معاوية كما تثبت الخاتم في أصبع عمرو بن العاص.

يا لها من لعبة سخيفة ليس بعدها سخف أفنت الطريف والتالد، وصيرت المسلمين ثلاث كتل، إذا أراد علي أن يمضي في طريقه وأصر معاوية على عناده في المطالبة بدم عثمان، وقامت جماعة كان بها نصر علي وشيكا في قتال الفئة الباغية، وبايعت لها إمام هو عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان، إذ عزل الإمام علي، ولا قيمة لمعاوية، ولا بد في الشرع من امام، وكان شعارهم لا حكم إلا لله، وهي ليست كلمة حق أريد بها باطل، وإنما هي كلمة حق أريد به حق، أثبت التاريخ نجاعتها إذ لو رفض علي الخدعتين خدعة رفع المصاحف وخدعة التحكيم وثبت أنهما خدعتان من صنع عمرو بن العاص - لما كان ما كان، ولكن انى للوأن تنفع قد سبق السيف العدل، كما يقول المثل. وهكذا إنقسم المسلمون إلى ثلاث كتل وما يزالون.

وتضطرب الأمور أمام علي وقد عزله صاحبه عن الإمامة فيصب جام غضبه على أهل النهروان ويكاد أن يستأصلهم، فلا ينجو منهم إلا قليل من بينهم عروة بن أدية وأخوه أبو بلال علما الشراء والثورة على الباطل ويستقر الأمر لمعاوية بعد أن يقتل علي - والله أعلم كيف تم تدبير قتله إذ لم يصاب علي ولا يصاب عمرو ومعاوية والخطة واحدة[1].

ويسلم الحسن لمعاوية كما ذكرنا في المحور السابق.

وما كان لعروة وأخيه مرداس ومن أنظم اليهما أن يسكتوا على جور الأمويين الذين تجسم في كل ربوع العالم الإسلامي وتطايرت رؤوس الأحرار المعبرين عن آرائهم بكل قوة وإخلاص صلبت أجسادهم على أبواب دمشق وغيرها. وقد تجلى هذا الظلم الزعاف أكثر ما تجلى في كعبة العراق آنذاك مدينة البصرة مركز من مراكز العلم ومنارة من منارات الحضارة.

---

١ - قتل الإمام علي بن أبي طالب قد تم بتدبير من الأشعث بن قيس ولا تنس العلاقة بين الأشعث ومعاوية بن أبي سفيان فقد بات عبد الرحمن بن ملجم ليلة مقتل الإمام علي مع الأشعث وكان حجر بن قيس وهو أخو الأشعث حاضرا فسمع أخاه الأشعث يقول لعبد الرحمن بن ملجم قم لقد فضحك الصبح، وعندما شاع خبر مقتل الإمام علي قال حجر لأخيه الأشعث أنت قتلته يا عدو الله، أنظر مقاتل الطالبين لأبي الفرج الاصفهاني ص٣٣ والكامل للمبرد وفي قصيدة أبي الأسود الدؤلي في رثاء علي بن أبي طالب وإشارة واضحة إلى ذلك انظر تاريخ الطبري الجزء الخامس ص١٥٠.

أتعرف مدينة البصرة إنها مدينة ساحلية تقع جنوب بلاد الرافدين على ضفاف شط العراق أقامها المسلمون بأمر من الخليفة عمر لتكون منطلقا لكل خير ومحطة تربط بين طرفين من أطراف العالم الإسلامي نعم إنها محطة لملتقى الحضارات الفارسية والهندية والصينية، ويكفي هذه المدينة فخرا أنها من الأمصار التي مصرها عمر وأنها آوت جمعا من أصحاب رسول الله ﷺ من بينهم حبر الأمة عبد الله بن عباس وأنس بن مالك خادم رسول الله وزيد بن ثابت كاتب الوحي، وغيرهم ممن كانوا يترددون عليها، وقد تخرج على أيديهم جيل من التابعين راسخ في العلم يأتي على رأسهم جابر بن زيد والحسن البصري وأبن سيرين. هؤلاء جميعا كانوا هناك لكن ما كان أبن زياد وأبنه عبيد الله أن يتورعا عما جبلا عليه من ظلم وقد لحق ظلمهما بعضا من هؤلاء الذين شهد لهم الناس بالتقوى والصلاح. . وما كان لعروة بن أدية ليسكت على ظلم أبن زياد ونحن نعلم أنه أول من عمل سيفه على الأشعث بن قيس في صفين يوم جاء ينادي للتحكيم ، وهو يقول ما هذه الدنية يا أشعث ، وما هذا التحكيم، أشرط أوثق من شرط الله. ولما أحس زياد بخطر حركة الشراة ظل يتبعهم في كل مكان إلى أن أتى له بعروة مع مولاة ، فدارت بينهما المحاورة التالية :-

«سأل زياد عروة عن أحوال الخلفاء والولاة حتى سأله عن نفسه فقال: أولك لزنى وآخرك لدعوى وأنت بعد عاص لربك» ورغم ذلك يبقى عليه زياد إلى أن يؤتى به لعبيد الله بن زياد فكان ما يلي: «ثم قال له أبن زياد: أختر لنفسك من القصاص ما شئت فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ثم قال هل كيف ترى؟ قال: أفسدت علي دنياي وأفسدت عليك آخرتك. ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره».

ثم دعا مولاه فقال له صف لي أموره فقال «أأطنب أم أختصر؟ فقال: أختصر. فقال: ما أتيته بطعام نهارا قط، ولا فرشت له فراشا بليل قط»[٢]. هذا هو عروة الشاري فارس بالنهار وراهب بالليل، لا يخاف في الله لومة لائم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بلسانه ويده ولم يختر أضعف الإيمان فمات شهيدا على المبدأ، وما كنت لأطنب بعض الشيء في سيرته لولا أنه مولى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الإمام الثاني لأهل الأستقامة كما سنعلم بعد حين، فمن علمه أقتبس ومن جرأته كرع[٣].

ولا يمكن أن يذكر عروة دون أن يذكر مرداس فهما صنوان، «لكل منهما أيام الشراء وأيام

---

١) أبو العباس أحمد الدرجيني (حوالي ٦٧٠/١٢٧١) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق أبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسطنطينة الجزائر د. ت ٢/٢١٦ .

٢) ن . م ٢/٢/٢١٦ و ٢٢٤ . ٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ بيروت ١٩٤٨ ـ ٢/١٨٠ .

القعود، كل مواطن مرضى، وكل مقام محمود لأنهما عرفا بالتشمير والتصميم في الدين، والأنفة عن طريق المهادنين»[٤] . فأستمع إلى أبي بلال لما أحس وأصحابه ألا قدرة على الظهور يقول لأصحابه «أنه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجرى علينا أحكامهم مجانفين للعدل، مفارقين للفضل، والله إن الصبر على هذا لعظيم، ولكنا نشذ عنهم، ولا نجرد سيفا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا»[٥] .

ذاك هو الشراء بعينه تعبير صريح عن إنكار المنكر عند العجز عن التصدي له وفي ذلك يقول أبو بلال :-

أبعد أبن وهب في الوفاء وفي التقى ... ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب لقاء أو أرجى سلامة ... وقد قتلوا زيد بن حسن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي ... وزدني التقى حتى ألقي اولائكا

نعم إنه الإخلاص للدين والمبدأ مهما كان الثمن.

وفعلا يخرج شاريا على ألا رجوع إلى موطن المنكر ويدرك أبن زياد قيمة هذا الشراء فلا يمكن أن يسكت عليه، فيرمى هذه القلة التي بلغت الأربعين الناجية بدينها بجيش قوامه ألفان من الفرسان المدربين على شتى وجوه القتال بقيادة أسلم بن زرعة، «فلما صار اليهم (أبن زرعة) صاح به أبو بلال: أتق الله يا أسلم فانا لا نريد قتالا ولا نحتجز إلا فيئا، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن أردكم لأبن زياد، قال مرداس إذن يقتلنا، وقال: وان قتلكم. قال تشرك في دمائنا قال: أذن الله بأنه محق وأنتم مبطلون، فصاح به حريث بن حجل هو ممن يطيع الفجرة، وهو أحدهم، يقتل بالظنة، ويحض بالفيء، ويجور في الحكم. . . . . ثم حملوا عليه حمله رجل واحد فانهزم هو وأصحابه بغير قتال وفي ذلك يقول عيسى بن فاتك التميمي :-

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجود العتاق مسومينا
فلما أستجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الخصال يقاتلونا
بقية يومهم حتى أتاهم ... بأن القوم ولوا هاربينا
أألقا مؤمن في مازعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكثيرة ينصرونا[٦]

٤) الدرجيني - طبقات ٢/٢١٥ . ٥) ن . م - ٢/٢١٨ .

وهكذا لحقت المعرة هذا الجيش العاتي وصار قائده أحدوثة لدى الناس وأضحوكة لدى صبيان البصرة كلما مر بهم صاحوا به بلال وراءك، لكن أبن زياد يعيد الكرة مرة أخرى فيرسل عباد بن علقة المازني ولما أعجزت هذا القائد المغوار المواجهة لجأ إلى الخيانة وأنهال يقتل أبا بلال وأصحابه وهم بين راكع وساجد بعد أن أتفقوا على الهدنة لأداء الصلاة. وما أعلاها شهادة أن يموت الإنسان وهو أقرب ما يكون إلى ربه. وأتى برأس أبي بلال وهذا شأن هؤلاء كما علمنا قام حكمهم على قنص الرؤوس. ولم يكن من الشراة بعد ذلك إلا أن أقتصوا من عباد فقتلوه بعد أن قاموا عليه الحجة بعد محاورة طويلة محورها حكم القاتل ظلما أنتهت بقولهم: «أيلحقه من الله إثم؟ قال: لا فحكم هو وأصحابه (أي الشراة) (أي قالوا لا حكم إلا لله) وخبطوه بأسيافهم».[٧].

وما كان للظالم أبن زياد أن يسلم فقد جاءه يومه وقتله في ما يروى أبراهيم بن الأشتر من قبل المختار من الشيعة وقد جاء الخبر عند أبن خلدون كما يلي «وقال بأن الاشتر إني قتلت رجلاً تحت راية منفردة شممت منه رائحة المسك، وضربته بسيفي فقصمته نصفين، فالتمسوه فإذا هو أبن زياد فأخذت رأسه وأحرقت جثته»[٨].

ذاك هو جزاء أكلة الرؤوس وصلاب الجثث تجتث رؤوسهم على ما فيها من مسك وتحرق جيفهم وما هذا بفعل أهل الإستقامة كما سنرى. وقد أورد المبرد في كاملة أخبار أبي بلال مفصلة أكتفى منها بواحد لتدرك القواعد التي أرساها أئمة أهل الإستقامة الأول وأبو بلال وهو الإمام الثاني بعد عبد الله بن وهب الراسبي.

أتعرف من يعود إلى السجن رغم علمه بقرار الحكم بالإعدام، وذاك حتى لا يلقى الله غادرا، إنه أبو بلال مرداس بن حدير أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. إنه العهد والوفاء بالوعد ما كان ليخفى على أبى بلال قوله تعالى ﴿**إن العهد كان مسؤولا**﴾ [١٧ الإسراء ٣٤] وقوله ﴿**قد أفلح المؤمنون . . . . . الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ (٢٣ المؤمنون ٨] وهو يرغب في الفلاح، ويعلم أن الله بيّن أن الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً لا خلاق لهم في الآخرة ﴿**إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**﴾ [٣آل عمران ٧٧].

---

٧) ن . م - ٢/٢٢٣ .

٨) أبن خلدون - تاريخ ٣/٦٦ .

نعم إنه إلتزم لدى السجان أن يرجع إلى السجن بعد أن يبيت في داره كل ليلة وفي إحدى الليالي وهو في عقر داره يناجي ربه فيفد عليه أصحابه وعلم علم اليقين أن عبيد الله مقر العزم على قتل كل من في السجن لأن أحد الشراة قتل رجلاً من الشرطة إنه سجين بالقول طليق بالفعل كل ليلة، وذلك لفضل تعلق السجان به وإعجابه بشدة إجتهاده وحلاوة منطقة، وما ذلك إلا من فضل الله. وها هو الأن طليق يمكن أن يطلق ساقيه للريح حتى ينجو من إعدام ثابت لكن نفسه المؤمنة القانتة ما كانت تحدثه بمثل ذلك، وفي هذا الظرف يضعف الأهل مهما كانت قوة الإيمان ويشير بعضهم عليه بالفرار - إنه إبتلاء في ساعة العسرة - فيجيب إجابة المؤمن البصير الذي يعلم علم اليقين أن الأجل بيد الله «ما كنت لألقى الله غادرا»، وأنى لنفس كنفس أبى بلال أن تغدر، وهكذا يسير نحو حتفه، لكن حتفه لا يسير اليه ويكتب ذلك في ميزان حسناته، ويقبل عند السحر على السجان فيزداد به إعجابا - وما أخاله إلا شاريا - عندما علم أنه بلغه عزم عبيد الله بن زياد فقال: «أوعلمت ورجعت؟»[٩]. نعم إنه شار علم ورجع حتى يلقى الله وهو عنه راض، وما كان أبو بلال وهو رأس الدعوة وهي تعيش مسك الكتمان وتتهيأ للظهور يوماً بعد يوم وتتحين له الفرصة أن يسكت عن إعداد من هو أهل للإضطلاع بالأمانة. وفعلاً قد وجد بغيته في العديد من أصحابه برز منهم على الواجهة العلمية الإمام جابر بن زيد وعلى الواجهة السياسية عبد الله بن أباض، فانظر إليهما - أبو بلال وجابر - وهما في جولة تصحيحية حول بعض الأحداث التي ذكرنا فهما يؤمان أم المؤمنين عائشة ويعاتبانها مما كان منها يوم الجمل فما كان منها إلا أن تتوب وتستغفر وما أيسر الإنابة والإقرار والإستغفار لدى الصالحين الأبرار، وما أعسرها على الفساق الفجار.

إن في هذا دليلا واضحا على أنهما على درب واحد يتمثل في تقويم الأحداث والأعداد للمستقبل. وها هما يولع أحدهما بالآخر في طريق أهل الإستقامة إلى حد أن أبا بلال يصرح بأنه لا يقدر على مفارقة جابر ذلك أنهما يقضيان كامل الوقت مفكرين في أحوال المسلمين محاولين عرض خطة للخلاص ولا يفترقان إلا من بعد صلاة العشاء إلى وقت السحر.

وكان أبو بلال لا يفارق جابراً إلا من بعد ما يلى العتمة إلى آخر الليل مع بعد ما بين منزليهما فيقول له «أرفق بنفسك . . فيجيب بأنه لا يقدر على مفارقته»[١٠]، نعم إنه لا يقدر على مفارقته لأنه يرى فيه أمل أهل الإستقامة لما توفر لديه من علم ورجاحة عقل، وقد علمت

---

٩) الدرجيني - طبقات - ٢/٢١٧ .

١٠) ابو العباس احمد الشماخي (١٥٢١/٩٢٨) - سمير المشائخ ط. حجرية القاهرة ١٣٠١ - ٦٧

من قبل إنه من أبرز فقهاء البصرة في رعيلها الأول من التابعين الذين أخذوا العلم من منابعه، من أقرب خلق الله إلى رسوله.

وفعلا يستشهد أبو بلال سنة ٦١/ ٦٨٠ ليصدق حدسه في جابر الذي تمكن في نيف وثلاثين سنة بعد أبى بلال من إرساء قواعد مدرسة إيمانية علمية سياسية كان لها من الشأن ما كان وما يزال. لكن قبل أن نقف عند بعض ملامح هذا العبقري الفذ يحسن أن نعرج على صنوة عبد الله بن أباض الذي علمت من قبل أنه راسل عبد الملك بن مروان، وأبان له بصراحة ووضح ما يحيط بالدولة الأموية من عسف وطغيان عبر المكان والزمان.

وفيه يقول الدرجيني «كان عبد الله بن أباض إمام أهل الطريق، وجامع الكلمة لما وقع التفريق، فهو العمدة في الإعتقادات، والمبين لطرق الإستدلالات والإعتمادت، والمؤسس لأبنية هي مستندات الأسلاف، والمهدم لما أعتمد أهل الخلاف، وكان رأس العقد، ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار، والمتقدم في حلبة الفضل بين اولئك الأخيار، قعد عن اللحاق فاشتراه من غير إنكار، وقنع بالخمول من غير قصور ولا إقصار، وقلى ما أعتقده أبن الازرق في المحمدية، وعدل عن طريقي البهيسية والنجدية، وسلك محجة العدل، وكان قدوة لأهل الفصل، فإليه اليوم النسبة في العقائد»[١١].

ولم يكن الدرجيني ليطلق الكلام جزافا فقد أستطاع كما سترى يضع في هذه السطور جميع ملامح شخصية الإمام عبد الله بن أباض. فهو بدون منازع رأس العقد وإمام أهل الطريق ذلك أنه كان الناطق الرسمي بأسم جماعة أهل الإستقامة وقد كان أحد رؤوس المحكمة البارزين لكن نعلم من جهة أخرى أنه كانه «يصدر في أمره عن الإمام جابر»[١٢]. ولذلك ما أن رجع مع المحكمة من مناصرة عبد الله بن الزبير عندما علموا رأيه في عثمان وقرر أبن الأزرق وبقية رؤوس المحكمة الخروج المسلح على الدولة صرح عبد الله بن أباض بالقعود وإلى ذلك يشير الدرجيني بقوله «قعد عن اللحاق وقنع بالخمول». نعم قعود هادف يرمى إلى الأستعداد لا إلى الإستسلام وهذا أبن أباض يعلل هذا القعود « وذلك أن المسلمين بعد قتل أبى بلال إجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج وفيهم عبد الله بن أباض ونافع بن الازرق ووجوه المسلمين فلما جن الليل سمع عبد الله دوي القراء وترنين المؤذنين وحنين المسبحين، فقال لأصحابه أعن هؤلاء أخرج معهم فرجع وكتم أمره»[١٣].

---

١١) الدرجيني ـ الطبقات ٢/ ٢١٤ . ١٢) الشماخي ـ سير ٧٧ .

١٣) ابو القاسم البرادي (ق٩ هـ/ ١٥م) الجواهر المنتقاه في اتمام ما اخل به كتاب الطبقات (الدرجيني) ط. حجرية القاهرة ١٣٠٢/ ١٨٨٥ ـ ١٥٥ .

ولا نشك في أن موقف أبن أباض هذا لم يكن ناتجا لا عن جزع ولا عن تسرع، وإنما هو التخطيط المسبق مع جابر بن زيد. وقد زاد موقفه من أبن الأزرق توضحا لا يدعو إلى أدنى شك في رسالته لعبد الملك بن مروان حيث يقول: «إنا برءا إلى الله من أبن الأزرق وصنيعه وأتباعه لقد كان حين خرج على الاسلام في ما ظهر لنا، ولكنه أحدث وأرتد وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منهم»[١٤]. ومن هذا التاريخ - أي تاريخ إجتماع جامع البصرة ٦٤/٦٨٤ - تم الأنفصال بصفة نهائية عن المحكمة، وتسمى عبد الله بن أباض وجابر بن زيد مع جماعتهما بجماعة المؤمنين أو أهل الدعوة، أو أهل الإستقامة، ولم ينسبوا إلى عبد الله بن أباض إلا بعد ردح من الزمن فقبلوا هذه النسبة كما يشير إلى ذلك الدرجيني لأن أبن أباض أحد فضلائهم. وتتجلى عبقرية عبد الله بن أباض في رسالته لعبد الملك بن مروان هذه الرسالة التي سكتت عنها جميع كتب التاريخ رغم أننا نشك في توفرها في خزائن الأمويين لكن لما فيها من جرأة على الحكام الظالمين عامة والأمويين خاصة وقع إهمالها.

كلا إن التراث الأباضي حافظ على هذه الرسالة وتتمثل عناصرها في:

- عرض موقف الأباضية من عثمان ومن الأمويين لبعد الملك بن مروان.
- والرد على أتهام جماعة أبن أباض بالغلو في الدين.
- وتعريف الذين خرجوا على الباطل.
- والبراءة من الأزارقة.
- والنصيحة والتمييز بين إمامة الهدى وإمامة الجور.

أما عن موقف أبن أباض من معاوية ودولته فقد عرضنا شيئا منه من قبل، فدل على أن الرجل عايش الأحداث عن كثب وميز بين غثها وسمينها، وفند حجة عبد الملك في قوله بأن الله قام مع معاوية وعجل نصره وبلج حجته وأظهره على عدوه، وبين له أن هذا النصر ليس بدليل على تأييد الله ورضاه إذ لا يعتبر الدين من قبل الغلبة في الدنيا وما إظهار طرف على آخر من باب الابتلاء للصالح والإملاء للكافر، ويختتم هذا الإحتجاج بما يبكت عبد الملك وغيره: «فلا تعتبر الدين من قبل الدولة فقد يظهر الناس بعضهم على بعض، فقد أعطى الله فرعون ملكا وظهر في الأرض وأعطى الذي حاج إبراهم في ربه ملكا»[١٥].

وفي هذا تعريض واضح بأن ملك معاوية فرعوني نمرودي بعيد كل البعد عن معاني الأمامة التي يدعو إليها أبن أباض. كما بين «أن معاوية إنما أشترى الأمارة من الحسن

---

١٤) ن. م - ١٦٥.

١٥) البرادي - الجواهر - ١٦٣.

بن علي ولم يف له بما أشترطه عليه، وعاهد الله العظيم ليوفين له وقد قال الله تعالى ﴿**ولا تنقضوا الأيمـان بعد توكـيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يـعـلم ما تفعلون**﴾ [١٦ النحل ١٩]. وليس بالغريب أن ينقض الإيمان من ملكه فرعوني هرقلي، وأكثر من هذا فإن أبن أبـاض يحتـج على عبـد الملك في شأن معاوية من داخل آل مروان الذين حولوا (الخلافة) مروانية بعد أن حرص معاوية على أن تكون أموية من صلب معاوية لكن حفيده معاوية كان آية في التقوى وتركها للمروانيين يفعلون بها ما يشاؤون فيقول «فاتق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك في معاوية فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون في معاوية ويزيد ويعيبون عليهما كثيرا في ما يصنعون» [١٦]. أما المغالي في الدين حسب أبن أباض فهو الذي يعمل بغير كتاب الله الذي بيّن وسنة نبيه التي سن، إلا الذي غضب لله حين عصى، ورضي بحكم الله ودعا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه وسنة المؤمنين بعده.

فالمغالون في الدين حينئذ عبد الملك وجماعته لا عبد الله بن أباض وجماعته، وبهذا رد الإمام هذه التهمة التي لا تزال تلاحق الأباضية إلى يومنا هذا إذ كثيرا ما يخلط الناس بين التمسك والتشدد فإن كان التمسك مدحه يرفع من درجة المؤمن فإن التشدد ـ وهو تجازو لحدود الله مذمة يحط من درجة من يرى فيه خيرا ومن غالب دين الله غلبه.

وتميز الرسالة بعد ذلك بين نوعين من الخروج، أما الخروج الأول فهو عين الثورة على الباطل فيتبناه الإمام ويترضى عن أصحابه، ولكن النوع الثاني من الخروج فهو خروج عن الدين كخروج أبن الأزرق وأصحابه في إستعراضهم للمحسن وللمسيء فإن أبن أباض يتبرأ منه ومن أصحابه كما ذكرنا قبل حين. ويأتي القسم الأخير من الرسالة مفعما بالنصائح القائمة على كتاب الله وعلى سنة رسوله، ومن خلاله تتضح المقابلة بين إمامة الضلالة وإمامة الهدى وفي هذا تعريض وتوجيه لعبد الملك وعرض ضمني لمنهج الأباضية في الحكم.

«فإن الناس إنما يتبعون في الدنيا والآخرة إمامين، إمام هدى وإمام ضلالة: فإمام الهدى الذي يتبع كتاب الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله، وهو الذي قال الله عز وجل فيه ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا**﴾ [٢١ الأنبياء ٧٣] وهؤلاء هم الائمة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم. وأما أئمة الضلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويقسمون بغير قسمة الله، ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله فهؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون**﴾ [٢٨ القصص ٤١] وفيهم قال: ﴿**ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا**﴾ [٣٣ الأحزاب ١] وقال تعالى ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وآتبع هواه**﴾ [٢٨ الكهف ٢٨]»[١٧]

١٦) ن . م - ١٦٦ . ١٧) ن . م - ١٦٤ .

ولا يكتفي عبد الله بن أباض في هذه الرسالة بألا يعترف لعبد الملك لا بأمرة المؤمنين ولا بالخلافة، إذ يخاطبه في عدة مواضع بإسمه المجرد بل يتهمه بالمعصية والضلالة ما دام مقتديا بأسلافه أئمة الضلالة «وأنت بعد على سبيلهم وطاعتهم تجامعهم على معصية الله» وقد وقف مهدي طالب هاشم في تفنيد آراء من قالوا بأن العلاقة ودية بين عبد الملك وعبد الله بن أباض حيث يقول: وهذا الأتهام (إتهام عبد الملك بالغلو في الدين) لا يمكن بأي حال أن يفهم منه العلاقة الودية بين عبد الملك وعبد الله بن أباض، ولكن هذا الخط المعتدل، ومنهم عبد الله بن أباض عرفوا بألقاء الحجة على المخالف حتى في القتال، وكما هو واضح من الرسالة أن عبد الله بن أباض أراد أن يعرض مبادىء فرقته على عبد الملك بن مروان. . . .»[18]. وغاية أبن أباض من هذا العرض أن يميز عبد الملك بين مسلك الكتمان لدى القعدة ومسلك الغلو لدى الأزارقة.

وفعلا قد أفاد الطرفان من هذه الهدنة ذلك أن الخلافة الأموية كان يكفيها ما حصل لها من بلاء من ثورات الأزارقة وغيرهم. كما أن الأباضية لم يداهنوا في المبدأ فجاء موقفهم صريحا من الحاكم لكنهم إختاروا عن بينة مسلك القعود لتنظيم صفوفهم، وإسترداد أنفاسهم للتعبئة للمستقبل لأن عمر الدول قصير وإن طال ولا بد للظلم أن ينجلي مهما طال أمده.

تلك هي رسالة عبد الله بن أباض صراحة جارحة في غير تهور، وحجة شرعية لا يمكن أن ترد، وبيان سياسي واضح المعالم، وموعظة إيمانية صادقة، عسى أن يثوب عبد الملك الى رشده إذ يدعوه في آخرها إلى إمعان النظر فيها وقت الفسحة «فأنشدك الله لما قرأته (الكتاب) وأنت مشغول حتى تتفرغ له وتدبر معانيه وتنظر فيه بعين البصيرة»[19] وعند هذا الحد يطوي التاريخ أخبار عبد الله بن أباض فلم نجد له ذكرا بعد خلافة عبد الملك وذلك شأن كل الأنشطة السرية لا تأتي أخبارها متتابعة متكاملة ولا يستطيع الباحث تتبع خيوطها إلا بعناء.

لقد سبق أن عرفنا الصلة الوثيقة بين أبي بلال مرداس وجابر بن زيد ذلك أنهما لا يفترقان إلا من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر رغم بعد المسافة مسكنيهما.

كما أنهما كانا على درب واحد في فهمهما للأحداث التي فعلت فعلها في المجتمع الإسلامي، وقد علمنا موقفهما من السيدة عائشة أم المؤمنين حول معركة الجمل، ونعلم من خبر أخر أن جابر بن زيد لم تشغله السياسة عن العلم والتعلم، ولا قيمة للأنشغال بالسياسة في المحيط الإسلامي لمن لم يتبحر في جميع العلوم الإسلامية لأن السياسة جزء من الدين ومن يأتيها عن جهل بأمور الدين يهلك نفسه ويدمر من حوله من المسلمين. وهذا الخبر يتمثل في أن جابر بن زيد لم يكن ليكتفي بما يكتفي به طلاب العلم العاديين، وإنما كانت له رغبة

18) مهدي طالب هاشم ـ الحركة الأباضية ـ ٦٨. 19) البرادي ـ الجواهر ـ ١٦٦.

في التعريف حتى على أدق امور الشريعة مما قد يستحي الإنسان عن السؤال عنه، ونحن نعلم ألا حياء في الـدين، ومن ذلك أنه كان يسأل السيدة عائشة أم المؤمنين عن حياتها الداخلية مع الرسول عليه السلام وجبينها يتصبب عرقا وهي تقول سل يا بني[٢٠] وأمله في ذلك التعرف على جميع دقائق سنة الرسول عليه السلام ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [٣٣ الأحزاب ٢١] وما أحوج الشباب المسلم إلى التعرف على آداب الزواج والمعاشرة من كتاب الله ومن سنة الرسول عليه السلام ومما جاء في الموضوع من تفاصيل في كتب الفقه عوض ان يتعلموها مما ينشر من نشريات خليعة بشتى الألوان والأشكال، ومما يعرض صباح مساء على الشاشات الصغيرة بأنواعها والكبيرة وهم يسمون ذلك تربية عمرانية أحيانا وتربية جنسية أحيانا أخرى، ويذهبون في ذلك مذاهب يندى لها الجبين.

ولا أريد أن أطيل الحديث عن حياة الإمام جابر المتعلم والعالم المعلم فذلك ما كان محور الحديث الندوة السابقة[٢١] وإنما أحببنا أن نلقي بعض الأضواء على الجانب السياسي في حياة الإمـام لنعـرف جذور المدرسة التي خرجت المجاهد أبا حمزة الشاري. فنحن نعلم أن أبا الشعثاء جابر بن زيد اليحمدي الأزدي الجوفي البصري العماني ولد بفرق وهي قرية تقع قرب مدينة نزوى بأرض عمان، وأنه قضى أغلب حياته في مدينة البصرة وكان لا يتخلف عن موسم الحج حيث أخذ عن عدد كبير من أصحاب الرسول ﷺ إذ أدرك سبعين بدريا ويقول أنه حوى ما عند هؤلاء الأصحاب سوى عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة. كما أنه لم يحتكر هذا العلم لنفسه بل أخذ عنه جمع غفير من التابعين وتابعي التابعين وقد ذكرنا من قبل أنه كان قطبا من أقطاب مدينة البصرة إلى جنب الحسن البصري.. نكتفي بهذا القدر من حياة الإمام جابر العلمية وإن أردت التبحر في ذلك فعليك بكتاب الأستاذ يحي بكوش: فقه الإمام جابر فستجد فيه ما يشبع نهمك عن سعة أفق الإمام في جميع فنون العلوم الإسلامية وما ذلك منه بغريب وهو عالم العرب وأعلم أهل الارض[٢٢]. بشهادة الصحابي أنس بن مالك، وهو الذي «لو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه» بشهادة شيخه عبد الله بن عباس[٢٣].

وأنى لمن عرف أسرار الشريعة أن يكون في معزل عن معترك الحياة السياسية، نعم إنه خاض غمار هذا المعترك لكن بكل ذكاء وحكمة لأنه لم يناسب وراء زخارف الدولة الأموية، ولم يكترث بما فيها من بهرج، بل ناله من شرارها النفي رغم دقة التكتم ونال أقرب الناس إليه السجن والتعذيب.

٢٠) الشماخي ـ سير ـ ٧٣.

٢١) انعقدت الندوة الأولى من ندوات من أعلامنا بعمان في ديسمبر ١٩٨٨م وكان محورها الأمام جابر بن زيد وقد كتب الكتاب للندوة الدكتور أحمد درويش.

٢٢) الشماخي ـ سير ـ ٧٠.

٢٣)

إن ما ذكرنا قبل حين عن علاقة جابر بأبي بلال يدفعنا إلى اليقين بأنه في صلب حركة المحكمة بل هو من محركيها الأساسيين ومما يدعم ذلك ما نقله الرقيشي» فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير. . . وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر أمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله، ومشورته ويحبون ستره عن الحرب لئلا تموت دعوتهم»[٢٤] وبهذا يبيت من المؤكد أن جابر بن زيد كان على بينة مما أبتلى به أصحابه على يدي زياد بن أبيه وأبنه عبيد الله ومن ذلك سياسة الثاني الأنتقامية التي أدت الى قتل عروة بن أدية كما ذكرنا فنتجت عن ذلك حركة الشراء التي أنطلقت مع أخيه أبى بلال ولا شك أن هذه الحركة تمت بمشورته كما يؤكد ذلك النص المذكور آنفا. بعد هذه التجربة التي ذهبت بأبي بلال وبأربعين من الشارة من خيرة أهل الإستقامة مع ما تمر به البلاد من صد لحركة الإزارقة وغيرها، ومع إخفاق المحاولة مع عبد الله بن الزبير، أختارت الجماعة وعلى رأسها الإمام جابر الإنفصال عن حركة الأزارقة في أجتمع صومعة البصرة كما ذكرنا في سيرة الإمام عبد الله بن أباض ولم يكون هذاالموقف إلا بعد إقامة الحجة عليهم ومناظرتهم.

ويروي ضمام بن السائب أحد تلاميذ الإمام جابر بن زيد فيقول «كان جابر بن زيد يأتي الخوارج فيقول لهم: أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين، فيقولون نعم، حرم الله دماء المسلمين بدين، فيقول: أوليس قد أحل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين؟ فيقولون: بلى، فيقول: وحرم الله ولا يتهم بدين، فيقولون نعم، فيقول هل أحل الله بعد هذا بدين؟ فيسكتون»[٢٥]

وهكذا يتضح أن عبد الله بن أباض وجابر بن زيد ليسا من الخوارج الذين يستحلون، دماء المسلمين في شيء وإنما هما على رأس حركة سرية ترى أن الوقت لم يحن للمواجهة وتسلك مسلك الكتمان وتصبر على الاذى. كما أن الجماعة أمام هذا الحرص الأموي لقمع كل الحركات المعارضة ثبت لديها ألا سبيل إلى الظهور ولا إلى الشراء فلم يبق إلا مسلك الكتمان الذي يعد بحكمة إلى الظهور. ورغم هذا التستر التام الذي دفعهم إلى شتى وجوه الإحتيال لحضور المجالس السرية للحركة فان بعضا من رؤوس الجماعة لم يسلموا من التنكيل والتعذيب والسجون. ومن هذه الأساليب المواكبة لمسلك الكتمان عمد أفراد الجماعة إلى التنكر عند إرتياد مواطن اللقاء، «فكانوا يأتون المجالس أيام زياد وأبنه في هيئة النساء في

---

٢٤) الرقيشي (ق - ١٠هـ/١٦) - مصباح الظلام - ورقة ٢٠ ب نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية في الشرق - ٥٤ .

٢٥) الشماخي - سير ٧٦ .

النقاب وغير ذلك يتشبهون بالنساء . . وكان أحدهم ليحمل على ظهره جرة بماء ويحمل حملة متاع كأنه يباع حتى يدخل المجلس»[٢٦] .

ولكن ما كانت أعين الشرطة لتنام ـ وهي كما يقال عيون لا تنام ـ ولكن يجعل الله من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا إذا كانوا يناصرون الباطل على الحق ـ وقد ظلت تتبع كل شاردة وواردة خاصة في مدينة البصرة لكنها لم تظفر لهؤلاء ولو على مجلس وإنما كادت في مرة من المرات لكن لم حيل دونهم قبيل الجواب على ما فيه لأنهم أيقنوا ألا سبيل إلى الإفتكاك أمر من عجوز، وهاك الخبر:

«قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل : وما بلغنا أنهم ظفر بهم في مجلس قط إلا أنهم كانوا ذات مرة في عهد زياد وأبنه أتاهم الخبر بأن الخيل تريدهم فخرجوا مسرعين وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه (وهذا سهو حركي ما كان يجب أن يقع) فجاء الشرط فنظروا إلى النعال، فقالوا للعجوز صاحبة البيت ما هذه النعال؛ فقالت: مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها، فقالوا: بالله ما ذلك ما ذكرته ، فإن هذا موضع ريبة، قال فقال بعضهم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء فلعلها أن تكون صادقة»[٢٧] .

ورغم ذلك الأحتياط وتدبير حراسة مواطن الحركة السرية لم تكن الجماعة ليسلم بعضها من الوقوع . فهذا أبو بلال المرداس بن حدير يقع بين يدي أبن زياد ولسنا ندري كيف وقع ، وإنما هو الإمام يذكر ذلك لأبن عباس في محاورة لهما في مكة المكرمة» وكانا (جابر وأبو بلال) يحجان معا فيلقيان أبن عباس رضي الله عنه فلاقاه جابر مرة ولم يكن معه أبو بلال فقال أبن عباس: أين صاحبك؟ قال: أخذه أبن زياد. قال: أبن عباس لجابر: وأنه لمتهم، قال: نعم فأضاف أبن عباس: اللهم بلى، وخاطب جابرا قال: أوأنت متهم؟ قال جابر: اللهم بلى»[٢٨] .

وهذا أبو سفيان قنبر يؤخذ بالظنة ويجلد جلدا مبرحا عسى أن ينبس ببنت شفة إلى أن يتزعزع كيان جابر أو يكاد ولكن أنى لزبانية الأمويين مهما تعسفوا أن يختلسوا خبرا ممن رسخ أيمانهم كرسوخ الجبال وأكثر، جاء في سير الشماخي : «وكان (أبو سفيان قنبر) شيخا كبيرا أخذ وجلد أربعمائة سوط على أن يدل على أحد المسلمين فلم يفعل قال جابر : وكنت قريبا منه وما كنت أنتظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله [٢٩]. وفعلا عصم الله العجوز وعصم أبا بلال وأبا سفيان فحفظ الله جابرا ودل ذلك على أخلاص الجماعة لله تعالى، ولمبدئها،

---

٢٦) ن . م ـ ١٠٨ .
٢٧) ن . م ـ ١٠٨ .
٢٨) ن . م ـ ٩٦ .
٢٩) ن . م ـ ٩٣ .

ولبعضهما البعض، وتلك هي علامة القدرة على إحكام كل تنظيم وخاصة السري منه. لكن هذه الجماعة وإن كانت تصبر على الأذى من الأمويين فإنها لا تقبل أن تدب الخيانة في داخلها فتفتضح أشرارها وتوأد حركتها قبل أن تبرز للعيان لتؤتي أكلها.

ولذلك وقف الأمام موقفا صارما ممن ثبت لديه أنه سعى بجماعة من المسلمين فقتلوا كما يروى أبو سفيان «أتى شاب أبا الشعثاء فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: قتل خردلة»[٣٠]. مع العلم أن الفكر الأباضي يتحرى في قضايا الدماء حتى زمن الحرب كما سنرى في معارك أبي حمزة وأنما اغتيل خردلة قصاصا ممن قتلوا بسبب سعيه ووشايته، كل هذه الاحداث الحازمة المحكمة تدل دلالة واضحة على مكانة جابر بن زيد من هذا التنظيم السري وخاصة منها الحدث الأخير يثبت إنه كان مرجع الفتوى والقيادة إذ يصدر حكما بالأعدام علية وقصاصاً على من يفشي أسرار الجماعة وبشكل خطرا على الدعوة في نشأتها وفي هذا عبرة لمن يعتبر فليخرج من أراد أن يخرج لكن على شرط ألا يفشي سرا.

وينتهي أمر أبن زياد كما رأينا بأن يقد نصفين ويتربع على عرش العراق الحجاج بن يوسف الثقفي نمرودا جبارا.

لكن الجماعة أحكمت أمرها أي ما أحكم ووصلت من حيث الدقة أنها إستطاعت أن يكون أحد أنصارها الكاتب الخاص للحجاج وهو يزيد بن أبي مسلم وهذه قصة جابر بن زيد مع الحجاج: «وفد جابر بن زيد في ما كان يفد فيه إلى يزيد أبن أبى مسلم كاتب الحجاج، وكان به خاصا، قال فأدخله على الحجاج فكان في ما كان يسئله أنه قال له: أتقرأ؟ قال: نعم، قال: أتفرض؟ قال نعم، فعجب الحجاج ثم قال: ما ينبغي لنا أن نؤثر بك أحدا بل نجعلك قاضيا بين المسلمين. قال: جابر إني أضعف من ذلك، قال وما مبلغ ضعفك؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا أحسن أن أصلح بينهما، قال: إن هذا لهو الضعف، ثم قال: فهل لك حاجة؟ قال: نعم، وما هي؟ قال: تعطيني عطائي، وترفع عني المكروه، فقال الحجاج: هذا أمر لا يستقيم أن نعطيك من بيت مال المسلمين ولا نستعملك لهم، فقال له: يزيد بن أبي مسلم: أصلحك الله إن ها هنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين، قال وما هي؟ قال: تجعله في أعوان صاحب ديوان البصرة، قال: وذلك.

قال فلما خرج من عنده قال له جابر: ما صنعت شيئا أتراني أن أكون عونا لصاحب الديوان قال يزيد: أكتب إلى صاحب الديوان ألا يكلفك مؤونة ويعطيك عطاءك كاملا، قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم، قيل وكان في ديوان المعاملة»[٣١]. إن من لا يعرف

٣٠) ن. م - ٧٥ - ٧٦.

إنتماء يزيد أبن أبى مسلم إلى الحرمة يعجب من هذه المعاملة المرنة لدى الحجاج الذي عرف بضرب الرؤوس، ولا شك أن هذا الكاتب ما زال يهون من أمر جابر لدى الحجاج حتى أطمأن إلى ذلك.

وبهذا أستطاع الإمام أن يستعفى من مهمة القضاء في الوقت الذي كان يتهافت الناس لبلوغها لما تدر على أصحابها من مال ولما تجعل لهم من وجاهة، ولكن الذي يعلم أن قاضيين في النار وقاضيا في الجنة، القتل أهون عليه من أن يتولى القضاء وخاصة للحجاج. ويتجلى النضج الفكري في التمييز بين ظلم الأمويين وقبلو العطاء لأن الإمام يعلم أن من موارد خزينة الدولة ما هو حق لجميع المسلمين فهو حق مشترك حتى وأن مر بيد الظلمة وكذلك فعل أبو بلال عندما أعترض الركب الذي حمل الجباية فأخذ عطاءه وعطاء الشراة معه وأطلقوا البقية على مسؤولية غيرهم، «فمر به (بأبي بلال) مال يحمل إلى أبن زياد، وقد قارب أصحابه أربعين فحط ذلك المال، فأخذ منه عطاءه ورد الباقي على الرسل . . . .»[٣٢].

والأساس أن أخذ هذا العطاء لا يزحزح مثل هؤلاء عن مواقفهم وإنما هو مورد حلال يمكن من التفرغ إلى الدعوة إلى الله، وإلى رعاية الأنصار أناء الليل وأطراف النهار، لكن رغم كل هذا الحذر لم تسلم جماعة جابر في النهاية من سجون الحجاج وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وأبو سلمة (وقد بقى هؤلاء في السجن إلى أن أختل عقل الحجاج ومات ففروا)، كما نفي جابر بن زيد وهبيرة إلى عمان وكان في نفيهما خير كثير على عمان إذ وجد الإمام أكبر حرية لتركيز الدعوة حيث ستقوم الإمامات الأباضية واحدة بعد الأخرى، وحيث ما تزال هذه الربوع العمانية تتفيأ ظلال هذه النبتة الطاهرة الزكية وتنعم بثمارها التي لا تنضب رغم عوادي الزمن. ومن تمام التنظيم السري إرسال الدعاة بعيدا عن مركز الدعوة بحثا عن المكان المناسب في أطراف الدولة مما تصعب السيطرة عليه بسهولة عند الرغبة في الظهور. وقد عثر أخيرا على مجموعة من رسائل الإمام إلى عديد الدعاة تقوم على العناصر التالية:-

١ - خطبة الرسالة.
٢ - سؤال عن الأحوال والإعلام بوصول الرسالة.
٣ - خاتمة: تحية مختصرة معبرة.
٤ - فتاوي: أجوبة على أسئلة موجهة من الداعية.

ولا مجال للدخول في التفاصيل هنا لأننا عازمون على نشر هذه الرسائل إن شاء الله تعالى. وإنما نبين أن خطب هذه الرسائل تحمل شحنة إيمانية صادقة تدفع هؤلاء الأتباع إلى الثبات

---

٣١) الدرجيني - الطبقات ٢/٢١١ - ص٢١٢. ٣٢) ن. م - ٢/٢١٨.

على المنهج السليم الذي رباهم عليه الإمام والإخلاص لله تعالى: «وكن إنما تعمل لله فأنك مهما تعمل لله من خير فلن يدفعه عنك، وما يعمل لغيره فالله عنه غني»[٣٣]. بينما الأساس في عنصري السؤال عن الأحوال والخواتم إذ يعبر فيهما الإمام عن حقائق حركية مهمة فيصفح عما ينتاب الحركة من شدة ورخاء ويستفسر من أحوال الدعاة ومن معهم بكل إلحاح. «أكتب إلي بما حدث من أمر قبلكم»[٣٤] . . . «أكتب إلي بما كانت لك من حاجة»[٣٥].

وإن كانت سمات القيادة تتجلى في ما ذكرنا فإنها تبرز جلية أكثر في الدعوة إلى الكتمان المطلق. «أكتب إلي بما كانت من حاجة في سر وثقة فإنك قد علمت الذي نحن فيه وما نتخوف من الذي يطلب العلل علينا . . .»[٣٦] «وأعلم أنه لا يعجبني أن تترك لي عندك كتابا الا محوته»[٣٧] «ولا ترو عني شيئا مما أكتب به إليك»[٣٨] ومعلوم أن الثبات على مثل هذا المنهج هو سر النجاح.

أما الفتاوي فهي ثروة فقهية تدل على منهج الإمام القرآني السني الأثري وعلى مدى ثقة الدعاة في إمامهم إذ يعتبرونه المرجع في حل كل المشاكل. وبهذا يثبت لدينا ما تمر به الحركة من مرحلة حرجة في عقودها الأولى وهمها أن يصلب عودها قبل أن يكشف أمرها.

هذا هو الإمام جابر أصالة إسلامية نادرة وعلم غزير، وحكمة في حسن التدبير، ولم يتوفى إلا بعد أن أرسى قواعد مدرسة رصينة هادئة تكرع من منبعي الشريعة دون أن تعرض عن وجوه الإجتهاد، علمت بمسلك الكتمان حتى تصارع عوادي الزمان فتجلى أنها بهذه المرونة حملت معها بذور النمو والإتساع، بينما حملت حركات المعارضة الأخرى معها بذور الفناء، فلم يبق للحركة الزبيرية أثر رغم صدق نية صاحبها كما لم يبق للأزارقة وغيرهم اثر.

وما أن توفى الإمام سنة ٩٣/ ٧١١ حتى رفع المشعل جميع من كانوا حواليه وبايعوا إمامهم الثاني في مسلك الكتمان وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء. . . . وسنرى في ما يلي مانتج على يدي هذا الرجل من خير طالما هيأ له الجيل السابق، وأبو حمزة الشاري إنما هو ثمرة من ثمرات هذه المدرسة عندما تولى قيادتها هذا المولى رغم أن المدارس الاخرى ترى إلا حق في القيادة إلا للقرشي أو لمن هو من آل البيت كأن شروط الإمام حكر على هؤلاء وكأن العبقرية حكر على قبيلة واحدة من قبائل العرب.

---

٣٣) الأمام جابر بن زيد ـ الرسالة ١٥ ـ ص ٣٥ .
٣٤) ن . م ـ رسالة ـ ٩ ص ٢٤ .
٣٥) ن . م ـ رسالة ـ ٣ ص
٣٦) ن . م ـ رسالة ١٦ ـ ص ٢٨ .
٣٧) ن . م ـ رسالة ١١ ـ ص ٢٨ .
٣٨) ن . م ـ رسالة ١١ ـ ص ٢٨ .

١) أبو العباس أحمد الدرجيني (حوالي ١٢٧١/٦٧٠) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسطنطينة الجزائر د.ت ٢/٢١٦ .

٢) ن . م ٢/٢/٢١٦ و ٢٢٤ .

٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ بيروت ١٩٤٨ ـ ٢/١٨٠ .

٤) الدرجيني ـ طبقات ٢/٢١٥ .

٥) ن . م ـ ٢/٢١٨ .

٦) ن . م ـ ٢/٢٢١ .

٧) ن . م ـ ٢/٢٢٣ .

٨) أبن خلدون ـ تاريخ ٣/٦٦ .

٩) الدرجيني ـ طبقات ـ ٢/٢١٧ .

١٠) أبو العباس أحمد الشماخي (١٥٢١/٩٢٨) ـ سمير المشائخ ط. حجرية القاهرة ١٣٠١ ـ ٦٧ .

١١) الدرجيني ـ الطبقات ٢/٢١٤ .

١٢) الشماخي ـ سير ٧٧ .

١٣) أبو القاسم البرادي (ق٩ هـ/١٥م) الجواهر المنتقاه في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات (الدرجيني) ط. حجرية القاهرة ١٣٠٢/١٨٨٥ ـ ١٥٥ .

١٤) ن . م ـ ١٦٥ .

١٥) البرادي ـ الجواهر ـ ١٦٣ .

١٦) ن . م ـ ١٦٦ .

١٧) ن . م ـ ١٦٤ .

١٨) مهدي طالب هاشم ـ الحركة الاباضية ـ ٦٨ .

١٩) البرادي ـ الجواهر ـ ١٦٦ .

٢٠) الشماخي ـ سير ـ ٧٣ .

٢١) إنعقدت الندوة الأولى من ندوات من أعلامنا بعمان في ديسمبر ١٩٨٨م وكان محورها الإمام جابر بن زيد وقد كتب الكتاب للندوة الدكتور أحمد درويش.

٢٢) الشماخي ـ سير ـ ٧٠ .

٢٣) ن . م - ٧٠ .

٢٤) الرقيشي (ق - ١٠هـ/١٦) - مصباح الظلام - ورقة ٢٠ ب نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية في الشرق - ٥٤ .

٢٥) الشماخي - سير ٧٦ .

٢٦) ن . م - ١٠٨ .

٢٧) ن . م - ١٠٨ .

٢٨) ن . م - ٩٦ .

٢٩) ن . م - ٩٣ .

٣٠) ن . م - ٧٥ - ٧٦ .

٣١) الدرجيني - الطبقات ٢/ ٢١١ - ص٢١٢ .

٣٢) ن . م - ٢/ ٢١٨ .

٣٣) الإمام جابر بن زيد - الرسالة ١٥ - ص ٣٥ .

٣٤) ن . م - رسالة - ٩ ص ٢٤ .

٣٥) ن . م - رسالة - ٣ ص .

٣٦) ن . م - رسالة ١٦ - ص ٢٨ .

٣٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .

٣٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .

الفصل الثاني

الإمام أبو عبيدة والإستعداد لمسلك الظهور

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم قطب أهل الإستقامة وإمامهم الثاني بعد جابر بن زيد، أدرك عددا من الصحابة كجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وأخذ عنهم كما أخذ عنهم شيوخه من أهل الدعوة، هؤلاء الشيوخ الذين وجدوا فيه الأرض الخصبة فبذروا كل ما لديهم من علم ليؤتى أكله بعد حين.

فهذا عروة بن أدية مولاه قد علمنا من شجاعته وشرائه وعبادته الشيء الكثير قد ورث هذا المولى كل تلك الخصال، ويضاف إليه حديث جابر وفقهه وحسن تدبيره دون أن ننسى ما أخذ عن صحاب العبدى من معرفة للأخبار وقدرة على البيان وبراعة في الجدل والأحتجاج.

كل هذه الخصال مكنت هذا الفتى المتفاني في طلب العلم وفي خدمة الجماعة في مركزها الأساسي في البصرة وفي بيت الله الحرام من أن تبوئة الجماعة المكانة التي تليق به إلا وهي الإمامة إمامة الكتمان، الكتمان الذي يحرص على الإستعداد لإمامة الظهور. ولم يكن أبو عبيدة رغم ما أتاه الله من علم أن يندفع إلى الإعتداد بالرأي وإنما أرسى في مدرسته التعلق بالأثار مما جعلها مدرسة سنية راسخة القدم لا تبتغي عن حديث الرسول عليه السلام وأخبار صحابته بديلا.

وقد قال قبله شيخه جابر في هذا لصدد «ومن ضيع للناس أمرا مخالفا للسنة فإنه لا يمكن أن يكون على صواب»[1] . . وها هو يقول: من لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين وقد من الله علينا بعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وهم الراسخون في العلم، فعلى آثارهم أقتفينا وبقولهم أقتدينا وعلى سيرهم أعتدنا، وعلى مناهجهم سلكنا.[2] فلا قيمة لمذهب ليس له سنده المتين الذي يربطه بالرسول محمد ﷺ، ولا قيمة لمدرسة ليس لها مرجع راسخ في العلم «كل صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضال مضل ولولا منّ الله علينا بجابر بن زيد رضي الله عنه لضللنا»[3] . . . ولا قيمة للرأي عند أبي عبيدة إلا بعد أن يستنفد البحث في السنة والأثار.

---

١) جابر بن زيد ـ الرسائل ـ ص ٥ .

٢) اسماعيل الجيطالي (٧٥٠/١٣٤٩) ـ شرح النونية خ١/٢٤ .

٣) ن . م ـ ١/٢٤ .

وقال: وإذا كان للإنسان نفس خبيثة مل العمل لله، وأستثقل العبادة فكان أكثر همه في الجدل والمراء فإذا بلغه حديث فيه الرغبة في العمل عارضه بالقياس وقال: إن هذا ليس صحيحا لأن رأيه وما يوافق هواه ليس فيه العمل بطاعة الله»[٤]. بمثل هذا الأفق الواسع وبمعية شيوخ وطلبة مخلصين، وبصيانة العمل بنظام الولاية والبراءة، أستطاع أهل الإستقامة بأمامة أبي عبيدة مسلم أن يدوخوا الدولة الأموية والعباسية بعد حين في المغرب والمشرق وأن يقتطعوا العالم الإسلامي رقعتين أقاموا في الأولى الإمامة الرسمية التي عمرت اكثر من الدولة الأموية، وفي الثانية الإمامة التي تدوال عليها أئمة فضلاء بأرض عمان، وإن كان أملهم أوسع من ذلك إذ طمحوا إلى الأمامة العامة كما سترى مع طالب الحق وأبي حمزة. أن النظام السري الذي أرسيت قواعده بالبصرة مركز الدعوة، هذه المدينة التي أوت جل المشائخ ووجد فيها أهل الإستقامة السند الكامل من عديد من القبائل كالأزد والتميميين والمهالبة ومنطلقا لبث الدعوة في أطراف البلاد عمان واليمن والحجاز وخراسان والمغرب، هو السبب في نجاح هذه الحركة الباهرة.

لقد عرف أهل الإستقامة نظام المجالس السرية من وقت مبكر فيروي المبرد أن عروة بن أدية مولى أبي عبيدة أخذ في سرداب حيث كان يتعبد [٥] وكذا بالنسبة إلى أبي بلال حيث يقول لأحد السعاة لدى الدولة: «إذ كانت في مجلس فأحسن حملان رأسك»[٦] وإذا الأمر مع الإمام جابر. لكن هذه المجالس لم تعرف دقة التنظيم إلا مع أبي عبيدة في البصرة حيث يتضح من عديد من الشواهد أنها كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع، مجالس الشيوخ، ومجالس العامة، ومجالس تكوين الدعاة.

النوع الأول: مجالس الشيوخ:-

«قال أبو سفيان: قال الميلح بلغنا ذات ليلة أن في منزل حاجب مجلسا قال أبو سفيان: وكان المشائخ لا يدعوننا أن نحضر معهم المجالس بالليل فقلت لرجل من أهل عمان: إنطلق بنا إلى منزل حاجب لعلهم يأذنون لنا فجئنا فأذن لنا، فوجدنا المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ. فقال لنا حاجب: أخبرا بلج بن عقبة وأخبراه بمكاننا، فأخبرناه فأتى فلما صلينا العتمة أخذوا في الكلام فيقوم أحدهم فيتكلم ماشاء الله ثم يجلس فيقوم الآخر فكذلك حتى أضاء لنا الصبح. قال المليح: ما رأيت متكلما قائما في مجلس قبله ولا بعده. فجاء شعيب بن عمر وكانت أخته تحت حاجب فرده وأبى على إدخاله وكان يومئذ من أفضل الفتيان. وكان بين منوله ومنزل حاجب نحو ثلاثة أميال»[٧].

---

٤) اسماعيل الجبطال ـ قناطر الخيرات ـ القسم الاول ـ تحقيق عمروا خليفة النامي مكتبة وهبة القاهرة ـ ط١ ـ ١٣٨٥/١٩٦٥ ـ ١٧ ـ ١٨.

٥) المبرد ـ الكامل ٣/٩٠٩. ٦) الشماخي ـ السير ٦٦. ٧) ن. م ـ ١٩.

١ ـ إن هذا الخبر المنقول عن شاهد عيان تتجلى منه عدة حقائق: فعدد الحاضرين لا يتجاوز السبعة.

٢ ـ لا يسمح للفتيان أن يحضروا هذه المجالس ولا شك أن هناك مراحل يجب أن يمر بها المرء ليرقى إلى مستوى القيادة.

٣ ـ لا خلط بين القرابة وبين المسؤولية الحركية فلا محسوبية ولا تهاون في المبدأ اذ ليس من اليسير أن يمنع الإنسان صهره من بيته، ولكن حاجبا منع هذا الصهر لأن الدار ملك المجلس تلك الليلة.

٤ ـ رغبة أبي سفيان مع المليح العماني في حضور المجلس تدل على أنهم لم يرتقوا إلى مستوى القيادة بعد وإنما هم قريبون منها قد تقدم تاريخ إنتمائهم للحركة ولذلك إذن لهؤلاء المتشوفين إعداد للمستقبل.

٥ ـ أن يحضر الإجتماع ثلاثة من رواد حركة طالب الحق المختار بن عوف وبلج بن عقبة الأول إنجيله في صدره والثاني يعدل الفافي ميدان القتال مع الممول المادي للحركة فيه دلالة على أنعقاد المجلس في فترة ليست ببعيدة عن أنطلاق الثورة باليمن.

٦ ـ التفاني في معالجة القضايا بحماس فكل يفصح عن رأيه قائما أو لم يكن هذا لساعة من الزمن وإنما من صلاة العشاء إلى مطلع الفجر.

فصدق من سمى أمثال هؤلاء رهبان الليل وفرسان النهار، وفي هذا الصبر سعى لأستيفاء كل القضايا المطروحة والإلمام بجميع متطلبات الحركة.

وكم كان من ودنا لو أشار راوي الخبر ولو بشيء من التلميح الى المواضيع المطروقة، ولعل قد حال دون ذلك التزامه بالكتمان التام وقد كتب هذه الأخبار في مرحلة ليست ببعيدة عن أنعقاد المجالس بل ما تزال تنعقد مثيلاتها في مراكز الدعوة.

النوع الثاني : المجالس العـامة :ـ

هي أيضا مجالس سرية لكن يحضرها عامة أهل الدعوة ويخصص جانب للنساء وكما رأينا من قبل مع الإمام جابر بن زيد فإنها تكون محروسة من أفراد الحركة وإذا بدا أن خطر ينفض المجلس بسرعة وكأن لم يك شيء. وهذه المجالس موكولة إلى المشايخ ولكل مجلسه الذي يعظ فيه أهل الدعوة ويعلمهم أمر الدين ومن هؤلاء أبو الحر علي بن الحصين وكان له مجلس يومي الأثنين والخميس [٨]، وعبد الملك الطويل وأبو سفيان قنبر.

---

٨) ن . م ـ ١٠١ .

قال أبو جميل: ما رأيت أحدا ممن مضى يذكر الجنة والنار ويصف من أمرهما مثل ما كان يصف ويذكر قنبر، وكان يصف صفة من رأى وعاين وشاهد وكانو يقولون ما رأينا متكلما يتكلم بالقرآن مثل أبى سفيان قنبر[٩] وقد كانت هذه المجالس تنعقد في النهار وكان روادها يحتالون للوصول إليها ويتنكرون كما رأينا كل ذلك باشراف الإمام أبي عبيدة وبمساعدة بقية شيوخ أهل الدعوة إذ لم يجعل المجالس العامة حكرا عليه بل جعلها رمزا للتعاون وفرصة لكسب الأنصار ولتدريب المنتمين وتعليمهم.

وهذا حاجب الطائي العضد الأيمن لأبي عبيدة يتفقد هذه المجالس ويدعو إلى مزيد من السرية، قال أبو سفيان: بلغ حاجبا أن في منزل عبد الملك الطويل مجلسا بالليل تكثر فيه الجماعة ولهم كلام يسمعه الجيران، فأرسل إليه فقال له: أرفق على نفسك يا عبد الملك ما هذا الذي بلغني أنكم تفعلون؟ قال: إنا لنفعل وإن أمرتنا ألا نفعل تركنا فسكت طويلا ثم قال: لئن تخافون وتعمروا لأحب إلي من ألا تخافوا وتخربون أعمروا مجالسكم فإن الله يحفظكم»[١٠].

إن الوقف عند هذا الخبر عن مجالس العامة يستنتج ما يلي:-

١ - يقظة القيادة وأنتباهها لكل ما يطرأ في الحركة.

٢ - حسن العلاقة بين القواعد والقيادة إذ لم يكن من عبد الملك الطويل إلا أن إعترف بالخطأ مع الإستعداد الكامل للإمتثال لما يصدر من أمر مهما كان نوعه وهي من أدل العلامات على الاخلاص والذويان في مصلحة الأمة.

٣ - حكمة حاجب في معالجة القضية إذ حمل عبد الملك المسؤولية مبينا له فلسفة القيادة في العمل وأساسها ان الكتمان يورث الإمتداد والعمران، بينما التهور لا ينتج عنه إلا الخراب، ولا شك أن الواعظ لا يرغب إلا في ما يعود على الحركة بالخير.

النوع الثـالث : مجالس تكوين الدعاة :-

هذه المجالس كان يتولاها أبو عبيدة بنفسه، وكان يرسل الدعاة ليتخيروا له النخبة من أطراف البلاد ليعبئهم تعبئة تامة بعد أن يثبت لديه نبوغهم.

وقد جمع هذا المجلس طلبة من الحجاز واليمن ومصر وخراسان والمغرب ممن كان لهم شأن في مواطنهم في بث الدعوة وأرساء قواعد إمامة الظهور الأمر الذي لم يرد أن يضطلع به أبو

---

٩) ن . م - ٩٣ .

١٠) ن . م - ١٠٧ .

عبيدة بنفسه إذ يعلم أنه بالإقدام على مثل ذلك إنما يقدم على عملية إنتحارية تفجر كل البناء من أساسه . . . . . [11]

لقد كان هذا المجلس أهم مركز إشعاع عرفة الفكر الأباضي إذ في ما نعلم لم تخرج مدرسة قبل هذا المجلس ولا بعده مثلما خرج هذا المجلس، والمجلس لا ينعقد في أضخم قاعات القصور وإنما في سرداب من سراديب البصرة يتظاهر فيه الإمام بتعاطي صناعة القفاف مع من حواليه ولـذلك عرف بالقفاف، وعلى باب السرادب يتحول مصنعا للقفاف فإذا أمن القفاف ويلات العدو المترصد حول السرداب الى مصنع للرجال الأفذاذ الأبطال اذ لم تحش أدمغتهم علما فحسب وإنما عمروا إيمانا صادقا وأناروا به السبل وأقاموا الإمامات في اليمن وعمان والمغرب[12] . من هذا المجلس تخرج العلم إلى عمان وهم : الربيع بين حبيب، ومنصورا الـربـاحي، وبشـير بن المنـذر النـزاوني، ومحمـد بن المعـلا الكنـدي، وراشـد بن عمر الحديدي[13]، والي المغرب «أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري اليمني، وعبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدارتي، وإسماعيل بن دارار الغدامسي، وأبو داود القبلي النفوسي»[14]، كما تخرج غيرهم كثير ممن لم يشتهروا بهذا اللقب.

من العراق أمثال أبى غسان مخلد بن العمرد الغساني العراقي، وعبد الملك الطويل الذي تحمل مسؤولية إحدى المجالس العامة، وأبي سعيد عبد الله بن عبد العزيز الذي حكيت عنه كثير من أخبار مدونة أبي غانم، ومن الحجاز أمثال: محمد بن سلمة المدني، وأبي سفيان محبـوب بن الـرحيل بن سيف بن هبيرة القرشي المكي، وأبي علي الحر بن الحصين. ومن خراسان أمثال: هلال بن عطية الخراساني، وأبى عبد الله هاشم بن عبد الله الخراساني، وأبى عيسى الخراساني.

ومن عمان أمثـال : أبي حمزة المختـار بن عوف الأزدي، وبلج بن عقبـة الفراهيدي، والجلندي بن مسعود، وشبيب بن عطية، والفضل بن جندب.

ومن مصر أمثـال: محمـد بن عبـاد المصري، وعيسى بن علقمة المصري، ومن شمال أفريقيا: المذكورون في حملة العلم باستثناء أبى الخطاب فإنه يمني، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني النفوسي.

---

١١) ن . م ـ ٧٨ .

١٢) أبو زكرياء يحيى بن بكر الوارجلاني ـ كتاب السيرة وأخبار الأئمة تحقيق عبد الرحمن ايوب ـ الدار التونسية للنشر ١٤٠٥/١٩٨٥ ـ ٥٩ .

١٣) سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي ـ الأنساب ورقة ١٧٠ نقلا عن طالب هاشم ـ الحركة الأباضية ٨٥ .

١٤) الشماخي ـ سير ١٢٣ .

ومن اليمن أمثال: سلمة بن سعد الحضرمي اليمني، ناشر الدعوة في بلاد المغرب وهو الذي كان يقول «وددت أن يظهر هذا الأمر بالمغرب يوما واحدا من غدوة إلى الليل فما أبالى أن يضرب عنقي»[١٥]، وعبد الله بن يحيى الكندي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري الحميري اليمني، وأبى أيوب وائل بن أيوب الحضرمي اليمني، وأبى المهاجر هاشم بن المهاجر الحضرمي، وأبى المؤرج عمر بن محمد القدمي اليميني وهو واحد ممن رويت عنهم مدونة أبى غانم وأبرهة بن الصباح الحضرمي.

وأظن أيها القارىء أنك أدركت لم ذكرت هذا السيل من الأسماء لا لشيء إلا لتعلم منزلة أبى عبيدة وقدرته الحركية وإلا فكيف يستطيع هذا السرداب أن يتقبل مثل هؤلاء في وقت كانت الحركة مراقبة فيه أشد الرقابة. وأعلم ان هذا الذي ذكرنا إنما هو قليل من كثير وقد كان لجل هؤلاء شأن إما في بث العلم أو في الإمامات، وما دمنا مع أبى عبيدة الحركي فلنعدد ذكر من أقاموا إمامة الظهور في حياة أبى عبيدة وبعد مماته. أما في حياته وبمشورة منه ومن معه فكانت دولة الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى وسنعود إليها بالتفصيل إن شاء الله تعالى وقد كان أبو حمزة بطلها المغوار وهو محور الحديث في هذا البحث.

وكذلك وبأمر منه أستقامت امامة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري بطرابلس، وأثر سقوط الإمامة باليمن بايع الأباضية في عمان الجلندي بن مسعود سنة ١٣٢هـ وما من شك أن الامر كان أيضا بمشورة الإمام أبى عبيدة.

أما بعد وفاته فكانت دولة الإمام عبد الرحمن بن رستم بتاهرت بالمغرب الأوسط، ولا يفوتنا قبل أن ننهي هذا الفصل عن أبى عبيدة أن نبين أنه قد أستعان بمن حوالبه من شيوخ البصرة نذكر منهم أبا مودود حاجب الطائي، وحيان الأعرج، وأبا نوح صالح الدهان، وضمام بن السائب وستعلم بعد حين أن منهم من كابد معه مرارة السجون وأقام سنوات في مدرسة يوسف عليه السلام يحتسب الأجر من الله.

محنة الإمـــــام :-

لم يكن ليسلم مثل هذا العالم من متابعة الدولة الأموية وقد أوكلت أمر البصرة إلى الحجاج بن يوسف، وقد علمنا أنه نفى الإمام جابر إلى عمان وأنه سجن أبا عبيدة وضماما وكثير ممن معهما من أهل الإستقامة.

---

١٥) أبو زكريا سيرة ٤٢ .

١٦) لقد أستفدت كثيرا من بحث صديقنا الأستاذ مبارك الراشدي عن أبي عبيدة في تعداد هذه الأسماء وقد حرص على أن يترجم لهؤلاء الأعلام بقدر الإمكان رغم ندرة المعلومات .

وتعرض كتب السير صورا شنيعة من سوء معاملة هؤلاء المسجونين مما لا يطاق. «. . . . . بلغنا عن ضمام حين سجنه الحجاج هو وأبو عبيدة قال: أدخلنا في سجن قال: فلم يكن يوصل إلينا ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم قال: وإنما كنا نقص شواربنا بأسنانا، وإن كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منا القمل، قال: وإنما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش، قال: ويعمد إلى مراكن عظام فيسكب فيها الماء يؤتى بملح فيلقى في تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم يقال: يا أهل السجن خذوا ماءكم قال: فمن أخذ من أوله كان أمثل قليلا، وأما من أخذ من أسفله فهو العذاب، قال: فكان ضمام ربما ضاق فيقول له أبو عبيدة: ويلك ما هناك على من تضيق وعلى من تدل»[17]

ما هو جرم هؤلاء ليشربوا ماء معطرا بالملح وليحرموا من الوسائل للمحافظة على سنن الفطرة وليأكلوا شعيرا مملحا، إنه مخالفة الأمويين وليت الأمر كان بينا لدى الحجاج إنما هو أخذ بالظنة ومع ذلك يعد الحجاج من المسلمين وخليفته ظل الله في الأرض ويعد غيرهم أهل ضلال ومحوارج مبتدعة.

ثم تأمل في المحاورة المختصرة بين الشيخين أبى عبيدة وضمام لتدرك رباطة جأش الثاني ودعوته ضماما والآخرين بأن يحتسبوا أمرهم إلى الله تعالى، وهذا النوع من العذاب لا يخطر إلا ببال شيطان، «قال: وعمد إلى ثلاثة رجال من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بيتا من قصب وطلى داخله وخارجه بالعذرة ثم أدخلهم فيه، قال: فقاموا ثلاثة أيام فماتوا»[18] ويتدخل القدر ليكتب نجاة من قدرت له الحياة من المسجونين فيرسل الحجاج طبيبا مجوسيا للسجن لما علم أنه وقع الموت في أهل السجن وهو يقول: ويحك إن أهل السجن وقع فيهم الموت وإني لاحب تعذيبهم، فما كان منه إلا أن نصح بأن يحول طعامهم زيتا وكراثا فكان أشفق بهم رغم مجوسيته من ممثل أمير المؤمنين[19]

وفعلا صدقت نية المجوسي، ومات من يسوم الناس سوء العذاب مجنونا وأستطاع أهل السجن أن يخلصوا من سجنهم وعلى رأسهم أبو عبيدة وضمام، «قال: فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق»[20]. هذا شيء مما نال الإمام أبا عبيدة من البلاء في سبيل الله فزاده إيمانا فواصل المسيرة على الدرب الذي وضعت معالمه مع الإمام جابر دون أن يتراجع قيد أنملة، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن فجرها ثورات عادلة وأقام أنصاره الإمامة المنشودة، ولكن القدر أبى ان تكون إمامة المسلمين عامة.

---

١٧) الدرجيني - طبقات ٢/٢٤٧.
١٨) ن. م - ٢/٢٤٧ - ٢٤٨.
١٩) ن. م - ٢/ ٢٤٨.
٢٠) ن. م - ٢/ ٢٤٧.

كما يحسن أن نشير إلى أن الإمام كان وثيق الصلة بأنصاره في جميع الأمصار وذلك يتسم عن طريق اللقاء في موسم الحج وقد كان أبو عبيدة مثل شيخه جابر لا يتخلف عن الحج، وسنرى بعد حين ما كان لأهل الدعوة في مكة خاصة من دور فعال في مؤازرة أبى حمزة بقيادة أبى الحر على بن الحصين.

وكان هذا اللقاء فرصة لبث الدعوة في الحجيج الوافدين من أطراف اللعالم الأسلامي وتنبيههم إلى ظلم الأمويين وبعدهم عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، كما أن هذا الإتصال يتم عن طريق المراسلات وقد بقيت رسالة هامة من رسائل الإمام أبى عبيدة لأهل المغرب في الزكاة وضح فيها المسالك الشرعية لتوزيع العشر، وبهذا تم لأبي عبيدة بناء مجتمع مترابط الأواصر رغم بعد الديار لأنه يقوم على منهاج واحد تردعه سلطة أدبية تتمثل في البراءة من كل من ينحرف عن المنهج السوى فكريا أو ماديا ومن ذلك براءة الجماعة من بعض من رؤوس أهل العدل والتوحيد[٢١].

كما عرف هذا المجتمع في البصرة وغيرها روح الوئام، وذلك لما يبذله الأغنياء من عطاء يجعل الفقير متعففا مع ما يبذل من أجل نشر الدعوة كما سيتجلى ذلك في أخبار ثورة طالب الحق بعد قليل.

ذلك هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، أستوعب أبرز خصال شيوخه، وأرسى قواعد مدرسة سنية أصيلة، فأقبل عليه أهل الاستقامة من كل حدب وصوب، فتخرج على يديه جيل لم تعرف الأباضية له مثيل، فاستطاع بهذا الجيل أن يحقق ما كان يصبو إليه الشيوخ عندما خيروا القعود حتى تحين الفرصة للظهور.

وها هي قد حانت، وما ذاك إلا بفضل الله وبفضل عبقرية أبى عبيدة الذي أستطاع أن يتحدى جبروت الأمويين وهو في عقر دارهم، أذاقوه أمر العذاب في غياهب السجون فلم يظفروا بشيء، وجلدوا أصحابه ومزقوهم فليم ينبس واحد منهم ببنت شفة حتى ظهرت راية الحق في حضرموت ثم من هناك أنطلقت لترفرف على جبل عرفات.

---

٢١) فرحات الجعبيري ـ البعد الحضاري للعقيدة الأباضية ـ مسقط عمان ١٤٠٨/١٩٨٧ ـ ص١٠٦.

١) جابر بن زيد ـ الرسائل ـ ص ٥ .

٢) إسماعيل الجيطالي (٧٥٠/١٣٤٩) ـ شرح النونية خ١/٢٤ .

٣) ن . م ـ ١/٢٤ .

٤) إسماعيل الجيطالي ـ قناطر الخيرات ـ القسم الأول ـ تحقيق عمروا خليفة النامي مكتبة وهبة القاهرة ـ ط١ ـ ١٣٨٥/١٩٦٥ ـ ١٧ ـ ١٨ .

٥) المبرد ـ الكامل ٣/٩٠٩ .

٦) الشماخي ـ السير ٦٦ .

٧) ن . م ـ ١٩ .

٨) ن . م ـ ١٠١ .

٩) ن . م ـ ٩٣ .

١٠) ن . م ـ ١٠٧ .

١١) ن . م ـ ٧٨ .

١٢) أبو زكرياء يحيى بن بكر الوارجلاني ـ كتاب السيرة وأخبار الأئمة تحقيق عبد الرحمن ايوب ـ الدار التونسية للنشر ١٤٠٥/١٩٨٥ ـ ٥٩ .

١٣) سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي ـ الأنساب ورقة ١٧٠ نقلا عن طالب هاشم ـ الحركة الأباضية ٨٥ .

١٤) الشماخي ـ سير ١٢٣ .

١٥) أبو زكريا سيرة ٤٢ .

١٦) لقد أستفدت كثيرا من بحث صديقنا الأستاذ مبارك الراشدي عن أبي عبيدة في تعداد هذه الأسماء وقد خرص على أن يترجم لهؤلاء الأعلام بقدر الإمكان رغم ندرة المعلومات

١٧) الدرجيني ـ طبقات ٢/٢٤٧ .

١٨) ن . م ـ ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

١٩) ن . م ـ ٢/ ٢٤٨ .

٢٠) ن . م ـ ٢/ ٢٤٧ .

٢١) فرحات الجعبيري ـ البعد الحضاري للعقيدة الأباضية ـ مسقط عمان ١٤٠٨/١٩٨٧ ـ ص ١٠٦ .

الفصل الثالث

عبد الله بن يحي طالب الحق وإعلان الإمامة في اليمن

ما تزال القيادة الأباضية تتحين الفرصة المناسبة لإعلان الثورة في مصر من الأمصار وقد كانت على بينة مما أصاب الخلافة الأموية من إنحلال في العقد الثالث من القرن الثاني، وما كانت تناله من ضربات في قلبها مما ظهر من إنشقاق في أبناء الأسرة الحاكمة، ومن ضربات في أجنحتها من الحركات الخارجية والشيعية وخاصة من الحركة العباسية الفتية.

فإلى متى هذا الكتمان؟ ولم لا تكون المحاولة والظرف سياسيا مناسب ومروان بن محمد تنصب عليه الضربات من كل مكان؟ فتكن الضربة القاضية على أيدي أهل الإستقامة تلك هي أحاديث مشائخ أهل الدعوة خاصة في مركز الدعوة في البصرة، بقى أي المواطن أولى المغرب أو خراسان، مصر أو اليمن، وبعد الدراسة والتمحيص تم الإتفاق على اليمن، نعم لقد وصلتها الدعوة من زمان ويتولى فيها القضاء قطب من أقطاب الدعوة فالأمة هناك وإن كان الكثير منها على غير الإمامة ليس للناس إلا أن يستبشروا لأنهم يدركون من تجربته في القضاء أنه أهل ليقود الأمة إلى الخير وليبعد عنها ما عرفته من عسف من زمان، وقد عرفنا في ما مضى ما عرفته هذه البلاد السعيدة من بلاء مع الولاة من بني ثقيف الذين توارثوا كرسي الولاية صاغرا عن كابر كما توارثوا طبيعة البطش والقهر.

وفعلا فقد علل ثورته بما تعيشه اليمن من عسف كما جاء في الأغاني «فرأى (عبد الله بن يحي) باليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا، وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه ما يحل لنا المقام عل ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه»[1] هذا من ناحية، أما عن وصول الدعوة إلى هناك فقد كان من وقت مبكر وقد ذكرنا من قبل أسماء بعض من أبناء اليمن الذين تخرجوا على يدي أبى عبيدة وعلى رأسهم أبو أيوب وائل بن أيوب الحضرمي الذي يذكر ما يلي «أدركت بحضرموت رجالا إن كان الرجل منهم لو ولي على الدنيا كلها لأحتمل ذلك في عقله وحلمه وعمله وورعه»[2]. وفي هذه الشهادة دليل على رسوخ منهج أهل الإستقامة في اليمن، كما أن إختيارها لريادة التجربة الأولى في الثورة تؤكد ما ذكر وإن لمتسعف الأخبار بالتفاصيل، ولا ينبغي أن ننسى أن عبد الله بن يحيى وإن كان قاضيا لإبراهيم بن حبابة عامل القويسم

١) الاغاني - ٢٣/١١١-١١٢ .

٢) الشماخي - سير ١٠٥ .

الثقفي على حضرموت، فإنه من أصل يمني إذ هو عبد الله بن يحي بن عمر بن الأسود بن عبد الله بن الحارث بن معاوية بن الحارث الكندي، وهذا من شأنه أن يدعم موقفه إذ للكنود دور فعال في اليمن ولا يمكن أن يتخلوا عن واحد من أبنائهم إذا قامت الإمامة. مع العلم كذلك أن عبد الله هذا كما علمنا كان من رواد مدرسة أبى عبيدة القفاف وقد نهل من هناك مع خلانه ما يؤهله ليكون الإمام المنشود ولا نشك في أنه وقع التخطيط للثورة في سرداب أبي عبيدة وفي غيره من مجالس أهل الدعوة الخاصة ذلك لأنه حالما أستشار طالب الحق الجماعة في البصرة هللوا جميعا وقالوا بصوت واحد «إن أستطعت ألا تقيم يوما واحدا فأفعل فإن المبادرة بالعمل أفضل ولا تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويختص بالشهادة منهم من يشاء»[٣].

نعم إن عبد الله خيرة من عباد الله تلك هي شهادة شيخه و خلانه بمركز الدعوة بالبصرة وهو أهل ليقود هذه الثورة التي طال إنتظار أهل الدعوة لها، ولولا حكمة القيادة وإنقياد القاعدة لأنفجرت من زمان. ولم تكن المؤازرة بل جاءت فعلية لأن العمل جزء من الإيمان عند هذه الفئة من الناس، وهذا الإمام أبو عبيدة بعين للأضطلاع بمهمة التعبئة عضدة الأيمن في البصرة إلا وهو حاجب بن مودود الطائي [٤]، من أصل عماني ولد في البصرة، فقام بها أحسن قيام، وقد علمنا من أخباره من قبل أنه كان يرعى جميع الحلقات ويتفقدها وأن أمره كان مطاعا، وفعلا أنه على علم أن الثورة في حاجة إلى تشجيع معنوي وقد كتب رسائل في هذا الصدد، وكذلك إلى مؤازرة مالية عسكرية فنشط في جمع الاموال وكان الامر كما يلي :-

«وقال أبو سفيان لما خرج الأمام عبد الله بن يحي ووجه أبا حمزة المختار بن عوف أقام حاجب فجمع له أموالا كثيرة ليعينه بها فقال فكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى، قال: فما امتنع عليه أحد، قال ودعا أبا طاهر، وكان شيخا فاضلا، قال عليك بالنساء وأوسط الناس فإنا نكره أن نكتب عليهم مالا يحملون، قال: فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين، قال فلم يأتوا يومئذ أمرأة ولا رجلا إلا وجدوه مسرعا في ما سألوه، قال: وكان رجل من المسلمين لم يكن أحد يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم، قال: فقال به أبو طاهر: أي أخي العيال، فقال: الله لهم، والله ما رأيت منذ كنت وجها كهذا أنفق فيه، فإذا وجدته افأدعه؟ ولا يرجع إلي منها شيء، ولكن يا عبد الله لا تخبروا بأسمي ما بقيت، قالوا ففعلوا.

---

٣) الاغاني - ٢٣ /١١٢ .

٤) عبد الله بن مداد - سيرة، نشر وزارة التراث بعمان ١٩٨٤ - ٦ .

فلم تمس الليلة إلا وجمع أبو طاهرة عشرة آلاف درهم، قال فأتوا حاجبا فأخبروه فسر بذلك وقال: إن في الناس لبقية بعد، قال فاشترى بتلك الأموال سلاحا ووجهه، ووجه ما بقى إلى أبي حمزة رحمه الله»[٥]

إن في هذا الخبر دلالات عدة أهمها:-

١) الثقة المطلقةبين القيادة والقواعد.

٢) إنتظار الأمة إمامة الظهور بفارغ الصبر.

٣) إنتشار الوعي بين جميع أفراد الأمة رجالا ونساء.

٤) التمييز بين الغني والفقير في جمع الأموال.

٥) التطوع در على الصندوق أكثر من التعيين ذلك أن متطوعا واحدا قدم ما يقارب ثلث المقدار المجموع.

٦) عدم حرمان الفقراء من أجر العطاء ولو بقليل.

٧) وعي المتطوع بقيمة الغرض من العطاء إذ فهم أن الجهاد أحسن وجوه العطاء فلم يتردد.

هكذا أجتمع السلاح والمال فقدما إلى أبى حمزة ليقود الجيش المتوجه إلى حضرموت فيصفه أبو عبيدة: «إنا بعثنا لك إثنى عشر رجلا وألفا يعني بالألف بلج بن عقبة الفراهيدي [٦] ونحن نعلم أن الشراء لا يعتمد على كثرة العدد بقدر ما يعتمد على التعبئة الإيمانية، وقد رأينا من قبل كيف تغلب أربعون على ألفين. وينطبق الجيش بحكمة تامة يحمل رسالة من الإمام أبي عبيدة إلى عبد الله بن يحي تدعو إلى الألتزام التام بمسلك السلف في السلم والحرب «إلى عبد الله بن يحيى إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تعتدوا وإقتدوا بأسلافكم الصالحين وإستنوا بسنتهم، فقد علمتم إنما أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم» [٧].

ولا أريد أن أسبق الأحداث في التعليق على هذه الوسيلة الإيمانية من رجل يخلط بين الأمور، ولا يرد الكيل كيلين، وإنما غرضه من الثورة أن تكن كلمة الله هي العليا، وأن يرجع العدل إلى نصابه وأن تدور عجلة الزمن لتعبث من جديد صفحة كصفحات الخلافة الراشدة في عهدها الزاهر، وإنما أترك ذلك للأحداث لتبين قوة الصلة بين القول والعمل.

٥) الدرجيني - طبقات ٢/٢٦٢ .

٦) الشماخي - سير ٩٩ .

٧) الرقيشى - مصباح الظلام ورقة - ١٣٢ - نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية - ١٠٤ - الأغاني - ٢٤٣/١١٢ .

وحالما التأم الجمع بحضرموت هبت الجماعة لمبايعة عبد الله بن يحيى إماما للظهور، ولم تدقق فيه الطبول، وإنما خر فيه الحاضرون ساجدين لرب العالمين راجين من الله حسن القبول وهم على علم بما ينتظرهم من العمل الدؤوب لإرساء قواعد هذه الامامة في واقع الحياة بما سيلقون من بلاء ممن تربعوا على كرسي (الخلافة) منذ ما يقارب القرن، هؤلاء الذين أنطلت حيلهم على كثير من الناس إذ إعتبروا معهم أن كل ثائر على الخلافة الأموية خارج عن الحق يجب أن يحارب. وأثر هذه البيعة لم يكن من طالب الحق، وقد صار طالب الحق بحق الا أن أنطلق ليسترجع الحق من مغتصبيه فإتجه إلى دار الولاية وهو بها عليم، لكن لا ليجلس إلى الوالي وإنما ليجلس مجلس الأمامة مكان الوالي وهو آنذاك أبراهيم بن جبلة، ويتحول الوالي من دار الولاية إلى السجن لكنه ليس كسجن الحجاج وأمثاله، وإنما هي إقامة جبرية مؤقتة في الحفظ والأمان، الغرض منها حماية الوالي لا تعذيبه، وفعلا لم يمض يوم حتى خير الوالي بين الأقامة في دولة الأمام عبد الله بحضرموت له ما للأمة وعليه ما عليها، وبين المغادرة حيث يشاء بدون قيد ولا شرط.

إنها السماحة بعينها، وإنها لاقوى دليل على أن الدولة الجديدة لا رغبة لها في سفك الدماء وإنما همها أن تنصف المظلوم وتقيم العدل في ظل شريعة الإسلام ولكن أنى لأبراهيم بن جبله مثل هذه المعاني السامية وهو أحد تلاميذ بني ثقيق، وإنه الكرسي في النهاية فكل الناس يرغب في الصعود إليه ويكره النزول منه ولو برفق مثل هذا الرفق. وما أن أطلق سراحه حتى سارع إلى صنعاء حيث يقيم القاسم الثقفي والي الدولة الأموية على اليمن بما له من قوة وعتاد، وما أن بلغه الخبر وتأكد ذلك بوصول أبراهيم بن جبلة حتى بدأ يستعد للمواجهة. أما حضرموت فقد صارت مركز أمامة الظهور وطار الخبر إلى أطراف البلاد ووصلت الجموع الأباضية من كل مكان لتعيش في ظلال الأمامة الفتية ولتضحي من أجلها بالمال والنفس وبكل غال ونفيس.

ولا شك في أن الامام عبد الله يعلم أنه لا يمكن أن يستقر له الامر إلا بالتمكن من صنعاء، وما قيمة أمامة ظهور لا تنشر الحق إلا في اليمن فحسب، وإنما في أطراف البلاد، لم لا يكون ذلك في الحجاز؟ وحتى في الشام معقل الأمويين ومركز قوتهم وعسفهم وتلك كانت الخطة فعلا.

معـــركة صنـعـاء :ـ

نحن نعلم مما سبق أن بلاد اليمن تنقسم إلى ثلاثة مخاليف مخلاف حضرموت ومخلاف الجند ومخلاف صنعاء، ومن لم يمتلكها جميعا تكن سلته مختلة، مع العلم كذلك أن صنعاء هي «قصبة اليمن وأحسن بلادها، وأنه ليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلا منها، وهي طيبة الهواء كثيرة الماء، وكانت لها تسعة أبواب وكان لا يدخلها غريب إلا بأذن»[٨]. وكان هم عبد الله بن يحيى أن يخلص أهلها مما نالهم من عسف من القاسم الثقفي ومن سبقه من الولاة، ولا شك أنه كان قد زارها من قبل مرات للتشاور مع من يوجد بها من الأباضية، ولذلك لم يتحرك من حضرموت إلا بعد أن كتب إلى أصحابه بها «إني قادم إليكم»[٩] ولا تتصور فرحة هؤلاء عندما علموا بالخبر فكانوا على غاية الإستعداد للأمتثال لأوامر الإمام، ولا تسعف المصادر بتحديد دور هؤلاء في المعركة لأن النصر تم لطالب الحق خارج صنعاء.

ولما كانت البيعة سبيلا من سبل الراحة، بل هي باب من أبواب الجهار لإعلاء كلمة الحق لا غير، لذلك أعد طالب الحق لدفع الظلم عن صنعاء جيشا من المتطوعين، وكذا جيش أهل الإستقامة في كل زمان ومكان وبلغ عدده ألفا وستمائة من الأباضية، إنضم إليهم من الناقمين على بني أمية الذين سئموا حكم الولاة الثقفيين الذين أشاعوا الجور والفساد في وطنهم العزيز عدد غير قليل يتراوح بين الأربعمائة والألفين حسب إختلاف روايات المؤرخين، وبهذا يكون عدد الجيش الإجمالي إما الفين وإما ضعف ألفين، ومهما يكن هذا وذاك فإن هذا العدد بعيد كل البعد عن عدد جيش بني ثقيف.

وإذا علمنا أن صنعاء تقع على مسيرة أحد عشر يوما عن حضرموت أي ما قدره سبعون فرسخا [١٠] وأن الجيش الأموي عسكر على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء تبين أن هذا الجيش المخلص ظل يعد السير ثمانية أيام في نشوة من لا يقرأ للموت حسابا، وينتظر الشهادة بين اللحظة وأخرى، فلم يكن جيشا متلكئا ولا مترددا ، وإنما كان في غاية التناسق والإنسجام شعاره لا حكم إلا لله.

وكم إشتاق هؤلاء الرجال إلى قعقعة السيوف وصليل الفرسان في ساحة الوغي، وكم كانت وعود أئمتهم بأن مثل هذا اليوم لم يحن، وها هو قد حان وجاءت ساعة اللقاء. فكان الإمام عبد الله بن يحيى طالب الحق بنفسه في قلب المعركة وما كان ليُنِيبَ أحداً عنه في مثل

---

٨) ياقوت الحموى (٦٢٦/١٢٢٨) معجم البلدان ـ دار صادر بيروت ـ د.ـ /٣ /٤٢٦ .

٩) الاغاني ـ ٢٣/١١٢ .

١٠) ياقوت ـ معجم البلدان ٢ /٢٧٠ .

هذه المعركة التي ستكون حاسمة، وقد وضع على الميمنه يحيى بن حرب والمهاجرين الذين إنضموا إلى أباضية حضرموت، وعلى الميسرة بلج بن عقبة من أباضية البصرة يعاونه أبرهة بن الصباح الحميري. وكانت الكتائب المتقدمة والمتأخرة تروح وتغدو بالأخبار. ولم يغفل الإمام عن ترك حامية بحضرموت على رأسها عبد الله بن سعيد الحضرمي، أما القاسم الثقفي، وهو من هو فلا يمكن أن يفعل كما فعل صاحبه في حضرموت، وإنما دبر وخطط مع أبراهيم بن جبلة الذي إنضم إليه ووصف له قوة ما رأى من رباطة الجأش وقوة الإيمان وهو بعبد الله بن يحيى وصرامته خبير.

وأسفرت خطته عن جمع جيش قدر المؤرخون عدد أفراده في حدود الثلاثين ألفا، وأنقص الثلث أن رأيت ذلك مبالغة، بل أقول لك أنقص النصف ومع ذلك يبقى الفارق عظيما بين القوتين المتقابلتين في العَدد والعِدة. نعم إن هذا الجيش تموله خزينة الدولة الأموية بما تجمع فيها للثقفيين من مال طريف وتليد أعدوه للتطاول والأستعلاء، ولمثل هذه المواقف، أي لردع من يثور. ووسط هذاالشعور بالأستعلاء لدي القائد والجنود أبي القاسم الثقفي أن يستقبل جيش طالب الحق في صنعاء وإنما عسكر له على مسيرة يوم منها وهو مقر العزم مع أعضاده على أن يلقن هؤلاء المتمردين الخارجين عن (الخلافة الشرعية) درسا لا ينسونه في حياتهم ويكون عبرة لكل معتبر، ولتكن اليمن زائدة في هذا لأنها عرفت من الأستقرار بأمرة الثقفيين ما لم يعرفه غيرها من الأمصار.

ثم كانت خطته بأن ترك الاثقال في أبين (وهي قرية على مسيرة يوم من صنعاء في طريق حضرموت) وتقدم على مسيرة يومين من هذا المعسكر لمواجهة طالب الحق.

اللقـــاء الأول :-

لقد كان حسب رواية الأصفهاني في قرية من قرى أبين تدعى لجح، ولما ترآءى الجمعان، جمع بلغ من العَدد والعِدة ما لا يخطر على بال خرج في الدفوف والغناء والمزامير، وجمع يقرؤون القرآن ويكبرون الله تعالى لا عَدد ولا عِدة سوى الإيمان بأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء. وكان ذلك قريبا من الليل، ويروي الأزكوي أن بعض أصحاب طالب الحق هالهم ما رأوا من كثرة الجيش المقابل فدب إليهم الضعف وقالوا لطالب الحق: «أهجم بنا عليهم بالليل فأن يكن لنا أصبحنا وأن تكن علينا نجونا في سواد الليل».

وما كان ليغيب عن طالب الحق والخيرة من أصحابه إلا يقرأوا حسابا لمثل هذا الموقف، وهم يعلمون أن المنضمين إليهم ليسوا في مستوى المتطوعين الاول الذين نشأوا في أحضان

الدعوة، ومن صالحهم أن يتخلف مثل هؤلاء، وفعلا كان الرأي بأن أمر طالب الحق مناديا بأن يهتف في الجيش «من لم يرد القتال فلينصرف الليلة». وكان ما توقع طالب الحق وأصحابه فلم يبق إلا الألف والستمائة، وتبين أن الذين إنضموا من أجل النقمة كان طمعهم في الغنيمة، ولما رأوا أنهم سيكونون غنيمة حسب تقديرهم إندحروا على أعقابهم في جناح الليل.

وبعد مضي الفسحة المطلوبة لم يكن من عبد الله إلا أن أنقض بجيشه المخلص أنقضاض الأسد على الفريسة في تلكم الليلة التي لم يبلج صبحها إلا والأمام ماسك بزمام الموقف وقد ولى الجيش المغرور القهقري مخلفا وراءه أربعمائة قتيل في حين خسر الأمام ستين. إن هذا اللقاء قلب موازين القوى إذ ولى الجيش الأموي يجر أذيال الخيبة منهار العزيمة لم يخطر بباله أن يدحر في ساعات قلائل أمام هذه الفئة القليلة من الشراة ولكنه أندحر بحق، بينما رسخ هذا اللقاء قدم جيش الأمام وزاده إيمانا بقوله تعالى ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ ومضى قدما نحو الهدف المنشود لتخليص قلعة من قلاع الإسلام من الظلم والظالمين، ولم يتوقف إلا بالقرب من صنعاء في منطقة تدعى جوين بينما تراجع القاسم الثقفي إلى صنعاء فبقي فيها يوما ثم خرج منها وعسكر وخندق.

اللقـــاء الثـــاني :ـ

لقد أدرك القاسم الثقفي خطر جيش طالب الحق فسلك خطة ثانية أساسها حفر الخنادق للأحتماء بها من هجومات جنود عبد الله بن يحيى، ولم يجرأ في هذه المرة على المواجهة بنفسه وإنما قدم قائده يزيد بن الفيض في ثلاثة ألاف من أهل الشام وأهل اليمن نتصور أنه أنتخبهم من خيرة من عنده من الألوف المؤلفة، وإذا إنهزموا هناك ألوف أخرى تعوضهم إذ لم ينفع النفير الكامل في اللقاء الاول.

وقد كان جيش الأمام على إستعداد كامل لهذا اللقاء لكنه لم تكن بين الطرفين إلا بعض المناوشات خشى من خلالها اليزيد بن الفيض من أن تقوم المعركة في الليل وأن تكون الهزيمة الثانية فأقنع القاسم الثقفي برأيه وتمت المحاجزة بين الجيشين وأنفصلوا بعضهم عن بعض وتوقفت المناوشات لمدة يومين. وإنهما ليومان من أطول الأيام على كلا الطرفين لأن طول الإنتظار أعسر من المواجهة، وما يزال يزيد يلح على أن يفجؤهم ليلا وهو يقول «والله إن لم تبيتهم ليغنمنك»[11] لكن القاسم كان يخشى تكرر الهزيمة ولم يستطع أن يتخذ القرار النهائي.

---

١١) الاغاني - ٢٣/١١٣.

وأمام تردد هذا كان القرار بيد الإمام الذي عزم على تكسير حالة اللاحرب، وما أن انبلج صبح الليلة الثالثة حتى أحس الجيش الأموي بالموت يأتيه من كل مكان إذ أطبق الإمام بجيشه على الأمويين في خندقهم فحاولوا عبثا الدفاع عن مراكزهم ولما غلبوا تقهقروا إلى المعسكر، ولم يصل وقت صلاة الظهر حتى بدأ النصر واضحاً جلياً، ففر القاسم الثقفي إلى صنعاء وتبعه قائده اليزيد بن فيض بعد أن قتل الصلب بن يوسف أبن أخ القاسم بن عمر الثقفي وأحد قواد الجيش. وما كان ليطيب المقام للقائدين المنهزمين في المدينة التي كانت رهن إشارتهما فلم يكن منهما إلا أن إلتحقا ببلاد الشام بما تبقى لهما من قوة.

ووسط نشوة النصر أراد أبرهة بن الصباح أتباع المنهزمين لكن الأمام الواعي الذي ما تزال وصية الأمام أبي عبيدة تدغدغ مشاعره ما كان ليمكنه من ذلك ونهره ناصحا على أن هذا ليس مسلك أهل الإستقامة ولا قيمة لتعويض قهر بقهر. وما كان للجيش المنتصر إلا أن يخر ساجدا لرب العالمين الذي يسر له هذا النصر على الظلم والظالمين.

وماذا تظن أنه فاعل بصنعاء؟

«قال: ودخل عبد الله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضحاك بن زمل وأبراهيم بن جبلة بن مخرمة فحبسهما وجمع الخزائن والأموال فأحرزها ثم أرسل إلى الضحاك وأبراهيم فأرسلهما وقال لهما: حبستكما خوفا عليكما من العامة، وليس عليكما مكروه فأقيما إنّ شئتما أو أشخصا، فخرجا»[١٢].

نفهم من هذا النص وغيره أن الإمام حالما كتب له النصر إتخذ عدة إجراءات قلبت مجرى حياة أهل اليمن ظهرا على عقب إذ بعد أن كان «يرى باليمن جورا وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة» يجمع المؤرخون على أنه أحسن في الناس السيرة وكان لين الجانب كافا عن الناس.

الأجـــراء الأول : عســـكري :-

ألف الناس أن الجيش المنتصر يعيث في الأرض فسادا ويستحل الدماء والأموال والفروج وهذا ما عرفناه في جميع معارك الأمويين مع المخالفين لهم في الفكر، بل تنتهي بقطع الرؤوس والإرسال بها إلى مركز الخلافة وصلب الجثث الأنسانية سنوات طوالا، وحراق البعض منها ونسفها في اليم نسفا. تلك هي أيضا نظرية الأباضية إلا إجهاز على جريح على مسلك

---

١٢) ن . م - ٢٣/١١٤ .

الإمام علي في معركة الجمل، تتحول على مرأى من الناس جميعا إلى تطبيق، فليبت لدى الناس أن الأباضية ليسوا خوارج كما يزعم الأمويون وإن كان هؤلاء أشرس من الخوارج في أغلب حروبهم.

ولذلك كما رأينا نهى الإمام أبرهة عن الإجهاز على المدبرين فهم طلقاء لا ضرر عليهم لأنهم عبروا بصفة صريحة عن الإستسلام.

الأجـــراء الثـــاني : ســـــياسي :-

إنه لعمري إجراء منقطع النظير، بل لا يكاد يصدقه العقل، بل يعتبر خطأ عند أهل السياسة، فكيف يسمح الإمام لأبراهيم بن جبلة وهو يقع في الأسر للمرة الثانية بالأختيار بين البقاء والشخوص مرة أخرى حيث يشاء . . . . . هذه مرونة أراد من خلالها الأمام أن يثبت أنه ما كان يرغب في إسالة الدم وعمل بالقاعدة «أرحموا عزيز قوم ذل» وإنما هي الرحمة والعدل يمكن أن يشملا حتى من كان في مركز القيادة ويخون للمرة الثانية. وإن كان الأمر هكذا مع أبراهيم بن جبلة فلا غرابة في أين يكون الأمر على نفس الحال مع الوالي الثاني الضحاك بن زمل الذي خلفه القاسم الثقفي على صنعاء. ولو بقى القاسم نفسه لفعل معه كما فعل مع صاحبيه.

وقبل ذلك أنه يعتذر إليهما على ما أصابهما من أقامة مكرمة في السجن إذ لم يكن الغرض منها النكال وإنما كانت قصد الحماية من العامة لأنه قد يصدر منها في نشوة النصر ما يلوث سمعة الأمة كلها. وكأني بالواليين لا يصدقان أهما في اليقظة أم في الحلم، وقد نشئا على غير هذا المسلك، ولو كان النصر بيدهما لمزقا الأمام وجماعته إربا إربا كما فعل ذلك فيما بعد، ويختاران الخروج على البقاء إذ لا مقام لهما بين أيدي أناس كانوا يعذبانهم وهم في فاتحة عهد جديد لا فرق فيه بين سيد ومسود.

الأجـــراء الثـــالـــث : مـــالـــي :-

يذكر الشماخي «أن عبد الله بن مسعود وأبن خيران وهما من الأباضية قد أتيا بالأموال التي أحرزها طالب الحق إلى المسجد فقسمنها (الإمام) على فقراء صنعاء بالسوية ولم يسمح للأباضية أن يأخذوا منها شيئا[١٣]».

إن هذا لهو الجنون بعينه حسب التقدير الأموي، إذ كيف يفرط المنتصر في مثل هذا الرصيد من المال وهو ما يزال في بداية الطريق، أليس من الأولى أن يدخره للمراحل اللاحقة، وفي النهاية لم يغتصبه من أحد ولا يتعلق الأثم بذمتين.

١٣) الشماخي - سير ٩٩ .

الأختيار الثالث : ملازمة الحياد لمن يعارض المبادىء الأباضية، وفي هذه الحالة لن يصاب بأي سوء «أو كرهنا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله ويكف عنا يده ولسانه فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه ولم يحملنا على سفك دمه، وإن قتلنا كان قد كفى مؤونتنا عسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلا»[١٤] .

هذه نهاية في تمكين المتساكنين من حرية الأختيار أما الإنتماء إلى الجماعة قلبا وقالبا أو مجرد الأنتماء العاطفي، أو البقاء على الأنتماء الأول على أن يترك الجماعة في سبيل حالها، ويواليت الأباضية عوملوا بالمثل أو بما هو قريب من المثل عندما كانت الغلبة من غيرهم أنه الأستئصال والقتل صبرا كما سنى عندما تتحول الأحوال. ولم تكن هذه الإجراءات إلا بعد أن وضح الإمام في خطبته التي ألقاها بصنعاء حقيقة عقيدة الأباضية الأمر الذي كان يجهله كثيرا من الناس «الإسلام ديننا ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا . . . . من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر ومن شرب الخمر فهو كافر. . . ونشهد أن الله صادق في ما وعد، عدل في ما حكم، وندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعد والوعيد، وأداء الفرائض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله والعداوة لأعداء الله . . . .»

أبعد هذه الخطبة وغيرها يصح أن تقول كتب التاريخ والفرق والأمويين عن الأباضية أنهم أهل الهوى والبدع والخوارج عن الدين، مع العلم أن هذه الخطبة قلّ من لم يطلع عليها خاصة بعد كتابة كتاب الأغاني الذي وصل إلى جميع الأيدِ وإن لم تصل كتب الأباضية إلى أيدي الناس. إنها عقيدة إسلامية راسخية تميز بين المطيع والعاصي، لم يعرف الأرجاء والجبر إليها سبيلا، لكل كسبه وعلى هذا الكسب يجازي فإن كان مؤمنا ختم له بالخير فالجنة وإن مات وهو كافر بالنعمة فجهنم.

وقبل أن نختم لا ينبغي أن نغفل عن أبى حمزة الذي أنسى مع جملة الوافدين من البصرة لا شك في أنه كان جنديا من الجنود، ولا شك في أن الإمام أدخر جهده في القيادة إلى المرحلة اللاحقة، ولذلك حالما تم ضم صنعاء الى حضرموت عين الامام هذه البطل على قيادة الجيش الذي سيسعى إلى إزالة ما عرفنا من عسف وقصف في الحرمين الشريفين ثم بعد ذلك في دمشق.

وليس لنا في نهاية هذا الفصل وقبل أن نعود إلى طالب الحق مرة ثانية إلا أن نسجل مدى إحكام ذلك التنسيق السري إذ تتحرك أطراف المراكز بأمر القيادة دون أن يتفطن أحد إلى

١٤) الرقيشى ـ مصباح الظلام ورقة ـ ١٣٤ ـ نقلا عن مهدى طالبا هاشم ١١٥ .

الصلة بين الطرفين، ويأتي المدد إلى عبد الله من البصرة، ثم من غيرها فيتقدم بإيمان راسخ ليحقق أحسن أمل كان يصبوا إليه أهل الإستقامة من يوم إعلانهم عن القعود في إجتماع البصرة أي قبل ستين عاما تقريبا، هذه العقود الستة لم تمض سدى بل أثبتت للعيان نجاعة تخطيطهم، لم يكن الإمام ليروع أحدا فحالما حطت الحرب أوزارها شاع الأمن وأنتشر الآخاء وكان العفو الشامل حتى على من كان في مركز القيادة، وعادت الأموال إلى أصحابها، وبدا عهد جديد في اليمن السعيدة، والأمل كبير في أن يهل مثل هذا العهد في بقية أطراف العالم الإسلامي، وليكن الأنطلاق من بلد الله الحرام وعلى يدي أبى حمزة الشاري وبأمر من الإمام.

١) الأغاني - ٢٣/١١١-١١٢ .

٢) الشامخي - سير ١٠٥ .

٣) الأغاني - ٢٣ /١١٢ .

٤) عبد الله بن مداد - سيرة، نشر وزارة التراث بعمان ١٩٨٤ - ٦ .

٥) الدرجيني - طبقات ٢/٢٦٢ .

٦) الشماخي - سير ٩٩ .

٧) الرقيشى - مصباح الظلام ورقة - ١٣٢ - نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية - ١٠٤ - الاغاني - ٢٣/٢٤٣ .

٨) ياقوت الحموى (١٢٢٨/٦٢٦) معجم البلدان - دار صادر بيروت - د.- /٣ /٤٢٦

٩) الأغاني - ٢٣/١١٢ .

١٠) ياقوت - معجم البلدان ٢ /٢٧٠ .

١١) الأغاني - ٢٣/١١٣ .

١٢) ن . م - ٢٣/١١٤ .

١٣) الشماخي - سير ٩٩ .

١٤) الرقيشى - مصباح الظلام ورقة - ١٣٤ - نقلا عن مهدى طالبا هاشم ١١٥ .

الباب الثالث
المجاهد أبو حمزة الشاري
والشوق إلى إمامة المسلمين عامة

الفصل الأول
النشـــأة الأولـــى

١) **مجـــد تليـــد :-**

أبو حمزة المختار بن عوف بن عبد الله بن يحيى بن مازن بن محاسن بن سليمة بن مالك بن فهم الأزدي.

ويقال المختار بن عوف السليمي الأزدي وقوفا عند عراقة النسب ويرجع نسبهم إلى سام بن نوح عليه السلام.

ويهمنا من ذلك جده الأزد الذي تنسب إليه عديد من أحياء العرب على حد قول أبى عبيدة. «وأعلم أن الأزد من أعظم الأحياء واكثرها بطونا وأمدها فروعا، وقد نسبها الجوهري إلى ثلاثة أقسام . . . .»[١] يهمنا منها أزد عمان الذين يرجع إليهم المختار بن عوف. ويورد العوتبي في كتابه الأنساب عند الحديث عن الأزد عديدا من الأحاديث تبين ما للأزد من فضـائل. منها قوله عليه السلام «نعم القوم الأزد يحسنون ولا يغلون هم مني وأنا منهم، من لم يكن له أصل في العرب فليلحق بالأزد فانهم أصل العرب». وقوله «نعم القوم الأزد، طيبة أفواههم، فخرة أبدانهم، تقية قلوبهم»، وقديما قالوا: «الأزد جمجمة العرب وكاهلها» وقالوا «الأزد أسد البأس، وتسمى أيضا أسد الله وتسمى السنة»[٢].

من هذه الارومـة نـبع المختار بن عوف فورث عن أجداده هذه الخصال، فكان أزديا ويمكن أن تقـول أسديا لأنه كما يقال الأزد الأسد، ولا نغفل عن أنهم أسد البأس قبـل الإسـلام، وأسد الله عندما أعتنقوا الإسلام وعدد كبير من الأنصار منهم حسب أنس بن مالك[٣]. وهذه إشارة واضحة إلى ما أمتاز به الأزد من شجاعة فائقة تضاف إليها الحكمة، وحسن التدبير وذلك معنى «جمجمة العرب».

---

١) القلقشندي (١٤١٨/٨٢١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ دار الكتـب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ ـ ١٤٠٥/١٩٨٤ ـ ٩٣ .

٢) سلمة بن مسلم العوتبي ـ الأنساب ـ ط. جريدة عمان للصحافة والنشر نشر وزارة التراث العماني ـ عمان ١٤٠٤/١٩٨٤ ـ ٢/٤٣-٤٥ .

٣) ن . م ـ ٢/٤٤ .

ويكفي هؤلاء في إسلامهم أن أعتبرهم الرسول عليه السلام أصل العرب وذكر أنهم طيبون وأنهم تقية قلوبهم، ومهما يكن في هذه الأحاديث من قول فإن فيها إشارة لما للقوم من خير إذ لم تصنع أحاديث في ذمهم في ما نعلم.

هذه عن الأزدي أو الأسدي يهمنا منها طابع الشجاعة التليد المتأصل وتتجلى الشجاعة النادرة أيضا في نسبه المختار بن عوف إلى جده سليمة ولم يكن لم يقول مثلا المازني أو المحاسني وإنما قالوا السليمي؟

لعل ذلك يرجع إلى ما عرف به سليمة هذا من بطولة منقطعة النظير تجد عنها في كتاب الأنساب الشيء الكثير. يذكر العوتبي في حديث طويل الأسباب التى أوصلت سليمة إلى الأستقرار بأرض كرمان بفارس وكيف أنهم كانوا يشتكون من ظلم ملكهم الذي وصل به العسف إلى أنه «ما زفت عروس على بعلها حتى يؤتى بها إليه فيصيبها وإلا قتل بعلها وبدد أهلها»[٤]، فاتفق وإياهم على أن يخلصهم من الملك بشرط أن يملكوه عليهم مع التزامات أخرى، وتم الأتفاق بين الطرفين.

وقامت الخطة على مخادعة الملك الطاغية بأن يزف اليه سليمة مكان عروس ولينتقم منه شر إنتقام.

وهاك خاتمة القصة كما أوردها العوتبي «فلما أصبح (بعد أن قتل الملك) وثب إلى الأبواب ففتحها وخرج إلى حراس الملك وحاميته فشد إليهم، فلم يزل يجالدهم بسيفه ويقتل من لحق منهم حتى أباد عامتهم، وباب الدرب مغلق عليه وعليهم، ثم تصايح الناس وتهافتوا بالسلاح، ووقع الصريخ وأقبل عليه الجماعة ووجوه أهل كرمان، وأهل البيعة منهم وغيرهم من أعوان الملك في آلة حربهم وخيلهم وعددهم، فعندما أشرف عليهم سليمة من رأس الدرب، عليه الدرع والبيضة شاهرا لسيف الملك وهو مخضب بالدم، وألقى اليهم بجثة الملك ورأسه»[٥].

وكذا كان المختار بن عوف السليمي، وقديما قالوا من أين ذاك الشبل فقيل من ذاك الأسد، ولا أحد ينكر ما للوراثة من قيمة في تحديد طبائع الإنسان. وهذا هو المختار بن عوف السليمي الأزدي وارث هذا المجد التليد، وصار هو الآخر كما سنرى مضرب المثل في البطولة والشجاعة عندما أنطلق شاريا مناصرا للحق ساعيا الى إبادة الظلم والطغيان.

---

٤) ن . م - ٢/٢١٢ .

٥) ن . م - ٢/٢١٤ - ٢١٥ .

٢) *في صحار أعرق الأمصار :ـ*

إن مثل هذه الأصالة لا يمكن أن تنفع إلا إذا توطدت بتربية إسلامية راقية توجهها إلى ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه السلام وإلى ما يعود بالنفع على المسلمين.

وما دمنا ذكرنا أن المختار يرجع إلى أزد عمان فهو حينئذ عماني المنبت كما يثبت ذلك العلامة أبن مداد في سيرته «وخرج المختار بن عوف وهو من مجز»[٦] ومجز هذه قرية صغيرة جاثمة على ضفاف البحر الهادىء جنوب شرقي مدينة صحار وهي قرية من قراها. والتقسيم الإداري الحالي في عمان يميز بين مجز الكبرى وهي تابعة لولاية صحار وسكانها النوافل والفوارس وبنو معين، ومجز الصغرى وهي تابعة لولاية صحم ويقطنها آل فارس والبداة[٧] ولا نعرف إلى أيهما ينسب المختار بن عوف لعلها كانت مجز واحدة ثم تفرعت، كما لا نعرف عن أخبار هذه القرية سوى أسمها وأنها قرية ساحلية هادئة مطمئنة لا يمكن أن تتوفر للناشىء فيها سوى تربية صالحة بين أفراد الأسرة وفي جنبات بيوت الله، ووسط كبار أهل الحي ومشائخ القرية.

ولقرب هذه القرية من صحار لا نشك في أن هذه المدينة كانت لأبي حمزة مؤئلا وإن لم تسعف الأخبار بذلك ولعله من هناك أبحر إلى البصرة، وصحار قصبة عمان مما يلي الجبل. . . . مدينة طيبة الهواء والخيرات مبنية بالأجر والساج كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها، وقيل أنها سميت بصحار بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، وقال البشاري: صحار قصبة عمان ليس على بحر الصين بلد أجل منه، عامر أهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه، أجل من زبيد وصنعاء، وأسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، ودورهم من الآجر الساج شاهقة نفيسة، والجامع على الساحل له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق، ولهم آبار عذبة وقناة حلوة، وهو في سعة من كل شيء، وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن، والمصلى وسط النخيل، ومسجد على نصف فرسخ. . . . . [٨].

وإن كان هذا الوصف الذي نقله ياقوت عن المقدسي يرجع إلى القرن الرابع للهجرة خاصة وأنها مدينة عريقة كانت معروفة قبل الإسلام. وزائر صحار اليوم يحس أن الامر لم يتغير كثيرا خاصة بالنسبة إلى موقع الجامع فإنه ما يزال شامخا على الساحل في آخر أسواق

---

٦) أبن مداد ـ السيرة ـ ٦ .

٧) عادل الحديد ـ المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان ـ نشر وزارة الداخلية ـ مسقط ١٤٠٢/١٩٨٢ ـ ١٠٥ ـ ١٠١ .

٨) ياقوت ـ معجم البلدان ٣/٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

المدينة، أما طيب المناخ فهو على مر الزمن. ويهمنا أن نضيف إلى هذه الوصف الرومنطيقي، الذي يستهوي الأنسان لشد الرحال أن هذه المدينة هي التي مصرها عمر بن الخطاب عندما مصر الأمصار الخمسة وربط بين البحرين وعمان. وكان وصلها من قبل عمرو بن العاص بكتاب رسول الله ﷺ إلى عبد وجيفر ملكي عمان آنذاك فأسلما في الحين ودعيا الأمة إلى الإسلام فجاءت طائعة لرب العالمين.

وهكذا بين عشية وضحاها تحولت عمان إلى تربة إسلامية خصبة قلعتها صحار ولعل راوي الخبر أن بصحار بركت ناقة رسول الله أراد أنها ناقة مبعوث رسول الله ﷺ. وإذا علمنا أن جابر بن زيد عماني المنشأ هو الآخر وأنه نفي إليها في آخر حياته مع صاحبه هبيرة القرشي وهو جدا آل الرحيل الذين كانوا يقطنون هذه المنطقة، تأكد أن المختار بن عوف هذه الفتى تشبع بأصول الفكر الأباضي وفروعه مما كان يلقيه المشائخ في مدينة صحار من دروس ومواعظ، خاصة في مسجدها الجامع، بعد أن قبس الفروسية والرماية في قريته الأولى مجز إذ لا حياة في البوادي لمن يجهل الفروسية والرماية اللذين أمر الرسول عليه السلام بتعليمها للأبناء حتى يكونوا فتيانا فتوة أسلامية لا جاهلية.

ولا نضرب في الخيال بعيدا لنصور جميع جزئيات حياته الى تسكت المصادر عنها سكوتا تاما وإنما هي إفتراضات جاءت أقرب ما يكون للواقع المعاش انذاك، واذا وجدنا المختار بن عوف في البصرة فإننا نعلم أنه لم يشف غليله مما في عمان من علم زاخر لذلك شد الرحال إلى مدينة البصرة مركز الدعوة وقطب رحاها.

٣) *النبوغ في حلقات أبي عبيدة بالبصرة :-*

لقد عرفنا في ما سبق عن البصرة وعن حلقات أبى عبيدة الشيء الكثير مما لا نرى حاجة الى تكراره هنا فالبصرة حينئذ جمعت فأوعت بين حلقات العلم والأدب، ومجالس المناظرة بين شتى الفرق وسرداب أبى عبيدة وتعبئته.

كما عرفنا من خبر مضى أن مجالس أهل الإستقامة في البصرة ثلاثة أنواع فإذا وجدنا أبا حمزة في اعلاها درجة معنى ذلك انه نال نصيبه من البقية بل في إعتقادي أنه ينتقل بينها جميعا. «قال المليح: فوجدنا عنده (أبى عبيدة) المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ»[٩] وقد استمر هذا المجلس من صلاة العشاء إلى مطلع الفجر يقعد واحد من الحاضرين ليقوم آخر، وهو في هذا يعرضون أحوال أهل الإستقامة بأحسن بيان. وهذا هو المجلس الاعلى للشورى الذي يتقرر في مصير الأمة، وقد كان أبو حمزة أحد أعضائه البارزين ولا غرابة في أن يصفه أبو عبيدة بأنه «رجل أنجيله في صدره»[١٠]، عندما انتخب مع من أنتخب لمؤازرة عبد الله بن بن يحي في اليمن.

٩) الدرجيني - طبقات.

١٠) الشماخي - سير ٩٩.

وهذه الشهادة من رجل خضعت له الفصاحة رغم أنه مولى تدل على ما عرف الإمام عن تليمذه من قدرة بيانية منقطعة النظير في هذا المجلس ومن قبل في مجلس التعلم، وإننا لنقطع أن المختار كان من النخبة التي جلست في سرداب أبي عبيدة القفاف هذا السرداب الذي تخرج منه جميع عباقرة الحركة، ففيه ينالون التدريب على أسرار القيادة علما وعملا، ففي العلم نبوغ وفي العمل تفان. وكذلك لم يغفل هذا الفتى الذي جاء ليكسب كل أنواع التجربة عن حضور المجالس العامة مجالس الوعظ والإرشاد هذه المجالس التي يكثر فيها الإمام من ذكر الجنة ونعيمها، والنار وعذابها إلى حد إنه «تخنقه العبرة في موعظته وينتحب بالبكاء، ويشفق وينهق وما يملك دموعه»[11].

ولم تكن العامة أقل وعيا من النخبة وها هم ذات يوم يلحون على أبي عبيدة بأن يتحول عن الوعظ العام إلى الحديث عن الأحوال الراهنة، «فلما سكت (أبو عبيدة) . . . . وثب إليه أبو الوزير فقال: يا أبا عبيدة لو أردنا الجلوس إلى ما كنت فيه لجلسنا إلى من هو اوصف لما كنت فيه منك من قومنا، ألا ترى أمر أصحابك وتحض على نصرتهم والعون لهم؟ فنحن إلى ذلك أحوج منا إلى ما كنت فيه، يعني عبد الله بن يحيى وأبا حمزة المختار، قال فقال أبو عبيدة: يا أبا الوزير إنما يتكلم الرجل بقدر ويسكت إلى أجل»[12].

وهنا تتجلى حكمة الإمام فهو لم يثر على أبى الوزير وإنما أجابه بهدوء تام على أن لكل مقام مقالا، ومثل هذه البراعة في حسن التخلص تستفيد منها النخبة من رواد هذه المجالس العامة ليحسنوا فنون سياستها إذا تحولت قيادتها إليهم.

ولم يكن للمختار أن يستغني عن أستفتاء شيخه. وقال: جاء المختار بن عوف إلى منزلنا (الربيع بن حبيب) فخرج إليه أخ لي صغير. . . . فأخذه وقبله. فقال له الصبي يا عمي زوجني أبنتك. قال قد فعلت يا بني، وأبنته يومئذ صغيرة، فلما خرج أبو حمزة وقع في قلبه مما قال الفتى شيء، فمضى حتى دخل على أبي عبيدة، فقص عليه القصة، فقال: يا أبا حمزة هما في نكاحهما حتى يبلغا، فيعلمان الخبر فإن رضيا كان نكاحهما جائزا، وإن كرها فلا شيء. قال أبو حمزة فكيف القول في الصداق، قال: ما قال الغلام، قال وكان أبو حمزة قد قال للغلام يا بني فما تعطيها؟ قال: من سرير جدي إلى الباب دراهم، قال أبو عبيدة فهو كما قال. . . . »[13]

---

١١) الديوان المعروض على علماء الأباضية خ البارونية ـ ٥٨٧ .

١٢) الدرجيني ـ طبقات ٢/٢٥٩ ـ ٢٠٦ .

١٣) ن . م ـ ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

وإن كانت القضية ليست من كبريات المشاكل ولكنه الطالب يطمئن إلى موقف شيخه خاصة في قضية من باب (بلى ولكن ليطمئن قلبي)، وفي ذلك دلالة على ما في نفس أبي حمزة من أحترام لآراء شيخه. وتتجلى في النهاية قمة الأعتراف بنبوغ أبى حمزة وتأصله في الدعوة إن المدرسة التي نشأ فيها ونهل من ينابيعها تتوجه أحسن تتويج إذ تنتدبه إلى المهمة التي صبرت من أجل تحقيقها من أمد بعيد ألا وهي مهمة تحقيق الإمامة، إمامة الظهور، ولم لا الإمامة العظمى؟ وفعلا كان أبو حمزة واحدا من ثلاثة عشر وإن كان الثالث عشر يقدر بألف ممن وجههم أبو عبيدة إلى مؤازرة عبد الله بن يحي عند أرساء أسس إمامة الظهور.

إنها أحسن إجازة لأبي حمزة تدل على الأعتراف بتوفير جميع خصال المسلم الذي تأهل لتحمل المسؤوليات الجسام. . . واذا علمت أن هذه المدرسة لا يعترف روادها لواحد بالفضل إلا إذا كان شديد الحرص على أن يكون شاريا كما ينقل ذلك عبد الملك الطويل عن أبي حمزة: « وقال: سمعت عبد الملك الطويل يحدث عن المختار بن عوف الكندي قال: أدركت المسلمين إذا كان الرجل منهم ما يستزاد في صلاة ولا صيام ولا في حج ولا في عمرة ولا في وجه من الوجوه إن عرف منه أنه ليس بشديد الحرص في الشراء سقط من أعينهم ونقصت منزلته عندهم. »[١٤].

فالمعيار ليس التفاني في العبادة فحسب وإنما يقاس المرء بمدى رغبته في السراء فإن كان حريصا عليه راغبا في بيع نفسه في سبيل الله من أجل نصرة الحق فهو من أهل الإستقامة بحق ورمز من رموزهم وإن هو بدا منه شيء من التقاعس في ذلك تردت منزلته عند الجماعة. وقد كان نصيب أبي حمزة في هذاالباب الأوفى إذ بالشراء صار يعرف فهو أبو حمزة الشاري وقد غلبت هذه الشارة حتى على نسب العريق والمجد التليد، لأنها من المجد الطريف المكتسب الذي يشهد به القاصي والداني. . . ولا تتصور أن أبا حمزة ومن معه من الشراة كانوا من اهل اليسر والثراء بل كانوا يلتحفون الأرض ويفترشون السماء دون أن تمنعهم هذه الخصاصة من نيل ما نالوا من درجات العلم ودرجات الشجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد.

ثم إن تتبع سيرة أبى حمزة تدل على أن أبا حمزة لم يكن ينتدب من بين المنتدبين سدى وإنما كانت له سابقة في تحسس الأخبار خاصة في موسم الحج ولذلك أنتدب بعد ذلك لقيادة الجيش الموجه إلى الحرمين الشريفين.

---

١٤) ن . م-٢/٢٦٢ .

٤) تحسس الأخبار في الحرمين الشريفين :-

لم تكن مجهودات الإمامين جابر بن زيد وأبي عبيدة لتذهب سدى في الحرمين الشريفين، إذ كانت تخفف عليهما المؤونة الجماعة الأباضية المستقرة هناك، وتمكنها من مواصلة الدعوة طوال السنة بالنسبة إلى الوافدين للأعتمار مع تحسس أخبار الأمويين وغيرهم من حركات المعارضة وكان على رأس الجماعة بمكة زمن أبى عبيدة أبو الحر علي بن الحصين هذا الذي كان مثالا في التفاني في خدمة مصلحة الدعوة فقد أثر عنه أن ينفق ثلاثة أرباع ما يملك على حاجيات الأمة ذلك أنه «كانت تأتيه غلته من البصرة إلى مكة نقرة واحدة ذهبا فيقسمها نصفين فيفرق نصفها على فقراء المسلمين وربعا في نفقته وربعا يحبسه ليهيئه لمن يمر به من المسلمين وفي معاونتهم»[١٥] .

وبمثل هذا المسلك يتعفف أهل الخصاصة من الأباضية فلا يحتاجون إلى غيرهم ولا يجرفهم تيار اللهو المنتشر بين مكة والمدينة، ولا يحتار الوافدون إلى الحرمين للدعوة في ما يتعلق بالإقامة والنفقة ، وليس لهم إلا أن يدخروا زاد الطريق. وسيجد أبو حمزة في هذا المدد خير عون في رحلاته الدعائية إلى الحرمين، هذه الرحلات التي كانت مستمرة على ما يبدو، فالقيادة كانت تعده للحجاز، ويتأكد هذا ببقائه مجرد جندي في ثورة اليمن وتعيينه مباشرة على رأس الجيش الموجه للحجاز.

ولم يكن أبو الحر ليكتفي بالنفقة وهو بعيد عن الواجهة بل كان يتولى أمر المجالس وكان له مجلس ترجع إليه الجماعة ولا شك أنه يجمع بين الوعظ وتنظيم شؤون أهل الإستقامة وكان جريئا في الأنضباط مع هذا المجلس إلى أن حذره بعض أصحابه خشية تفطن ولاة بني أمية بهذا العمل السري، ولا شك أن هذه في مرحلة متأخرة حيث كان الأستعداد للظهور جليا ببلاد اليمن، وما كانت لتغيب عن أبي الحر أخبار الجماعة لذلك أجاب هؤلاء المتحرزين: «أما سمعت أن الله يقول ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [١٥ الحجر ٩]»[١٦] وفي هذه الإجابة إشعار بأمرين يتمثلان في حسن التوكل على الله تعالى وفي أقتراب لحظة الظهور.

وفي الوقت الذي أتفق فيه مع أبي حمزة للقاء بعرفة ألقت عليه السلطة الأموية القبض بأمر من الخليفة مروان بن محمد وقيدته بجامعة من حديد، (وهي وسيلة من وسائل الأعتقال تمنع الأسير من الفرار) وسيق إلى الشام لكن أنى للشراة أن يغفلوا عن صاحبهم. فخرج عيسى بن أبى عمرو في أربعة عشر رجلا من المسلمين (أهل الإستقامة) فخلصوه منهم من بعد ما جاوزا المدينة بمراحل»[١٧] .

١٥) الشماخي - سير ١٠١ . ١٦) ن . م - ١٠٨ . ١٧) ن . م - ١٠٠ .

ولا يفوتنا أن نورد هنا شيئا من رسالة أبي الحر إلى الإمام عبد الله بن يحيى حال ما تم له النصر باليمن يلح عليه فيها بألا يغتر بالنصر وأن يلتزم مسلك السلف في الثبات على البر والتقوى حتى تستمر الدعوة في جنى ثمارها والتوسع في أطراف البلاد وفي مقدمتها مكة والمدينة حيث يتم الأستعداد حثيثا لأستقبال أبى حمزة ومن معه. «فالله الله يا أخي أن تعمى بعد النصر وتضل بعد الهدى، وبعد معرفة الإسلام وبعد إخلاص طاعة الله بالتقوى، فإن أولي الألباب والنهى لم يكونوا أهل لهو ولا لعب... وكان البلاء أحب إليهم من الرخاء للذي يرجون من الأجر في البلاء، ويخافون الأثم في الرخاء ولم يكونوا بطالين العشيات والضحى، ولكنهم كانوا يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه...»[18]

وهكذا ندرك أن جهود أبي الحر ومن معه آتت ثمارها، ذلك أننا نعلم إنه أجتمع لأبي حمزة عندما أراد الخروج إلى الشام أربعمائة[19] من نواحي مكة وهذا عدد لعمري ليس بقليل. إن كان هذا عمل أبي الحر فإن أبا حمزة لم يكن يتخلف عن موسم الحج وتتفق المصادر على أن رحلته هذه لم تكن مجرد أداء الفريضة وإنما كانت رحلة دعائية صريحة قد جاء في تاريخ الطبري «كان أول أمر أبي حمزة أنه كان يوافي كل سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد والي خلاف آل مروان...»[20] وقد كانت له سابقة من قبل زمن هشام إذ يقول لأهل المدينة «يا أهل المدينة مررت بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثماركم»[21].

إن أبا حمزة لم يكن في زياراته غافلا عن الأوضاع، بل يتقصى عثرات الدولة الأموية ويحصيها واحدة واحدة حتى يستفيد منها عند الحاجة، ويذكر هنا (أن الخليفة) عوض أن يخفف عن الرعية زادها بلاء على بلاء ومع ذلك قبلت الأمر شاكرة.

وإن وقع أبو الحر في الأسر فإن أبا حمزة قد جلد أربعين سوطا لجرأته وصراحته في قول الحق وتعريف الناس بمرارة الواقع الذي يعيشونه وأنه ليس من الإسلام في شيء وها هو يطوف في إحدى قرى مكة تسمى بمعدن سليم فيلقى مواعظة البليغة التي تفضح ظلم الحكام، وما كان من عاملها كثير بن عبد الله عندما سمع بعض كلامه إلا أن أمر به فجلد أربعين سوطا وفي رواية الطبري سبعون»[22].

---

١٨) إسماعيل الجيطالي - القناطر ١/٢١٣ - ٢١٤.

١٩) الشماخي - سير ١٠٠.

٢٠) الطبري - تاريخ ٤/٣٠٢.

٢١) ن. م - ٤/٣٢٩.

وما كان الرجل لين العريكة ليثنيه الجلد عن مواصلة الجهد بل لم يزده ذلك إلا ثباتا وهو على يقين أن النصر قريب، ومعلوم أن من خصال الشاري إذا خرج في سبيل الله فأما النصر وأما الأستشهاد إذ لا تفكير في الرجوع (بالنسبة إلى مسلك الشراة). ولا شك أنه كان على علم بسيرة الولاة الذين تداولوا على الحجاز الى أن جاء الوقت المناسب زمن عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان الذي ولي هذه الخطة سنة ١٢٩/٧٤٦، وفعلا ثبتت فراسته أبى حمزة إذ لم يكن منه إلا أن يستسلم في مكة وأن ينهزم في المدينة.

وما أن تمت البيعة في اليمن وتكامل النصر في صنعاء حتى تم التنسيق بين أبى حمزة وأبي الحر ليتم اللقاء على جبل عرفات سنة ١٢٩/٧٤٦ ورغم وقوع أبى الحر في الأسر فأنه أستطاع أن يتخلص بفضل جرأة أصحابه وحسن تدبيره، وفعلا لم تتم الجماعة إحرامها إلا بعد أن ترآءى لهم أبو حمزة ومن معه في جناح من أجنحة جبل عرفات.

وقبل أن نتحول مع أبي حمزة إلى ميدان الجهاد جنديا وقائدا يحسن أن نرفع عن شخصياته التباسا أهو شار أم خارجي؟

٥) شـــار لا خارجـــي :-

إن جل المصادر إذا ذكرت أبا حمزة تعتبره خارجيا، وقليل منها تذكر أنه شار أو أباضي فلم هذا التردد يا ترى؟ كلنا يعلم أن كلمة الخروج حملت عديدا من المعاني، فهي إما خروج في سبيل الله، وإما خروج على الإمام علي، وإما خروج عن الدين، وقد غلب على الكلمة المعنيان الأخيران في كتب التاريخ وكتب الملل.

أما عن الخروج عن الإمام علي فالقضية فيها نظر، ولا يمكن بأية حال أن نسم بالخارجية الذين أنحازوا إلى حروراء ثم النهروان لأنهم لم يعينوا إماما لأنفسهم إلا بعد أن عزل أبو موسى الأشعري الإمام عليا ودعي هذا الإمام إلى التوبة عن خطيئة التحكيم فلم يقبل، لذلك لا يمكن بحال أن نعتبر هؤلاء خوارج وإنما هي محكمة أو أهل حروراء أو أهل النهروان أو جماعة المؤمنين كما يختارون لأنفسهم.

وحالما تربع الأمويون على كرسي الحكم ظلوا يشنون على هؤلاء حروبا نفسية متلاحقة لأنهم أقاموا الثورات المتتالية تعبيرا عن سخطهم على جبروت الأمويين فأشاعوا في الناس أنهم خوارج على السلطة الشرعية. ومما زاد الطين بلة أن بعضا من المنتمين إلى المحكمة أنحرفوا

عن طريق الصواب فكانوا خوارج لا بالمفهوم السياسي وإنما خوارج عن الدين لأنهم عملوا بمبدأ الأستعراض المتمثل في قتل كل مخالف مهما كان نوعه، وغيره من المبادىء التي تخرج عن الملة.

ولكن هل كان سلف أبى حمزة من هذا القبيل؟ كلا وقد علمت من قبل أن الإمام عبد الله بن أباض قدوة أبي حمزة قعد عن هؤلاء وبقي ومن أنضم إليه وفيا لمبادىء المحكمة الأولى.

وبهذا نعلم أن أبا حمزة ليس خارجيا لا بالمفهوم السياسي ولا بمفهوم الخروج عن الدين وكثيرا ما يندهش القارىء بعد أن يتحول من العنوان الخارجي إلى النص بالنسبة إلى خطب أبي حمزة فيجد إسلاما نقيا في أعلى درجات الصفاء ولكن مهما يكن من أمر فإن صاحب الخطب أهل بأن يحارب ويقتل، وكذا الشأن بالنسبة إلى الذين أستمعوا إلى خطبه ومنهجه السليم عندما صادفتهم الفرصة ولم يمض على الخطبة وقت طويل، وليفهم القارىء أن حركة أبى حمزة ليست حركة خارجية جبارة وإنما هي حركة تصحيحية سليمة تريد أن تعرف الناس أن الإسلام لا يعترف بالسلطة الأستبدادية كما لا يقبل أي نوع من أنواع الظلم.

وإن لم يكن أبو حمزة خارجيا كما ذكرنا فهو أباضي وشار، أباضي لانتمائه إلى مذهب أهل الإستقامة الذي نسب بعد ردح من الزمن إلى أحد أئمته الأول وهو الإمام عبد الله بن أباض الـذي كان كثيرا ما يخلط الناس بينه وبين عبد الله بن يحي طالب الحق تبعا لما وقع فيه الشهـرستـاني من خطأ، وكـلام هذا الرجل وأمثاله مقدس عند عديد من الباحثين ينقل بحذافيره دون أن يمحص أو يناقش. وشار ذلك لأن الشراء مسلك من مسالك الدين عند الأباضية أو بعبارة العصر منهج من مناهج السياسة ولكل من هذه المسالك حقيقته وأحكامه.

ففي مسلك الظهور يطبق الأباضية كل أحكام الشريعة ويبايعون من توفرت فيه شروط الإمامة بقطع النظر عن جنسه وقبيلته، ويجعلون الأمر شورى يرجع في النهاية إلى مجلس الحل والعقد، وذلك مثل إمامة طالب الحق باليمن.

أما مسلك الدفاع فيبايع فيه الإمام عند الشعور بالخطر الداهم على المحيط الأباضي وتنتهي مهمته بإنتهاء القتال. وأما مسلك الكتمان فقد عرفنا صورة عنه مع الأمامين جابر بن زيد وأبي عبيدة في البصرة حيث يقع الإستعداد للظهور بطرق حكيمة يغلب عليها طابع السرية.

بقى الشراء، وهو الذي يعرف به أبو حمزة، وقد كان رمزا لهذا المسلك أبو بلال مرداس بن حدير، وقد رأينا كيف أنه خرج معبرا عن سخطه على الحكم، لا ينوي أن يقاتل أحدا ولا يروعه إلا من أعترض سبيله وفعلا ألتزم بهذا المبدأ الى أن داهمه جيش الأمويين وقتله وأصحابه غدرا. فالشراء في الأصل يستند إلى قوله تعالى ﴿**ومن الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضاة الله**﴾ [٢ البقرة ٢٠٧] وإلى قوله تعالى ﴿**إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [٩ التوبة ١١١]، وهو صفقة رابحة بين المؤمنين وبين الله تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد. ويشترط الأباضية أن يكتمل عدد الشراة أربعين فأكثر ليبايعوا إماما، وإذا تمت البيعة فلا رجوع إلى الإقامة بل يظلمون هكذا يجوبون البلاد معبرين عن سخطهم على الباطل.

وأبو حمزة ظل منذ أن أكتمل علمه متنقلا بين أطراف البلاد مناديا إلى الثورة على بني مروان إلى أن تم له الشراء التام في خوض المعارك في الحرمين الشريفين عسى أن ينتصر الحق ويزول الباطل. والشاري يجمع بين خصلتين الشجاعة النادرة والفصاحة ليتمكن من تبليغ ما يدعو إليه من حق، ثم ليقيم الحجة على الخصم، ثم لا يبدأ بالقتال فإن بدأ الطرف المقابل يحل القتال.

وبهذا نعلم أن أبا حمزة أباضي شار وليس خارجيا مارقا ضالا مبتدعا.

١) القلقشندي (١٤١٨/٨٢١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ ـ ١٤٠٥/١٩٨٤ ـ ٩٣ .

٢) سلمة بن مسلم العوتبي ـ الأنساب ـ ط. جريدة عمان للصحافة والنشر نشر وزارة التراث العماني ـ عمان ١٤٠٤/١٩٨٤ ـ ٢/٤٣ـ٤٥ .

٣) ن . م ـ ٢/٤٤ .

٤) ن . م ـ ٢/٢١٢ .

٥) ن . م ـ ٢/٢١٤ ـ ٢١٥ .

٦) إبن مداد ـ السيرة ـ ٦ .

٧) عادل الحديد ـ المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان ـ نشر وزارة الداخلية ـ مسقط ١٤٠٢/١٩٨٢ ـ١٠٥ ـ١٠١ .

٨) ياقوت ـ معجم البلدان ٣/٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

٩) الدرجيني ـ طبقات .

١٠) الشماخي ـ سير ٩٩ .

١١) الديوان المعروض على علماء الأباضية خ البارونية ـ ٥٨٧ .

١٢) الدرجيني ـ طبقات ٢/٢٥٩ ـ ٢٠٦ .

١٣) ن . م ـ ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

١٤) ن . م ـ ٢/٢٦٢ .

١٥) الشماخي ـ سير ١٠١ .

١٦) ن . م ـ ١٠٨ .

١٧) ن . م ـ ١٠٠ .

١٨) إسماعيل الجيطالي ـ القناطر ١/٢١٣ ـ ٢١٤ .

١٩) الشماخي ـ سير ١٠٠ .

٢٠) الطبري ـ تاريخ ٤/٣٠٢ .

٢١) ن . م ـ ٤/٣٢٩ .

الفصل الثاني
المجاهد أبو حمزة الشاري

١) عند عبد الله بن يحي طالب الحق وإعلان إمامة الظهور:-

لقد علمنا من قبل أن أبا حكمة عينته جماعة البصرة للتطلع على أحوال البلاد وللدعوة إلى المذهب بفضل ما أوتي من فصاحة، ثم ما أن جاء طالب المدد من اليمن حتى أنتدب أبو حمزة مع جمع من نخبة أهل الحركة للمشاركة في أعلان إمامة الظهور في اليمن.

* التوجه نحو اليمن :-

إنهم ثلاثة عشر من صناديد أهل الدعوة يكفيك أن بلج بن عقبة قدره الإمام بألف شخص ينطلقون من مدينة البصرة إلى حضرموت في غفلة من أهلها الغرقين في الترف ومن الأمويين المنشغلين بصد ما أندلع في أطراف البلاد من ثورات.

كيف كان مسلكهم في الطريق وهل سلكوا مسلك العلن أو التخفي؟

هذا ما لا تسعفنا به المصادر البتة ولا نريد ان نرخي العنان للخيال لمواكبة هذه الكوكبة الإيمانية التي تدفعها الآمال دفعا نحو حضرموت حيث سيرفعون راية الحق خفاقة، وكان أبو حمزة م بينهم يقطع هذه الرحلة المباركة، ولكنها رحلة ليست كبقية ما عرف من الرحلات، إنه كان يكتفي بالخطابة والدعوة والتبليغ، لكنه في هذه المرة سيحول مع أصحابه ما كان شبيها بالخيال إلى واقع، نعم سيقيمون رغم الداء والأعداء إمامة الحق مع طالب الحق. برامجها واضحة ومعالمه كتاب الله وسنة الرسول عليه السلام ومسلك السلف الصالح، ففي الحرب عدل وإنصاف وأحترام للحقوق والواجبات، وفي السلم نشر لمعاني الأخوة والمحبة والفضل والإحسان الأمر الذي كان العالم في شوق اليه من زمان.

وما هي إلا أيام قلائل مرت بسرعة البرق رغم بعد الديار وصعوبة الطريق - ولا صعب على هؤلاء لأنهم رهبان الليل وفرسان النهار، وقدوتهم في عروة بن أدية الذي لم
ولماذا نسابق الأمر في الوصف وستسعف المصادر في ما سيأتي بعد حين عندما ينطلق قائدا لتخليص الحرمين، ولتصحيح المسار الإيماني فيهما.

٢) الثورة على الباطل واجب مقدس :ـ

يقول الله تعالى ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما**﴾ [٤ النساء ٩٥] . آمنت هذه الفئة المؤمنة التي أستقر بها القرار بأرض اليمن أن المجاهدين أفضل من المتخاذلين فجلسوا يتشاورون في ما أتفقوا عليه في مركز الدعوة بالبصرة أيحطون الرحال ببلاد اليمن السعيد؟ أم يواصلون الجهاد في أطراف البلاد؟ مختارين أعلى درجات الإيمان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الرسول عليه السلام بين أن «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»

نعم إن الله فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة إنها الدرجات عند الله، وإنها المغفرة وأنها الرحمة فلا سبيل إذن إلى التفريط في كل هذا والإستكانة الى الإستراحة بأرض اليمن بعد تحقيق الأمل وهل تحقق الأمل؟. كلا إنه تحقق جزء منه فحسب، ألم يكن همهم دفع الظلم عن كل مظلوم في أطراف البلاد؟ فليواصلوا المسيرة يحدوهم الأمل في الإهتداء إلى سبل الله، ألم يقل الله تعالى ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾ [٢٩ العنكبوت ٦٩]، وتدفعهم الرغبة في رجاء الرحمة من الله والإتقاء الى درجة الفلاح ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم**﴾ [٢ البقرة ٢١٨]، ﴿**يا أيها الذين آمنوا أتقوا الله وأبتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**﴾ [٥ المائدة ٣٥].

نعم إنهم أدركوا أن الجهاد واجب مقدس والفرصة مناسبة خاصة وأن الدولة الأموية العاتية تلفظ أنفاسها الأخيرة إذ نخر الظلم عظمها من الداخل والخارج وإن لم يتحقق الأمل في الدنيا فما عند الله خير وأعظم أجرا. إنها الشهادة التي تقفز بصاحبها مباشرة إلى جنة النعيم، وإذا كان لا يفصلهم عن فراديس الجنان إلا ضربة من مروان بن محمد أو من أحد اعوانه، فلتكن هذه الضربة وعلى الدنيا بمن فيها وما فيها السلام إذ ليست إلا مطية للجنة ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [٣ آل عمران ١٧٠].

هكـذا آمنوا جميعا وأبو حمزة من بينهم يتقد حماسا ويلقى البيان بعد البيان إما الإمامة العظمى وأما الشهادة ولا سبيل إلى إختيار ثالث، نعم إنها الإمامة العظمى التي سيثبتون فيهـا للمسلمـين أنهم ليسوا خوارج، وليسوا فئة ضالة، وانما هم مسلمون بحق لم يعرف الأرجاء إليهم سبيلا، فلا قيمة لإيمان بدون عمل، وما معنى لا تضر مع الإيمان معصية؟ أكان الإيمان سبيلا الى الطاعة أم إلى العصيان، نعم إنها تضر مع الإيمان معصية إذا ختم لصاحبها بعصيانه، وتدفع بصاحبها إلى جهنم خالدين فيها أبدا، كما لم يعرف الجبر الى عقيدتهم منفـذا، أيجـرد المسلم من المسؤولية؟ فما قيمـة الثـواب والعقاب وبالتالي الرسل والمعجزات؟ كلا إن الإنسان مسؤول أمام الله بكل ما كسبت يداه والمسؤولية تحتم، والمرحلة الأولى من النصر قد تحققت، أن تتواصل حركة الجهاد لتحقيق الأمل، وليس أملهم مهديا منتظرا، وإنما هو واقع معاش، وإجهاز على الباطل حتى يندحر لتمتلىء الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا وقد أثبتوا ذلك عن جدارة حيث أحسنوا السيرة في اليمن بشهادة المناصر والمخالف.

ولم يخطر ببـال واحد منهم غير هذا لأن حركتهم لم تكن حركة إقليمية ضيقة ترمي إلى السيطرة على بلاد اليمن، وإنما أختاروا اليمن لتكون منطلقا للمسيرة الكبرى لما تهيأ لهم فيها من الأسباب المادية والمعنوية.

كما أن هذه الحركة لم تكن قبلية ضيقة، وكيف تكون هكذا؟ وهم يعلمون أن الله يقول ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾ [٤٩ الحجرات ١٣]، وإن الرسول عليه السلام يقول «دعوها فإنها منتنه»، بل هي حركة مدمرة لكل العصبيات وعلى رأسها العصبية الأموية ثم المروانية التي أتخذت عباد الله عبيدا وسامتهم سوء العذاب، وقتلت كل من تحدثه نفسه بأن يقول لا (للخليفة) أو لأحد ولاته وقد علمنا من ذلك الكثير في ما مضى من الكتاب.

هكذا قالوا بصوت واحد إما تحقيق الإمامة العظمى التي توحد العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه، وهم يتصورون أن كل من يسمع عن حركتهم وما أقامته من خير في اليمن لن يكون إلا أحد أنصارها لأن كل الأقاليم ذاقت من ويلات الأمويين الشيء الكثير وما تزال أموالها تغتصب صباح مساء، وأما الشهادة في سبيل الله.

ويصدر أمر القيادة مع كل هذه التعبئة النفسية بما يلي :-

★ **البيـــان الإيمـــاني الأول :**

* إسناد القيادة العليا للجيش لأبي حمزة المختار بن عوف.
* المساعدان - بلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح.
* تكوين الجيش من المتطوعين عدده ألف ومائة.
* التوجه نحو مكة المكرمة عن طريق الطائف.
* إعلان الثورة يوم التاسع من ذي الحجة ١٢٩/٤٤٦ على جبل عرفات بمرأى ومسمع الحجاج الوافدين من أطراف العالم الإسلامي.
* إنضمام أهل الدعوة العاملين بمكة المكرمة بقيادة أبى الحر.

★ **البيـــان الايمـــاني الثـــاني :-**

* الإقامة بمكة عند صدور الناس.
* إحترام قواعد الشريعة إذا فرض الطرف الآخر القتال.
* توجيه بلج بن عقبة إلى بلاد الشام.

وهكذا أنطلق هؤلاء الألف أو يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا يقطعون صحارى الجزيرة من صنعاء إلى مكة المكرمة يقودهم أبو حمزة وهو يلهب حماسهم بما آتاه الله من فصاحة لا يعرف التعب إليهم سبيلا، نعم إنه الجهاد لتطهير مكة - وقد عرف أبو حمزة مكة - مما أنتشر فيها من لهو وعبث، ألم يصر موسم الحج نفسه على ما في مكة من قداسة موعدا للعشاق والمغنين؟ وكل الناس يعرف ما لمكة من قداسة في قلوب المؤمنين، أليست هي التي تضم أول بيت وضع للناس ليعبد الله فيها بحق؟ أليست هي التي أختارها الله تعالى لينزل فيها خاتمة الرسالات على خاتم المرسلين؟ أليست ؟ أليست؟

نعم إن الثورة على الباطل واجب مقدس وخاصة إذا كان الهدف دفع هذا الباطل عن بيت الله الحرام.

٣) أبو حمزة في مكة المكرمة :-

★ الحجاز ولاية مروانية :

ما يزال الأمويون يقطعون أطراف البلاد لعصبيتهم أو للمناصرين لهذه العصبية وفعلا ففي سنة ١٢٩ عين الخليفة مروان بن محمد أحد بني عمه واليا على كل الحجاز وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان بدلا من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فواصل فيها سياسة سالفيه في عزل أهل الحجاز عن كل ما له صلة بالسياسة ، ولا فائدة في الدخول في التفاصيل هنا وقد عرفنا الكثير منها من قبل.

وفي هذه السنة تم تعيين هذا الوالي للإشراف على موسم الحج نيابة عن (أمير المؤمنين) فأحرم الرجل ومن معه وصعد إلى جبل عرفات آمنا مطمئنا، وما كان يخطر بباله أن يحدث ما حدث، وقد فوجىء وهو هنالك بثورة عارمة تهز كيانه وكيان ولايته، ماذا عساه أن يفعل؟ أيضرب هؤلاء الضربة القاضية ويريح نفسه وسادته من هذا التمرد؟ إنه لو كان قادرا لفعل ما دام الحجاج أستحل من قبلة الكعبة الشريفة وصب عليها وابلا من الحجارة بالمنجنيق؟ إنه العجز التام فلا سبيل إلا لأمر واحد إن قبل الطرف المقابل ألا وهو الهدنة حتى يتم موسم الحج، وفعلا إنطلقت المفاوضات بين الطرفين، وقبل أن ننظر فيها ماذا عن أبى حمزة ومن معه؟

★ أبو حمزة على جبل عرفات :

ما تزال هذه الفئة القليلة تطوي الأرض طيا لتدرك الموسم في الوقت المطلوب، وأنهم على موعد مع أصحابهم الأربعمائة بمكة وبالضبط على جبل عرفات، ولا تتصور شوق كل من الجماعتين للأخرى، وكادت الأقدار أن تنقص عنصر القيادة من أباضية مكة، وقد علمنا أن مروان أمر بأسر أبى الحر علي بن الحصين وحمله إلى الشام وفعلا أسر في تلكم الأيام بالذات لكنه الشراء الذي تبنته الجماعة ما كان يمكن ليسكت، نعم إنهم أربعة عشر تابعوا الحامية الحاملة لأبي الحر وخلصوه منها لينعم بمعايشة الأحداث التي طالما أنتظرها وخطط لها مع مركز القيادة ومع أبى حمزة نفسه وإمام الجميع عبد الله بن يحيى.

ويمر جيش أبى حمزة بالطائف دون أن يعترض أهلها سبيله، وأنى لاهل الطائف أن يقفوا أمام هذا الجيش الذي مر بسرعة البرق ليحقق الغرض من مسيرته لا بالطائف ولم يكن يبتغيها، وإنما كان همه في مركز الولاية لا في أطرافها، وفي بيت الله الحرام أولا ثم بعد ذلك فلتأت بقية البلدان بما فيها الطائف مبايعة للأمامة العظمى.

وفي صبيحة التاسع من محرم الحرام سنة ١٢٩/٤٤٦ يصل أبو حمزة الى المكان المنشود الذي طالما دعا فيه رب العالمين ليكتب النصر لدعوتهم دعوة أهل الإستقامة الصالحين، ولكنه لم يصل في هذه المرة منفردا أو مع عدد قليل من أصحابه الحجاج وانما وصل يقود جيش الايمان، الجيش الذي آلى على نفسه تصحيح مسار العالم الاسلامي، وافلحت خطة السرعة والمفاجأة «لم يعلم الناس بعرفة إلا وقد طلعت أعلام عمائم سود خرمية في رؤوس الرماح وهم سبعمائة»[٢] حسب رواية الأغاني.

إنها سبعمائة أو ألف عمامة تغطي وجه الشمس على مرأى ومسمع من الناس وعلى رأسهم عبد الواحد بن سليمان والي مكة والمسؤول الأول على الموسم من قبل (أمير المؤمنين).

وبسرعة البرق ينطلق نحو هؤلاء أربعمائة من الحاضرين إنهم أصحاب أبى الحر علي بن الحصين الذي فك أسره قبل حين ثم رجعوا - أبو الحر ومخلصوه - حتى دخلوا مكة مستخفين فخرجو إلى منى وإلى عرفات وكانوا ينتظرون قدوم أبى حمزة فعند الرواح فاجأهم أبو حمزة في نواصي الخيل قد طلعت فلما رآهم أبو الحر قال: إحرموا فاغتسلنا وأحرمنا ودخلنا في عسكر أبى حمزة»[٣].

هكذا تم اللقاء وأتضحت نجاعة التخطيط السري المحكم فيما تظن أن تفعل هذه الفئة المؤمنة بحجاج بيت الله الحرام مع واليهم؟ العسف والقصف أم بث روح الرحمة والمودة.

نعم لقد فزع الناس وحقيقٌ بهم أن يفزعوا، وقبل أن ينتظروا موقف الوالي دارت المحاورة التالية «وقالوا لهم: ما لكم؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرؤ منهم»[٤] فأطمئن الناس وأدركوا أنهم ليسوا الغرض المطلوب، وإنما هم هؤلاء الوافدين تقويض الدولة الحاكمة وعلى واليها أن يتحرك.

---

١) الاغاني ٢٣/١٢١.

٢) ن. م ٢٣/ ١١٧.

٣) الشماخي - سير ١٠٠.

٤) الاغاني - سير ٢٣/١١٧.

★ المفاوضات بين أبى حمزة وعبد الواحد والي بني مروان :-

* الجولة الأولى بعرفة

راسلهم عبد الواحد بن سليمان، وهو يومئذ على المدينة ومكة والموسم ودعاهم إلى الهدنة، فقالوا نحن بحجنا أضن، وعليه أشح، فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير»[٥]

ذلك شأن الأباضية في كل مواقفهم لا يقاتلون إلا من يقاتلهم لأنهم لم ينطلقوا لسفك الدماء، وكان في إمكانهم أن ينقضوا على عبد الواحد فيأسرونه على الأقل إن لم يقتلوه ولكن لم يكن همهم في ذلك وإنما كما صرحوا قبل حين يتمثل غرضهم في الإعلان ببطلان خلافة بني أمية لأنها خلافة جائرة، لذلك فهي جديرة بأن تخالف وذلك لبعدها عن مسلك الإسلام الحق. لهذا حالما راسلهم الوالي لم يكن منهم إلا أن قبلوا الهدنة وهم في موقف قوة - وذلك هو الحلم - حتى ينفر الحجيج وتنتهي أيام التشريق وكانت الوقفة بعرفة فريدة في نوعها في هذا العام إذ ضم الجبل جناحان متقابلان - جناح الدولة وعلى رأسه عبد الواحد وهو يتصور أنه صاحب القوة والسلطان - و«الخلافة الشرعية» - وجناح أبى حمزة نيابة عن الإمام عبد الله بن يحيى طالب الحق يثبت للناس أن بني مروان مغتصبون، وأنهم عن الصواب حائدون.

وكم كان حريا بهؤلاء الذين حضروا هذه الوقفة أن ينقلوا لنا خطبة أبى حمزة بعرفة وما أخالها إلا كمثيلاتها أنطلقت مدوية مشحونة بلاغة إيمانية وفصاحة صادقة لتزيد الأنصار ثباتا على ثبات على منهج أهل الإستقامة الذي يقول لا حكم إلا لله. ويفيض كل الطرفين من عرفات إلى منى ويبيت أبو حمزة مع أصحابه في مزدلفة يفترشون الأرض ويلتحفون السماء - وقد تعودوا على ذلك - ليلة عيد الاضحى مقتدين بسنة الرسول عليه السلام، ويلتقطون الحصيات لرمي الجمرات وهم يسوقون الهدى شكرا لرب العالمين.

ويقف الجمع بالمشعر الحرام مهللا ومكبرا راجيا من الله أن ينصر الحق وأن يعلي رايته خفاقة، إنطلاقا من بيت الله الحرام، ووصولا إلى أطراف العالم الإسلامي، وإلى الربوع التي لم يصلها الإسلام بعد ولم لا؟ ويستقر القرار بالجمعين بعد أن أدوا مناسك يوم النحر من رمي لجمرة العقبة، ومن تبليغ الهدى محله، ومن حلق أو تقصير ومن طواف إفاضة ومن تحلل أصغر ثم أكبر.

---

٥) الاغاني - ٢٣/١١٧ .

* الجولة الثانية بمنى :-

«نزل أبو حمزة بقرين الثعالب بمنى . . . ونزل عبد الواحد منزل السلطان»[٦] لم يكن الأمر عاديا لدى الوالي وكثير من أتباعه وهم أهل القدرة والسلطان، كيف يسمحون لأنفسهم أن يقف أبو حمزة معهم جنبا إلى جنب وهو يعلن الثورة جهارا على مملكتهم؟ وما قيمة الألتزام بالهدنة، ألم يهادن من قبلهم فغدر وغلب، لم لا يغدرون ويغلبون ويمسحون العار؟ كيف يؤتون في عقر دارهم ويقهرون مثل هذا القهر ويقبلون مثل هذه الهدنة؟ هكذا ظل بعض المغفلين يحرشون عبد الواحد «إنك قد أخطأت فيهم ولو حملت عليهم ما كانوا إلا أكلة رأس»[٧]

ولم يكتف هؤلاء بالقول بل حاولوا تكسير الهدنة بالفعل لولا رصانة أبى حمزة ودهاء عبد الواحد «وكانت هلبية إذ ذاك حضرت الموسم وكانت من خيار المسلمات وفاضلاتهن وهي أم سعيدة، فعالجت لهم (للجيش) طعاما فحمله أبو واقد إليهم وأبنه وكانا فاضلين فأخذهما الحرس، فأرسل أبو حمزة إليهم إن النقض وقع من قبلكم، إما أوفوا بعهدكم وإما نناقضكم فأرسلهما (أبو واقد وابنه) وتم العهد».[٨]

أرأيت كيف أسر الحرس؟ بريئين؟ إنهم أرادوا بذلك تحقيق غرة الدعاة إلى الشغب والذين لم يرضوا بموقف الهوان، لكن الوالي مدرك للواقع فما كان منه إلا أن أمر بسرعة بتسريح الأسيرين، ولم يكن من أبى حمزة إلا أن لم يرد بالفعل من أول لحظة. ولم يكن أصحاب أبى حمزة في هذه المرة غفلة وهم يعلمون شيمة الغدر في الأمويين وأنصارهم، وقد أفقد هذا الغدر إمامهم أبا بلال وأصحابه وهم بين راكع وساجد، لذلك كان القائد، بلج بن عقبة يأتي لرمي الجمار في الخيل والسلاح، فقال أبو حمزة رحمك الله لو رميته متنكرا، فقال له: لا آمن غدرهم ونقض عهدهم[٩]

وفي هذا المحيط الذي يغلي فيه الطرفان غليانا يجعله على وشك الأنفجار بين لحظة وأخرى أرسل عبد الواحد مرة أخرى وفدا من أحفاد الخلفاء الراشدين «فوجدوه جالسا وعليه إزار قطري (قطن غليظ) قد ربط الحورة في قفاه فلما دنوا منه قالوا له: بعثنا الأمير إليك برسالة، وهذا ربيعة يخبركها، فلما ذكر ربيعة نقض العهود قال بلج وأبرهة - وكانا قائدين له - الساعة الساعة، فأقبل عليهما أبو حمزة: معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس به، والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن تنقضى هذه الهدنة بيننا وبينكم فلما أبى عليهم خرجوا فأبلغوا عبد الواحد»[١٠].

---

٦) ن . م - ٢٣/١١٧ .
٧) ن . م - ٢٣/١١٧ .
٨) الشماخي - سير ١٠٠ .
٩) ن . م - ١٠٠ .
١٠) الاغاني ٢٣/١١٧ - ١١٨ .

وفي هذه الرسالة الشفوية وقعت الإشارة إلى نقض العهود وكأن الوفد بين تخوفه من أن ينقض أبو حمزة وجماعته عهد الهدنة، وهنا ثارت حمية القائدين ليبينا للوفد الأموي أنهم لا ينقضون العهد غدرا، وإنما تعودوا أن يسلكوا مسلك الإعلان، وألا يقدموا على عدو إلا بعد التخيير، ولا ينطلقون في المعركة إلا إذا بدأهم الطرف الآخر كما سنرى بعد حين في معركة قديد. ويؤكد القائد صراحة على هذا المعنى ويبين أنه إن تقطع رقبته أولى من أن ينقض عهدا، لأنه يعلم أن ناقض العهد مرتكب كبيرة وإن ختم له بذلك كان مآله الخلود في جهنم، بينما من تقطع رقبته دون المحافظة على العهد يموت شهيدا وإلى جنة النعيم خالدا فيها.

وتنتهي هذه الجولة الثانية من المفاوضات بأن يرجع الوفد إلى عبد الواحد الذي «نفر في النفر الأول، وخلى مكة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال»[11].

★ أبو حمزة في المسجد الحرام في مكة المكرمة :-

لم يكن أبو حمزة يتصور أنه سيحقق هذا الظفر بمثل هذا اليسر إذ أنهزم عبد الواحد بالرعب ولم يكن منه إلا أن طلب الأمان ليترك في سبيل حاله. ولم يكن من القائد أبو حمزة ليخرج عن سنة إمامه لقد خلى الوالي لحاله وياليته رد الاحسان بالاحسان وانما راح يعد العدد والعدة لينتقم لهذا الذي أصابه من الخسران.

وما إن غادر الوالي ومن معه الساحة وأنتهت أيام التشريق حتى أقبل أبو حمزة وسط الألف وخمسمائة من أنصاره ليدخلوا مكة من أبوابها الواسعة وهم سادة الموقف بها وقد أسلمت لهم القيادة دون أن تسيل قطرة دم، ورغبتهم ألا تكون هذه المدينة المباركة خاضعة لدمشق - وليس العكس - وما ذلك ببعيد، وما ذلك على الله بعزيز، ولتعد المياه إلى مجاريها كما كانت زمن الرسول عليه السلام، وزمن الخلافة الراشدة، الحجاز بحرمية هو قطب الرحى ومركز دائرتها.

وفي جنبات البلد الحرام يتدفق هؤلاء على أبواب بيت الله الحرام طائفين خاضعين راكعين ساجدين مكبرين ومهللين، نعم إنهم لم يروعوا أحدا وإنما كانت أعينهم تفيض من الدمع وقلوبهم خاشعة لرب العالمين. وأطل أهل مكة من الشرف ومن بعيد في بداية المطاف خشية أن يصابوا بسوء، ولما رأوا الأمر على عكس ما كانوا يتصورون خرجوا مندهشين أمام هذا السلوك الذي لم يرى التاريخ له مثيلا إلا عند دخول الرسول عليه السلام عند فتح مكة -

---

١١) الاغاني ٢٣/١١٨ .

ولله ولرسوله المثل الأعلى ـ وتجمعوا شيئا فشيئا في جنبات المسجد الحرام وعند أبوابه وفي محيطه يتشوفون إلى تطور الأحداث لحظة بلحظة وما كانت القيادة الحكيمة لتطيل على الناس الأنتظار وما هي إلا لحظات حتى صعد أبو حمزة المنبر ودوت جنبات الحرم المقدس بنبرات صوت رجل ألقت له البلاغة عنانها، وجائته طائعة منساقة يخطب في الناس مبينا عوامل الثورة وسلوك الثائرين في «أنه الظلم الذي دفع إلى السعى إلى إقامة العدل»، هذا هو محور هذا البيان الأول لأبي حمزة قائد هذه الثورة المباركة التي مكنته من هذا المنبر الذي لم تعرف البشرية ولن تعرف خيرا منه لأنه نور الله وأي نور مهما كان يستطيع أن يعادل نور رب العالمين «نور السموات والأرض».

وينهي أبو حمزة خطبته بالبكاء على شهداء الحركة الأباضية في اليمن والترحم عليهم. وليعذرنا القارىء في هذا التلخيص المختصر لهذا البيان لأننا عازمون إن شاء الله على تجميع خطب أبى حمزة وتحليلها تحليلا تفصيليا مع إبراز قيمتها الحضارية والإطالة هنا توقعنا في تكرار نحن في غنى عنه.

ويشيع أبو حمزة الأمان في جنبات بلاد الله الحرام ولكن أنى لأهل مكة أن يقبلوا الخضوع لفئة ما يزالون في قرارة أنفسهم يعتبرونها خارجية مغتصبة وإن سمعوا من قائدها ما سمعوه من البيان الذي ليس بعده بيان.

وإنما ظلوا ينتظرون ويتربصون وأنتشر الخبر في أطراف البلاد وأنشدت الأشعار معرضة بعبد الواحد سليل بني مروان والي الحجاز.

زار الحجيج عصابة قد خالفوا ... دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والإمارة هاربا ... ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصل عرقه ... لصفت خلائقه بعرق الوالد[١٢]

ومن هذه الأبيات ندرك جحود الجاحدين، فالشاعر رغم ما بلغه من سماحة أبي حمزة ومن الحاحه وأصحابه في أنهم لا يريدون بالناس إلا خيرا، يعتبر أبا حمزة ومن معه عصابة وياليتها عصابة متمردة على الحاكم فحسب وإنما هي عصابة خارجة خالفت دين الإله، وذلك أثر الحرب النفسية والدعاية الإعلامية الأموية التي غرست في الناس بكل وسيلة أن خلافتهم شرعية وأن المخالف لها مخالف للإسلام يجب أن يباد في أول وهلة.

---

١٢) ن. م - ١١٨/٢٣.

* أبـو حمـــزة في الطـــائف :ـ

علمنا أن أبا حمزة مر بالطائف في طريقه إلى مكة دون أن يعترض سبيله أحد وكان مثل هذا الدور أن يجعله يعتبر أنها صارت تابعة الإمامة لذلك حالما استقر به الأمر في مكة المكرمة وجه مجموعة من أتباعه لنشر لواء السلام بهذه المدينة التي خرجت للناس أكبر العباقرة في القصف والعسف وأستقبلت الرسول عليه السلام في رحلته الأولى إليها أسوء إستقبال.

إن هؤلاء في هذه المرة سلكوا مسلكا غريبا فترك الرجال الديار وقدموا النساء لأستقبال الشراة، إنها لشجاعة نادرة، وماذا يفعل جنود أبى حمزة بالنساء؟ إنهم في حاجة إلى صناديد الرجال وبذلك لم يكن إلا أن أعطوا الأمان للنسوة فرجع الرجال إليها في الحفظ والأمان. وإذا كان والي الحجاز بعدده وعدته قد لاذ بالفرار فأنى للطائف أن تقاوم فالأستسلام عار ولكنه أولى من الهـزيمـة، لأن الأستسلام معه الحياة بينما الهزيمة معها الموت إن لم يكن للكل فللقليل، ولماذا الخطر وقديما قالوا الجلوس على الربوة أسلم، وفعلا وقف رجال الطائف على الربوة فتقدم نساؤهم لنيل الأمانات، وكان ما سعين اليه، وجاءت الطائف هي الأخرى مستسلمة في الظاهر ولكن الباطن غير ذلك.

وتأمل في القرشيين المتجمعين في المدينة لمقاومة أبي حمزة كيف يعيرون أهل الطائف أسوأ أنـواع التعيير، ويعتـبرونهم خونة عجزة. فقال قائلهم: لو شاء أهل الطائف لكفونا هذه المقاومة ولكنهم داهنوا، أما والله لئن ظفرنا لنسبين أهل الطائف من يشتري مني سبي أهل الطائف»[١٣]. ورغم علم أبى حمزة وجماعته بما نال الأباضية من ظلم الحجاج وبني عشيرته الثقفيين ما كانـوا ليثـأروا في بني ثقيف عنـدمـا ظفروا بهم وكيف يحملون الأحفاد تبعات الأجداد، وهم على يقين أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

وإلى هذا الحد ينتهي تطبيق البيان الأباضي الأول الذي صدر من القيادة العليا باليمن بإمامة طالب الحق عبد الله بن يحيى وبقيت بنود البيان الثاني.

٤) *أبـو حمـــزة في المدينـــة المنورة :ـ*

يقول البيان الثاني بتوجيه بلج بن عقبة إلى الشام.

لما تم إستسلام مكة وفرار الوالي وخضوع الطائف أحب أبو حمزة أن يتم الأمر سلما في الحرمين الشريفين دون أن تراق الدماء ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

١٣) مهدي طالب هاشم ـ الحركة الاباضية نقلا عن البلاذري وخليفة بن خياط.

وكما أستغل إبراهيم بن جبلة عامل حضرموت تسامح الأباضية وأنضم إلى والي صنعاء إستعدادا للنزال إستغل عبد الواحد الوالي المنسحب من مكة الموقف في المدينة وأتخذ أجراءين خطيرين من شأنهما أن يؤلبا المدينة كلها لتخرج صفا واحد لمقاتلة هذا الخارجي المخالف للدين على حد تعبير الشاعر آنف الذكر.

● **الإجـــراء الأول : إغرائـــي مالـــي :-**

قال «ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة، فدعا بالديوان وضرب على الناس البعث، وزادهم في العطاء عشرة عشرة.»[١٤]

نعم إنه المال يعمي ويصم وما جمعه الأمويون في خزائنهم من الحلال والحرام لا يصلح إلا لأشتراء الضمائر، وقد رأينا أن معاوية أراد أن يشتري ضمير أبن عمر ليبايع يزيد فكان من الرافضين ولم يبايع إلا على حد السيف.

ويا فوز أهل المدينة بهذه الزيادة غير المنتظرة، ألا يستحق الوالي النصرة على الخوارج البغاة - نعم إنه ممثل دمشق مركز الخلافة (الشرعية)-، ونسوا أن هذه (الخلافة) حرمتهم من حقهم السياسي وحولت العاصمة من مدينتهم إلى دمشق قصبة بلاد الشام. لكن مهما يكن من أمر يلتقون مع هؤلاء في النسب والفكر، بينهم هؤلاء الوافدون أبو حمزة واتباعه، لا يعترفون لقريش بالخلافة ويدعون إلى المساواة ونبذ الفن وكل ما له صلة بالفن من عبث ومجون.

لذلك لبى أهل المدينة نداء الوالي من أول لحظة باعتقاد راسخ أن جيش أبي حمزة لقمة سائغة دفعت قائلها بأن ينادي «من يشتري مني سبي أهل الطائف» باعتبار أن ذلك من تحصيل الحاصل ومما لا يمكن أن يدخلهم فيه أدنى ريب.

● **الإجـــراء الثـاني : ســـيـاســي ماكـــر :-**

«. . . . إن عبد الواحد أستعمل عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان على الناس فخرجوا. .»[١٥].

كنا ننتظر أن يخرج الوالي بنفسه ليمسح العار الذي أصابه في مكة وعذره أنه فوجيء، لكن لا عذر له الآن وهو على غاية الأستعداد، لكن خشى صعوبة اللقاء كما فعل القاسم الثقفي في صنعاء، فإن أنتصر القائد كان النصر للجميع، وإن غلب لهم الذي أخطاء ويلوذ الوالي بالفرار.

١٤) الاغاني ٢٣/١١٩ .

١٥) الاغاني ٢٣/١١٩ .

ثم بعد أن تهيأ جيش قوامه ثمانية آلاف أمرهم عبد الواحد بالتوجه الى مكة لأسترجاعها لأنه لا يرغب في أن يكون القتال بمرأى ومسمع منه ويريد أن تكون بيد جيشه المبادرة للهجوم وهو يعلم أن جيش أبي حمزة لا يتجازو الالف وخمسمائة فالنصر ثابت لا محالة وليعد الأمر الى نصابه.

● أستعـداد أبى حمـزة :-

نعلم أن الخطة كانت تدعو إلى التوجه إلى الشام بقيادة بلج بن عقبة دون التعريج على المدينة وهذا ما ذكره بلج بن عبقة بصفة صريحة عندما أرسله أبو حمزة ليذكر أهل المدينة وقال لهم «خلوا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم»[١٦].

لكن عبد الواحد أبى إلا أن يمسح العار وحالما بلغ الخبر أبا حمزة سارع بالخروج من مكة حتى لا يغدروا به فنضموا إلى أهل المدينة، وأستخلف عليه قائده أبرهة بن شرحبيل بن الصباح الحميري، وسار لملاقاة الجيش القادم بقيادة أحد أحفاد عثمان بن عفان.

وتقدم أبو حمزة بجيشه نحو المدينة وقدم على طائفة منه بلج بن عقبة الأزدي وعلى الطائفة الأخرى أبا بكر محمد بن عبد الله بن عمر القرشي. وعاد هذا الخميس إلى مسيرة بما فيه من قوادم وخلائف تتقصى الأخبار وهو يود أن يخلى أهل المدينة سبيله حتى يولى وجهه شطر بلاد الشام إلى أن بلغ قديد وهناك على مقربة من المدينة تلاقي الجمعان وكان ما كان.

* مـعـركة قـديـد :-

قديد موقع بين المدينة ومكة أدركه الجيش الأموي ليلا، وأستحوذ على حياض الماء حتى يمنع منه الطرف المقابل، وباتت هذه الألوف المؤلفة في نغم وسهر لأنهم «خرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهو ولا يظنون أن الشراة شوكة، ولا يشكون أنهم في أيديهم»[١٧]، وقد علمنا من قبل سخريتهم من أهل الطائف، إنهم قادرون على العزف والقصف، إنها ليلة ليست كالليالي إذ بعد حين يقع أبو حمزة ومن معه في أيديهم، أنهم هم أصل العرب وهامة المجد، فكيف بناس جاءوا من قبائل شتى ضرب الفقر جيوبهم يقدرون على المنعمين من قريش ومن معها؟ إن هذا لن يكون، تلك هي أحلامهم وتصوراتهم بل إن أبا حمزة حالما يرى قوتهم الضاربة ليس له إلا أن يولى هاربا وأصحابه غرور وصلف ومرح وحبور.

١٦) ن . م - ٢٣/١٢٣ .

١٧) ن . م - ٢٣/١٢١ .

بينما قضى أصحاب أبى حمزة ليلتهم في مسيرة خاشعة يحيط بجنباتها الحلال لا تراهم إذا تفرقوا قليلا إلا بين راكع وساجد خاشعين لرب العالمين راجين من فضله النصر المبين، يتقدمهم قائدهم وهو قدوتهم ورائدهم يمتثلون لأوامره لأنهم لم يروا منه مذ خرجوا معه من اليمن إلا الراعي الأمين، ينزل منازلهم ويأكل ما يأكلون، ويتحمل ما يتحملونه يركب حينا ويمشي أحيانا عينه ساهرة لا تكاد تنام، ترعى من جعل الله تحت مسؤوليته من أنام، لبسوا جميعا الخشن وأفترشوا على جوب الصحارى حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، إنهم كما وصفهم قائدهم في إحدى خطبه «موصول كلالهم بكلالهم».

أدرك من هذه شيمتهم قديداً بعد شهر من وصولهم إلى عرفة، وفي هذه المرة لم يكن أهل المكان في غفلة، وإنما كانوا يترصدون ويتنمرون، وبهواجس النصر يغنون، فلم يكن من أبى حمزة إلا أن أرسل إليهم من يفهمهم أنهم لم يكونوا إليهم سائرين، وإنما غيرهم يبتغون. وما أن أنبلج صبح ليلة الوصول إلى قديد حتى وقف أبو حمزة خطيبا يلهب أصحابه حماسا ويذكرهم بتقوى الله «إنكم ملاقوا قومكم غدا، وأميرهم في ما بلغني أبن عثمان أول من خالف سيرة الخلفاء وبدل سنة رسول الله ﷺ، وقد وضح الصبح لذي عينين فأكثروا ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، ووطنوا أنفسكم على الصبر»[18].

وندرك من هذا البيان أن عيون أبى حمزة غير غافلة عن تبليغ أخبار المدينة خبرا بعد خبر، وها هو يعلم أن القائد الأموي أموي بحق بل هو حفيد عثمان بن عفان، وأدرك ما وراء هذا الأختيار من خطر، لذلك نبه أصحابه ليرد المثل بالمثل والقضية حساسة آنذاك، وإنا صرنا نقول الآن تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فليطهر منها السنتنا، وإنما هو التاريخ يجب أن يروى بأمانة. ثم يبين لجنوده أن خير الزاد التقوى، وما أحسن أن يكون زاد المجاهد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، أو ليس هؤلاء قراء أبناء القراء؟ ثم كلمة الختام تؤكد أن المطلوب مع ذلك كله عدم الغرور بالنفس وتوطينها على الصبر لأن القتال قتال، والنفس تكره الموت وإن كانت ترغب في الشهادة.

*** بلج بن عقبة عند أهل المدينة :-**

وحالما تراءى الجمعان لم يكن أبو حمزة ليغفل عن مسلك سلفه في ساحات القتال وكان في إمكانه أن ينقض على لابسى الوشي والخز وهو بهم عليم، إذ علمنا أنه كان يتردد على المدينة من زمان، فأرسل قائده المخلص بلج بن عقبة في ثلاثين من خيرة أصحابه «فذكرهم الله

---

١٨) ن . م - ٢٣/١٢٣ .

تعالى، وسألهم أن يكفوا عنهم وقال لهم: خلوا لنا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم»[١٩].

إنها كلمات موزونة بميزان الإسلام، يتقدم بها بلج في مثل هذا الموقف المثير والمعركة وشيكة، جديرة بأن تكتب بماء الذهب لأنها دلت على رصانة ورجاحة عقل لا على تهور وغرور، منطلقها تذكيرهم بعظمة الله، فلا فائدة في إراقة الدماء، ثم محورها تعبير صريح عن الغرض من الحملة وتمثل في السعي إلى دفع الظلم عن أهل المدينة بالذات، ونحن نعلم أنهم شكوا للخليفة هشام بمرأى ومسمع من أبي حمزة ما أصابهم من بلاء فزادهم بلاء على بلاء، ثم تصريح واضح في الختام أن جيش الشراة لا يرغب في قتال أهل المدينة ويلح عليهم بألا يحولوا بينهم وبين هدفهم.

ولكن أنى لهؤلاء أن يدركوا مثل هذه المعاني وعلى رأسهم من يحمل ظغينة دفينة لكل شار معتبر أياه خارجا عن الملة، وإن لم يكن قبول الأقتراح فرد الحسنى بمثلها مع التعبير عن الرغبة في المواجهة.

وتأمل الجواب: «فشتمهم أهل المدينة وقالوا يا أعداء الله أنحن نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض»[٢٠].

نعم يبقى الشراة أعداء الله في نظر مثل هؤلاء وإن ملأوا الدنيا خيرا كما شهد الناس في ما بعد بحسن سيرة عبد الله بن يحيى في أهل اليمن، ولا يمكن أن يصدر من هؤلاء حسب أهل المدينة إلا نشر العبارة وحق له أن يرد بالمثل: يا أعداء الله، أنحن نفسد في الأرض، إنا خرجنا لنكف أهل الفساد، ونقاتل من قاتلنا وأستأثر بالفيء، فأنظروا لأنفسكم وأخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله وأدخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق»[٢١] وهكذا حدد بلج سبب الشراء لأنه ظلم بني أمية، وبين أساسه وهو ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ثم دعاهم بصفة صريحة إلى خلع بيع مروان بن محمد لأنه رمز عصيان الله، والأقبال على معاونة الحق.

وعندما لم يستطع عبد العزيز القائد الأموي رد الحجة بالحجة رجع إلى الماضي ينبشه وغرضه من ذلك الإثارة وقد أفلح في أختيار القائد الذي يحقق الغرض المطلوب، وكان جواب بلج أنه في القضية مقلد تابع. وهنا يعلنها عبد العزيز مدوية «أرجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينهم إلا السيف»[٢٢] وما كان يتصور أن الدائرة ستدور عليه وعلى من معه.

---

١٩) ن . م - ١٢٣/٢٣ .

٢٠) ن . م - ١٢٣/٢٣ .

٢١) ن . م - ١٢٤/٢٣ .

٢٢) ن . م - ١٢٤/٢٣ .

وهنا لم يكن من بلج إلا ان يرجع بأصحابه إلى أبى حمزة ليعلمه بما أسفرت عنه المحادثات من فشل، وما رآه في عبد العزيز واصحابه من صلف واستعلاء. ورغم الأستفزاز وتصريح القائد الأموي أنه لم يبق إلا السيف لم يخالف أبو حمزة مسلك الأباضية الشراة «لا نقاتل إلا من قاتلنا» وقال لأصحابه «كفوا عنهم ولا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم بالقتال»[٢٣]، ولم يكن من أصحابه إلا أن أمتثلوا لأمر القيادة رغم رغبتهم الشديدة في الهجوم.

وبهذا الألتزام بالمبدأ حتى في أعسر الأحوال ضرب الشراة أروع مثال إسلامي، وأثبتوا للناس أنهم ليسوا بغاة يريدون في الارض الفساد وإنما هم من الفساد فروا، وعلى البغي ثاروا.

وهكذا نلاحظ حرص أبى حمزة وأصحابه على تطهير أيديهم من دماء أهل المدينة، لكن أبى هؤلاء إلا المواجهة فكان ما ليس منه بد، ولم يكن هؤلاء ليصبروا طويلا لأنهم عازمون على الحرب وهم على يقين من النصر فليبدأوا المعركة وليستعجلوا هذا النصر المؤكد حتى يريحوا البلاد من هذه الشرذمة من العباد الذين عاثوا في الأرض فسادا على حد زعمهم.

وينطلق السهم الأول من جيش أهل المدينة مدويا نحو صفوف جيش أبى حمزة ويأليته أخطأ المرمى ولكنه أصاب أحد الشراة فجرحه وهنا جاء أمر القيادة للأبطال الشراة «شأنكم الأن فقد حل قتالهم»[٢٤].

وفي أقل من طرفة عين تحولت قديد من محيط هادىء طالما طالب فيها أبو حمزة بابقاء السلام إلى ساحة من ساحات القتال الشرسة التي يتحول القتل فيها حلالا بعد أن كان حراما، وكل فئة تتصور أنها على حق وتعتقد أن الأخرى باغية.

وللقارىء أن يميز بنفسه بعدما عايش من مواقف وسمع من نصوص ينقلها أبو الفرج وغيره وهم ليسوا من الأباضية من كان على حق ومن هو على باطل، وما أظنه يتردد في الأدلاء بشهادة الحق لأهل الحق: إنهم بلا شك الشراة. ولا أرى فائدة كبيرة في وصف المعركة إذ تتفق المصادر على أن المقاتلين ثبتوا لبعضهم البعض في البداية، ثم ما كان من الفئة الكثيرة إلا أن تندحر أمام الفئة القليلة بعد أن حاولت الكر ثلاثاً على التوالي وفي كل مرة تتراجع إلى أن ولت القهقري في المرة الثالثة وتحول الكر إلى فرار متواصل، وما هي إلا لحظات حتى بدأ النصر جليا «وقاتلهم أبو حمزة فهزمهم هزيمة لم تبق منهم باقية»[٢٥].

وقبل أن تنتهي المعركة أستأذن أبو الحر علي بن الحصين أبا حمزة ـ وهو بغدر هؤلاء الناس خبير ـ بأن يتبع المدبر ويجهز على الجرحى لأنه على يقين أنهم لن يسكتوا على هذه الهزيمة

---

٢٣) ن . م ـ ٢٣/١٢٣ .

٢٤) ن . م ـ ٢٣/١٢٤ .

٢٥) .

وأنهم بعد قليل بأهل الشام مستنصرون. ولكن ما كان لأبى حمزة أن يخالف سيرة السلف لأن مبدأهم إن دم مثل هؤلاء الفرار حرام بعد أن كان حلالا عندما كانوا في حالة الهجوم.

ولم يفكر واحد من الشراة طبعا في السبى والغنيمة لأنهم يعتقدون أن ذلك حرام وهذا العمل يصدق النظرية والقول، ويجعل معارك الأباضية في القمة من حيث الأنضباط بأحكام الشريعة في قتال المخالفين من المسلمين.

ولكن في هذه المرة أبى أبو الحر علي بن الحصين إلا قتل بعض الأسرى من قريش بعد أن أراد أبو حمزة إطلاقهم ولا شك أنه أقتنع برأي رأس الدعوة في مكة الذي قال في محاجته «إن لأهل كل زمان سيرة، وإن هؤلاء لم يؤسروا وهم هراب، وإنما أسروا وهم يقاتلون، ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرم قتلهم، وكذلك الآن قتلهم حلال»[٢٦].

ومن هذا الموقف أراد أبو حمزة مع أبى الحر أن يحملا القرشيين مسؤولية الحرب لأنهما لم يقتلا واحدا من أسرى الأنصار الذين يبدو أنهم كانوا تبعا للقرشيين في المعركة.

بقى أن نقيم حقيقة هذه المعركة قبل أن ندخل المدينة مع أبى حمزة وأصحابه هؤلاء الذين دخلوا دخول الظافرين، تبين أننا أمام صنفين من الناس، صنف قتله دار الغرور جاء لينتصر للباطل وهو يرفل في نعيم وبذخ ما كان يتصور أن لهذه القليلة شوكة، لكن فوجىء بشباب مكتهلين في شبابهم، حتى أن المصادر تروى عن ذلكم الرجل الذي جلس يبيع سبي أهل الطائف، إنه كان في مقدمة الفارين عندما رأى ما رأى من الزحف المقدس من هؤلاء الشراة الذين باعوا أنفسهم من أجل تبصير القابضين على زمام الحكم في دمشق يأخذون البيعة من الناس في أطراف البلاد أحبوا أم كرهوا ويورثون الزمام لأبنائهم صاغرا عن كابر كأن الأمة عقيمة عن إنتاج صالحين يتولون الأمر.

أتعلمون قصة هذا الفتى الذي لم يعرف إلا التمرغ في النعيم والجلوس إلى الغواني بين العازف والكؤوس؟ إنه كان إمام المنهزمين إن صح أن يكون لمثل هؤلاء إمام، وظل لا يلوي على شيء وهو يتخيل أن الجيش كله يتابعه، حتى أدرك منزله وقلبه يكاد ينفطر من هول ما أصابه من الفزع، وكيف لا يفزع وقد رأى رؤوس خلانه تتطاير وكاد رأسه أن يطير مع هذه الرؤوس، وهناك ظل يردد بما بقى له من صوت مخاطبا جاريته «غاق غاق» فلم تفهم منه شيئا، وظلت تتساءل عن معنى «غاق غاق» لكن أنى لهذا أن يجيب، أنحبس الكلام في حلقة وأناب عنه الإشارة فأومأ بيده نحو الباب ففهمت بالقوة أنه يريد إغلاق الباب فأغلقت الباب.

---

٢٦) ن. م - ٢٣/١٢٥.

تلك هي حال بائع سبي الطائف، ولو أن الأباضية يسلكون مسلك سادته في الحرب لكان من جملة السبايا، ولكن الشراة أسمى من ذلك وأرفع، وإنما سجل على جبينه خزيا ظل يتابعه طول حياته إذ فقد عرف من ذلك اليوم أسمه عند أهل المدينة وصار يعرف «بغاق غاق».

أنظر الى الفزع كيف بلغ حدة، إذ لم يطمئن حتى في بيته إلا بعد إغلاق الباب، وبينه وبين ساحة الحرب أميال لأنه تصور أن الشراة سفاكوا دماء وأنهم سيتبعونه لا محالة حتى في عقر داره، لكن لم يكن هؤلاء من هذه الشاكلة من الناس، وإنما حالما لاحظوا فرار الفرار وبشائر النصر أمر أبو حمزة بإيقاف القتال لأن الهدف من المعركة تحقق.

أما الصنف الثاني فقد أدرك ألا قيمة للعدد والعدة أمام قوة العقيدة، ألم ينطلق من اليمن من أجل غرض سام ألا وهو إحياء الإمامة العظمى بعد أن أندرس رسمها تحت سنابك خيول الأمويين؟ نعم إنه أشفق بأهل المدينة من شفقتهم بأنفسهم لما لهذه المدينة من حرمة وقداسة في قلبه، أليست هي مدينة رسول الله التي أرتفعت منها راية الإسلام؟ وظل يلح في التعبير عن هذا الأشفاق ويناشد هؤلاء الناس بأن يخلوا سبيله إن لم يؤازروه ومن واجبهم أن يفعلوا لأنهم أحفاد الأنصار والمهاجرين، ولكن لا حياة لمن تنادى، ولم يكن من قائلهم ألا إن دعا إلا السيف.

هذا الصنف أقبل على المعركة وكل واحد من أفراده يعتقد أن الفرار من الزحف معناه الخلود في جهنم، فلا يمكن أن يفكر إلا في الكر والهجوم، إنه لإيمان بالقضية، ولهذا كان الواحد منهم بألف وفي مقدمتهم أبو حمزة وبلج وهما ما هما في الثبات في تسديد الضربات، والقدرة على القيادة وذلك لما بينهما وبين من معهما من الأبطال من المودة والإخاء، أليسوا جميعا شراه؟ وها هم يفعلون ما كانوا يعتقدون ويقولون.

وقد كفانا مؤونة وصف هؤلاء البواسل عمرو بن الحصين الأباضي الكوفي مولى بني تميم في القصيدة التي أوردها أبو الفرج في الاغاني ٢٣/١٢٨-١٣٠.

ما بال همك ليس عنك بعازب ... يمرى سوابق دمعك المتساكب
وتبيت تكتلي النجوم بمقلة ... عبري تسر بكل نجم دائب
حذر المنية أن تجيء بداهة ... لم أقض من تبع الشراة مآربي
فأقود فيهم للعدا شنج النسا ... عبل الشوى أشر إن ضمر الحالب
متخددا كالسيف أخلص لونه ... ماء الحسيك مع الحلال اللاتب
أرمي به من جمع قومي معشرا ... بورا جبرية ومعايب
في فتية صبر ألفهم به ... لف القداح يد المفيض الضارب
فيذود عزوهم وفيما بيننا ... كأس المنون تقول هل من شارب؟
فيظل يسقيهم ويشرب من قنا ... سمر ومرهفة النصول قواضب
بينا كذلك نحن جارت طعنة ... نجلاء بين راهب وترائب
خرقاء منهرة مرى تامورها ... ظبتا سنان كالشهاب الثاقب
أهوى لها شق الشمال كأنني ... حفض لقا تحت العجاج العاصب
يا رب أوجبها ولا تتعلقن ... نفسي المنون لدى أكف أقاربي
كم من أولى مقة صحبتهم شروا ... فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب
متأوهين كأن في أجوافهم ... نارا تسعرها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من راكع ... أو ساجد متضرع أو ناحب
يتلوا فوارع تمتري عبراته ... فيجودها مري المري الحالب
سير لحائفة الأمور أطبة ... للصدع ذي النبإ الجليل مدائب
ومبرئين من المعايب أحرزوا ... خصل المكارم أتقياء أطايب
عروا صوارم للجلاد وباشروا ... حد الظباة بأنف وحواجب
ناطوا أمورهم بأمر أخ لهم ... فرمى بهم لقم الطريق اللاحب
متسربلي حلق الحديد كأنهم ... أسد على لحق البطون سلاهب
قيدت من أعلى حضرموت فلم تزل ... تنفي عداها جانبا عن جانب
تحمى اعنتها وتحوى نهبها ... لله أكرم فتية وأشايب
حتى وردن حياض مكة قطنا ... يحكين واردة اليمام القارب
ما أن أتين على أخي حبرية ... إلا تركنهم كأمس الذاهب
في كل معترك لها من هامهم ... فلق وأيد علقت بمناكب
سائل بيوم قديد عن وقعاتهم ... تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وبمثل هذه المقابلة بين هذين الصنفين من الناس لم تستمر المعركة إلا لحظات تطايرت خلال الرؤوس - وقد رغب أهل المدينة في ذلك - وكان في مقدمتها رأس القائد الذي أحب حد السيف، بينما لم يكن من حضرة الوالي حين بلغه الخبر إلا أن ولى وجهه شطر دمشق لائذا بالفرار وقد خطط لذلك من قبل.

وهكذا أحب هؤلاء أن يعم الأسى في المدينة إذ بلغ عدد القتلى سبعمائة على أقل تقدير بينما لم يخسر الشراة إلا القليل وأنطلق النواح - مع العلم ان النياحة ملعون صاحبها - في الارجاء يردد :-

ما للزمان ومالـيه أفنت قديد رجاليه
فلأبكين سريرة ولا بكين علانيه
ولأبكين إذ خلوت مع الكلاب العاويه
ولأئنين على قديد بسوء ما أبلانيه[٢٧]

* أبو حمزة يدخل المدينة :-

لم يدخل هؤلاء الشراة مدينة رسول الله ﷺ بين دقات الطبول وعزف المعازف، وإنما دخلوا مقتدين بسنة من هم في مدينتهم، ومن طالما تردد أبو حمزة على قبره يشكو ما أصاب الأمة من وهن، دخلوا باكين خاضعين متضرعين يسلمون على الرسول عليه السلام، نعم إنهم لم يروعوا أحد وهو في داره وإنما هو القتال من أجل نصرة الحق، القتال الذي فرض عليهم على مشارف المدينة، في قديد فنصرهم الله.

وها هو أبو حمزة القائد المظفر يصعد على منبر رسول الله عليه السلام، هذا المنبر الذي وطئته أقدام الظالمين لنشر البغي والفساد، ليلقى على الناس بيانا لا نجد أبلغ وصف له من كلمات مالك بن انس «خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شك فيها المستبصر ورد بها المرتاب»[٢٨].

ولسنا ندري أين كان الإمام في تلكم الظروف، وما كان موقفه سوى هذه الكلمات التي تدل على أنه لم يكن يتصور أن يستمع إلى مثل ما سمع، وعلى أثر البيان أظهر أهل المدينة الطاعة للإمامة الأباضية وهم لها كارهون، للصلاة خلف قائدها معيدون.

٢٧) ن . م - ٢٣/١٢٦ .

٢٨) ابن عبد ربه احمد بن محمد (٣٢٨-٩٣٩) العقد الفريد تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري - ط٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢ - ٥/٥٤.

٥) خطب أبى حمزة بالحجاز :-

ننطلق بإيراد هذه الخطبة لطولها وشمولها، وإن لم تكن الأولى حيث تاريخ الألقاء في ما يبدو، ومن الصعب جدا ترتيب هذه الخطب لكن لا ضرر في ذلك لأنها ألقيت كلها على مدى أشهر قلائل كما نعلم :-

أخبرنا الهيثم بن عدى الطائي قال: أخبرنا عيسى بن عبد الحميد قال: دخل أبو حمزة المدينة في أصحابه وعليه قميص وكساء صوف مصبوغ، وهو متعمم بعمامة بيضاء، وسيف عريض حمائله ليف، متقلد السيف، وعلى أصحابه مثله، قال عيسى: ولم أر هيئة قط أحسن من هيئتهم ولا وجوها أحسن من وجوههم شباب كلهم.

فلما صعد منبر رسول الله ﷺ وضع جبهته على الموضع الذي كان رسول الله ﷺ يضع قدمية فبكى وأشتد بكاؤه ثم قال: هاء هاء كم قدم عاصى الله عاملة بغير كتاب الله مؤثرة هواها على غير رضى الله ورسلوه قد وضعت موضع قدم رسول الله بأبى وأمي هو، سبحان الله أين كانت كبرياء المسلمين وجلوسهم. قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله بعث محمدا ﷺ بالحق على فترة من الرسل، وأنقطاع من الوحي وأندراس من الحق، وأنزل عليه الكتاب، وشرع له الشرائع وفرض له الفروض، وعلم به من الجهالة، وأنقذ من الضلالة، وبين له ما يأتي وما يتقي، فكان لا يقدم ولا يؤخر إلا عن أمر من الله تعالى، أمره بالجهاد فمضى بما أمر الله به من مجاهدة أعدائه ثم قبضه على منهج أبنائه بعد تبليغه الرسالة، وأنذاره وقيامه بالحجة، وقد علم الناس معالم دينهم ثم قبضه الله ﷺ.

ثم ولى أبو بكر رحمه الله ثاني أثنين فقام وأستقام، وشمر عن ساق، وعدل في الرعية، وأبى أن يقبل في دينه الدنية، فقاتل أهل الردة يوم ارتدت العرب، أو من أرتد منهم فعرضوا أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فأبى أن يقبل منهم إلا ما كان رسول الله ﷺ قابلا منهم، فضرب بالحق أكتاف أهل الباطل حتى قهرهم بالحق وردهم إلى الدين الذين خرجوا منه، وحملهم على شريعة الحق التي كانوا عليها قبل الفرقة، وأعطى كل ذي حق حقه، ولم تأخذه في الله لومة لائم، ولم ترده الدنيا ولم يردها، ثم مضى لسبيله والأمة عنه راضون رحمة الله عليه، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رجل المهاجرين عمر بن الخطاب رحمه الله ليس هو من بطنة الأدنين، ولا هو من رهطه الأقربين فرضيت به الأمة.

ثم ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام بالحق وعمل به، وأستقام لأمر الله ورسوله، وتبع سنة صاحبه، مصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وجبى الأموال، وفرض

أعطيه الناس فلم يضع أسمه إلا بقدر مرتبته، ولم يأخذ من المال إلا بقدر سهمه، وقام في شهر رمضان، وجمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وضرب في الخمر ثمانين سوطا، وخلط الشدة باللين، وألقت إليه الأرض أفلاذ أكبادها، وأدى إلى كل ذي حق حقه، وقتل كسرى وآل كسرى، وأخرج قيصر وآل قيصر من الشام، ثم أوتي بكنوز كسرى وكان أقل الناس فيها حظا آل الخطاب فأرادته الدنيا ولم يردها، فقبضه الله على منهاج صاحبيه فمضى والأمة عنه راضون، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ستة من المهاجرين قبض رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ليس واحد منه من بطنة الأدنين ولا من رهطه الأقربين.

ثم ولي عثمان فعمل بعمل صاحبيه ست سنين مشمرا واصاب منزعا، ثم عمل في الست البواقي ما أحبط الآخر أجر الأول، فقتله المسلمون، ثم أضطرب حبل الدين بعده فطلبها كل أمرىء لنفسه، وأسر كل لأجل منه سريرة أظهرها الله وأبداها منهم حتى مضوا على ذلك.

ثم ولى علي بن أبي طالب أقدمهم إسلاما، وأعظمهم في الإسلام نصيبا وعناء، وكان ولد على الفترة السابقة والهجرة والفضائل ولم يأخذ من المال إلا بقدر عنائه، وأتاه عقيل بن أبي طالب فسأله فلم يعطيه شيئا ولم يزل جادا مجدا غالبا مظفرا حتى حكم الحكمين وترك حكم القرآن فأختلف عليه أمره، وصار أصحابه فرقا وشيعا، وقاتل أهل النهروان، فوالله ما التقت فئتان منذ بعث الله محمدا ﷺ إلا أعطى الله الظفر أحبها إلى الله وأرضاها عنده حتى حكم الحكمين وترك حكم القرآن فما التقت فئتان بعد الحكمين إلا غلب أنكرهما وأعتاهما.

ثم ولى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول الله ﷺ وأبن لعينه، جلف من الأعراب، وبقية من الأحزاب، مؤلف طليق، فسفك الدم الحرام، واتخذ عباد الله خولا، ومال الله دولا، وبغى بدينه عوجا ودغلا، وأحل الفرج الحرام، وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله فعل الله به وفعل.

ثم ولى بعده بن يزيد، يزيد الخمور، ويزيد القصور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود، ويزيد القرود، فخالف القرآن، أتبع الكهان ونادم القرد، وعمل بما يشتهيه حتى مضى على ذلك لعنه الله، وفعل به وفعل.

ثم ولي مروان بن الحكم طريد لعين رسول الله ﷺ وآله وأبن لعينه فاسق في بطنه وفرجه، فألعنوه وألعنوا أباه.

ثم تداولها بنو مروان بعده، أهل بيت اللعنة، طرداء رسول ﷺ وآله، قوم الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان، فأكلوا مال الله أكلا، ولعبوا بدين الله لعبا

وأتخذوا عباد الله عبيدا، ويورث ذلك الأكبر منهم الأصغر، فيالها أمة ما أضيعها وأضعفها فالحمد لله رب العالمين، ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله، قد نبذوه وراء ظهورهم، لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون.

ثم ولي الوليد بن عبد الملك فلم يرفع حقا ولم يضع باطلا، ومشى زهوا، واتخذ الجبرية دينا فالعنوه لعنه الله.

ثم ولي عمر بن عبد العزيز فبلغ ولم يكد، وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا بشر-.

ثم ولي بعده يزيد بن عبد الملك، غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشده، ولم يؤنس رشده، وقد قال الله عز وجل ﴿**فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ [النساء ٦]، فأمر أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم من ذلك كله، وإن كان ذلك عند الله عظيما، مأبون في بطنه وفرجه، يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام، ويلبس بردتين قد حيكتا وقومتا على أهلها بألف دينار وأكثر وأقل، قد أخذت من غير حلها، وتصرفت في غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار، وحلقت فيها الأشعار، واستحل ما لم يحل الله لعبد صالح ولا لنبي مرسل، ثم يجلس حبابة عن يمينه وسلامة عن شماله تغنيانه بمزامير الشيطان، ويشرب الخمر القداح المحرمة نصا بعينها حتى إذا أخذت مأخذها فيه وخالطت روحه ولحمه ودمه وغلبت سورتها على عقله، مزق حلته ثم التفت إليهما فقال: أتأذنان لي أن أطير؟ نعم فطر إلى النار إلى لعنة الله وناره حيث لا يدرك الله.

ثم ولي هشام الأحول فمزق العطاء واستأثر بالفيء، ومررت بكم في زمنه وقد أصابتكم عاهة بثماركم وكتبتم إليه تسألونه أن يضع أخراصكم عندك فكتب إليكم كتابا أسخط الله عليكم وأرضاكم، يضعها عنكم، فزاد الغني غنى، وزاد الفقير فقراً، فقلتم جزاه الله خيرا، فلا جزاكم الله خيراً ولا جزاه الله خيراً، فالعنوه لعنه الله.

ثم ولي الفاسق الوليد بن يزيد فشرب الخمر ظاهرا، وأظهر الفاحشة عمداً، فعوتب عليه يزيد بن الوليد فقتله، كذلك قال الله تعالى ﴿**وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون**﴾ [٦ الأنعام ١٢٩].

ثم ولي مروان بن محمد فادعى الخلافة فنحت الأصول وسمل الأعين وقطع الأيدي فيا عجبا ورضاكم ببني أمية وبني الطريد وبنى اللعين فالعنوه لعنه الله.

ثم ذكر بني أمية وأعمالهم وسيرتهم فقال: أصابوا إمرأة ضائعة وقوماً طغاماً وجهالاً، لا

يقومون لله بحق، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم فملكوا الأمر وتسلطوا عليه تسلط ربوبية، بطشهم، بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة ويقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فألعنوهم لعنهم الله، إلى أن قال:

بلغني مقالتكم في أصحابي، وما عبتموه من حداثة أسنانهم، ويحكم، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ وآله المذكورون في الخير إلا أحداثاً شباباً، شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا وكلما مر بآية من ذكر النار شهق خوفا كأن زفير جهنم بين أذنيه، فقد أكلت الأرض جباههم وركبهم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثر الصيام، وأنضاء عبادة، موفون بعهد الله، منتجزون لوعد الله، قد شروا انفسهم لله حتى إذا ألتقت الكتيبتان وأبرقت سيوفها، وفوقت سهامها، وأشرعت رماحها، لقوا شبا الأسنة وشائك السهام، وظباة السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشاب منهم قدماً حتى أختلفت رجلاه على عنق فرسه وأختضبت محاسن وجهه بالدماء، عفر جبينه بالثرى، وأنحطت عليه الطير من السماء، وتمزقته سباع الارض، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف اليل من خوف الله، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد من حديد.

ثم بكى وقال: آه آه على فراق الأخوان، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل الله أرواحهم الجنان.

وجـاء في الأغاني ٢٣ / ١٣٠ ايضا ما يلي:

ثم دخل أبو حمزة المدينة سنة ثلاثين ومائة، ومضى عبد الواحد بن سليمان إلى الشام، فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا أهل المدينة سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فأسأتم لعمر الله فيهم القول، وسألناكم هل يقتلون بالظن؟ فقلتم نعم وسألناكم هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم فنناشد الله أن يتنحوا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم فقلتم لا تفعلون، فقلنا لكم تعالوا نحن وأنتم

---

* **ملحوظة**: أعتمدنا لأثبات نص هذه الخطبة على مخطوطة بمكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة بالبلاد التونسية (مجموع بدون رقم) وعلى ما جاء في الأغاني ٢٣ / ٢٣٨-١٣٩ من الأول إلى وأعتاها - المخطوطة، وكذلك ما يتعلق بالخلفاء الذين لم يذكروا في الأغاني.

نلقاهم، فإن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم كتاب الله وسنة نبيه، وإن نظفر نعدل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم فأبيتم وقاتلتمونا دونهم فقاتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم، يا أهل المدينة، مررت بكم في زمان الأحول هشام بن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فركبتم اليه تسألونه ان يضع خراجكم عنكم، فكتب بوضعها عنكم فزاد الغني غنى والفقير فقرا فقلتم جزاك الله خيرا فلا جزاه الله خيرا ولا جزاكم.»

كما اورد ابو الفرج الخطبة التالية ايضا وختمها هي الاخرى بنفس النص في التعريف بأصحابه، الأغاني ٢٤/١٣١-١٣٢.

رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال أتعلموا يا أهل المدينة إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا إشرا ولا بطرا، ولا عبثا ولا لهوا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا ثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وعنف القائل بالحق، وقتل القائم القسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فأقبلنا من قبائل شتى، السفر منا على بعير واحد، عليه زداهم وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحدا، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، وأصبحنا - ولله الحمد - بنعمته إخوانا، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا الى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان، شتان لعمر الله منا بين الغي و الرشد ثم اقبلوا يهرعون ويزفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وغلت دمائهم مراجله وصدق عليه ظنه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب، بكل مهند ذي رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين، يا أهل المدينة إن أولكم خير أول، وآخركم شر آخر، يا أهل المدينة، الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن، أو كافر من أهل الكتاب، أو إماما جائرا، يا أهل المدينة من زعم أن الله تعالى كلف نفسا فوق طاقتها، أو سألها عما لم يؤتها فهو لله عدو ولنا حرب، يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوى - على حبه - للضعيف، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟».

ويورد أبو الفرج أيضا خطبة أخرى لأبي حمزة يصور فيها واقع أهل المدينة وما أصابهم من غفلة عن ذكر الله، قال هارون: قال جدي: وسمعت أبا حمزة يخطب بالمدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل المدينة مالي رأيت رسم الدين فيكم باقيا، وآثاره دارسة؟ لا تقبلون عليه عظة، ولا تفقهون من أهله حجة، قد بليت فيكم جدته، وانطمست عنكم سنته،

ترون معروفة منكرا، والمنكر من غيره معروفا، إذا انكشفت لكم العبر، وأوضحت لكم النذر، عميت عنا أبصاركم، وصمت عنها أسماعكم، ساهين في غمرة، لاهين في غفلة تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحق اذا ذكر، مستوحشة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورا، تحملون منها في صدوركم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة، أو لم تلن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، يا أهل المدينة ما تغني عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم، إن الله قد جعل لكل شيء سببا غالبا يقاد له، ويطيع أمره وجعل القلوب غالبة على الأبدان، فاذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا، وأن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة، ولو إستشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة، ومثوى رسول الله ﷺ، لما نبت به داره، وضاق بن قراره، وآذاه الأعداء وتجهمت له فنقله إليكم بل إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم، متآزرين مع الحق على الباطل، ومختارين للآجل على العاجل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه وآثروا الله على انفسهم ولما كانت بهم خصاصة، وقال الله تعالى لهم ولأمثالهم ولمن إهتدى بهداهم ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنتم أبناؤهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذون بسنتهم، عمي القلوب، صم الآذان، أتبعتم الهوى فارداكم عن الهدى، وأسهاكم، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا، لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم، ما سرتم بسيرتهم، ولا حفظتم وصيتهم، ولا إحتذيتم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم، فعرضت عليه اعمالكم، لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم».

ثم نورد ماجاء في الجزء الرابع من العقد الفريد ـ ٣/ ١٤٥ـ١٤٦ قال مالك بن أنس رحمه الله خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب، قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله، وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيو من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وإن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته، فالطاعة لله وسنة نبيه، والقسم بالسوية، والعدل في الرعية، ووضع الاخماس في مواضعها التي أمر الله بها وإنا والله ما خرجنا إشرا ولا بطرا، ولا لهوا ولا لعبا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها، ولا لثأر قد نيل منا، ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت ومعالم الجور قد ظهرت، وكثر الإدعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنف القائل بالحق، وسمعنا مناديا ينادي إلى الحق وإلى

طريق مستقيم، فأحببنا داعي الله، فأقبلنا من قبائل شتى، قليلين مستضعفين في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخوانا، وعلى الدين أعوانا، يا أهل المدينة، أولكم خير أول وآخركم شر آخر، إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين، وإنتحال الباطلين فأصبحتم عن الحق ناكبين، أمواتا غير أحياء وما تشعرون، يا أهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين إتبعوهم بإحسان، ما أصح أصلكم وأسقم فرعكم، كان أباؤكم أهل اليقين وأهل المعرفة بالدين أصح أصلكم وأسقم فرعكم، كان اباؤكم اهل اليقين وأهل المعرفة بالدين والبصائر النافذة، والقلوب الواعية، وانتم اهل الضلالة والجهالة، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم والأماني فأضلتكم، فتح الله لكم باب الدين فأفسدتموه وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه، سراع إلى الفتنة، بطاء عن السنة، عمي عن البرهان، صم عن العرفان، عبيد الطمع، حلفاء الجزع، نعم ما ورثكم آباؤكم لو حفظتموه، وبئس ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به، نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل، كان عدد آبائكم قليلا طيبا، وعددكم كثير خبيث، إتبعتم الهوى فأرداكم، وللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبركم فلا تعتبرون، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدل، أخذوا المال من غير حلة فوضعوه في غير حقه، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله، وأستأثروا بفيئنا فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء، وقلنا لكم تعالوا الى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله فقلتم لا نقوى على ذلك، ووددنا أنا اصبنا من يكفينا، فقلنا نحن نكفيكم، ثم الله راع علينا وعليكم، ان ظفرها لنعطين كل ذي حق حقه، فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا، والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دونهم، فقاتلتمونا، فأبعدكم الله، فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان أعذر، مع أنه لا عذر للجاهل ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحق ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة. ثم قال الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة: حاكما جاء بغير ما أنزل الله، أو متبعا له، أو راضيا بعمله».

كما يحسن أن نورد هذه الخطبة التي تنسبها كتب الأدب لأبي حمزة لما فيها من تعبير عما وهبه الله لأصحابه من هدى لإصلاح العباد.

«أما بعد فإنك في ناشىء فتنة، وقائم ضلالة قد طال جثومها، وإشتدت عليك همومها، وتلوت مصايد عدو الله منها وما نصب من الشرك لأهل الغفلة عما في عواقبها، ويهد عمودها، ولن ينزع أوتادها، إلا الذي بيده ملك الأشياء، وهو الرحمن الرحيم، ألا وإن لا بقايا من عباده، لم يتحيوا في ظلمها، ولم يشايعوا أهلها على شبهها، مصابيح النور في أفواههم تزهو،

وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا منهج السبيل، وقاموا على العلم الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم، بهم يصلح الله البلاد، ويدفع عنا العباد، طوبى لهم وللمستصبحين بنورهم وأسأل الله أن يجعلنا منهم. [العقد الفريد ١٧٤١٤].

نختم باختيار النص الذي أورده صاحب العقد الفريد في الجزء الرابع ١٤٤ للخطبة التي عرف فيها بأصحابه مع الملاحظ أن المصادر إختلفت في مكان إلقائها ولا يهمنا ذلك كثيرا في هذا الكتاب، كما اختلفت أيضا في بعض ألفاظها، وإن جاء المعنى واحدا في كل الروايات ولعل ذلك يرجع إلى أنه إعتمد فيها على السماع إذ نعلم أن الخطبة مرتجلة.

خطبهم أبو حمزة بمكة فصعد المنبر متوكئا على قوس عربية خطب خطبة طويلة ثم قال: «يا أهل مكة تعيروني بأصحابي تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا، نعم الشباب مكتهلين، عمية عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم في آناء الليل منثنية أصلابهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جنهم في أذنية، وقد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، أنضاء عبادة، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم، من كثرة الصيام، وطول القيام، مستقلون لذلك في جنب الله موفون بعهد الله مستنجزون لوعد الله، إذا رأوا سهام العدو قد فوقت، ورماحه قد أشرعت، وسيوفه قد انتضيب، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت، إستهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، فمضى الشاب منهم قدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد رملت محاسن وجهه، بالدماء، وعفر جبينه بالثرى، وأسرع إليه سباع الارض، وانحطت عليه طير السماء، فكم من كف بانت عن معصمها، طالما أعتمد عليها صاحبها في سجوده، وكم من خد عتيق، وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها في الجنان، ثم قال: الناس منا ونحن منهم إلا عابد وثن أو كفرة أهل الكتاب، أو إماما جائرا، أو شادا على عضده».

إن المتأمل في ما أوردته كتب التاريخ والطبقات والأدب من خطب أبي حمزة يتبين أنها تتداخل في بعضها البعض ولا يهمنا في هذا الكتاب إلا أن نحلل هذه الخطب لنبين بعدها الحضاري على أنها مجموعة من الوثائق التاريخية المتكاملة تعبر عن عديد من مواقف الشراة في العقيدة والسياسة وما إلى ذلك.

مع العلم أن هذه الخطب كانت في فترة واحدة لأن إقامة أبي حمزة في الحجاز كانت زهاء ثلاثة أشهر سنة ١٣٠/٤٤٧ كما نلاحظ أن هذا العدد الذي وصل أقل بكثير مما ألقى من خطب ذلك أن خطب الجمعة التي لم يكن أبو حمزة ليغفل عنها لا تقل عن إثنتى عشرة خطبة، عدا المواعظ الأخرى التي دوت في رحاب الحرمين الشريفين طيلة هذه المدة التي أسن فيها أبو حمزة السيرة في هذه الربوع المقدسة.

* أبو حمزة ومنهج المقترح :-

إن هذه الخطب تنم عن وعي سياسي نادر ذلك أن أبا حمزة تتبع سيرة خلفاء بني أمية واحداواحدا متعرضا لما تميز بن حكم هؤلاء من خصائص تثبت للعيان أنهم استووا جميعا في الجور، وإن تعاونوا في قدر هذا الطغيان، كما أن البعض منهم تجازو الآخرين في اللهو العبث باستثناء عمر بن عبد العزيز.

وإن كان أبو حمزة يرفض هذا الخط الذي اتبعه الأمويين فانه يعرض البديل الذي ستسوس بها الإمامة الإباضية البلاد والعباد، ومن خلال عرض هذه المقابلة بين المنهجين تتضح معالم الفكر السياسي عند الإباضية في نواتها الأولى.

● المنهج المرفوض :-

يتوجه أبو حمزة إلى أهل المدينة سائلا إياهم عن الولاة (الخلفاء) فيجيبون والله ما فيهم الذي يعدل . . . . . وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله . . . . وقلنا لكم تعالوا في الى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا في الحكم فحكموابغير ما انزل الله . . . . ».

كما يقول في موطن آخر «أصابوا إمرة ضائعة . . . . فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوية بطشهم بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويعرفهم بأنهم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله. كما يلح على نبذهم لكتاب الله «ثم مضوا على ذلك من أعمالهم وإستخفافهم بكتاب الله تعالى، قد نبذوه وراء ظهورهم . . . . » ولم يكتف الواحد منهم بالظلم بل جعلوا الحكم وراثيا لا يتجاوز إلى غيرهم من المسلمين كأن الأمر حكر على بين أمية ثم بني مروان.

«ولعبوا بدين الله لعبا واتخذوا عباد الله عبيدا ويورث ذلك الأكبر منه الأصغر. . » فأبو حمزة لايرفض حكم بني أمية لهوى في نفس أو رغبة في ملك مماثل أو أسوا وإنما يرفض هذا الحكم لأنه حكم مغتصب من مستحقيه من المهاجرين والأنصار بالمكر والخديعة في البداية - إمرة ضائعة - ثم الحديد والنار في ما بعد وقد ذكرنا من قبل كيف أخذ معاوية البيعة

ليزيد من خيرة الصحابة بسلطان السيف ولم يسلك فيه هؤلاء واحد من مسالك الخلفاء الراشدين في ولاية العهد لغير الوارث وفي مجلس الشورى أو ترك الأمر للمسلمين.

ويا ليت هذا الحكم المغتصب وجه الوجهة الشرعية فأبوا حمزة يلح على أنها (خلافة) لم تحمل من حقيقة الخلافة إلى الإسم لأن الخلافة تستند إلى كتاب الله وسنة رسوله وبذلك تتميز عن السياسة الطبيعية والسياسة العقلية، بينما (خلافة) بني أمية تقوم على الاستخفاف بكتاب الله ما دام احد ممثليها ينتقم من المصحف نفسه لأنه ذكره بخيبة كل جبار عنيد وعلى اللعب بدين الله، وعلى الحكم بغير ما أنزل الله وهم يعلمون أن الله يقول ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ [٥ المائدة ٤٤] ﴿**هم الظالمون**﴾ [٥ المائدة ٤٥] ﴿**هم الفاسقون**﴾ [٥ المائدة ٤٧].

وبما أنهم نبذوا القرآن الكريم وراء ظهورهم فإنهم كانوا يحكمون بالهوى ويبطشون بطش الجبابرة، فلا مقياس إلا مصلحة العرش، وأصحاب العرش، ولا بقاء إلى هؤلاء مهما كان الثمن، وإن أدى ذلك إلى تذبيح الآلاف من النفوس البريئة وصلب كل مخالف، والتلاعب برأسه إن لزم الأمر لتكون مخالفته ردعا لمن لا يريد أن يزدجر.

كما أن أبا حمزة يرفض هذا الحكم لأنه وراثي قيصري، وهذه الوراثة ما أنزل الله بها من سلطان، لأن أمر المسلمين يجب أن يتولاه من توفرت فيه شروط الأمانة مهما كان لونه ومهما كان جنسه ومعيار السياسة الشرعية في التقوى، وقد ألح أبو حمزة على هذا المعنى خاصة في حديثه عن يزيد بن عبد الملك (غلام ضعيف سفيه . . . . . لم يبلغ أشده).

ثم أن أبا حمزة يثبت بالأدلة الملموسة أمام الملأ مظاهر الطغيان والإستخفاف بكتاب الله . . . » رأينا الأرض قد أظلمت، ومعالم الجور قد ظهرت، وكثرة الإدعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنف القائل بالحق . . . . ». ولا ينبغي أن نغفل عن أن هذا الملأ من أنصار بني أمية ولو كانت له حجة في الرد على أبى حمزة ماترك الفرصة تنفلت منه، ولتناقلت الأخبار مثل هذه الردود، ولكن كما رأينا أن هؤلاء أنفسهم يشتكون من قصر الخلافة، ولكن قهر الأمويين على ظلمهم ألطف من حكم أبى حمزة الذي يعتبرونه خارجيا مارقا، فمهما قال من حق لا يمكن أن يقبل.

وتكفي هنا شهادة الإمام مالك التي تناقلتها كتب الأدب وعمي عنها المؤرخون لتبين قوة حجة أبى حمزة لأن خطبته شككت المستبصرين وردت المرتابين، ولا أراني هنا مضطرا بأن أكرر ما ذكرته في المحور الأول مما عرفته الأمة من خنث لجميع أنواع الحريات، فإما أن تكون أمويا وإما فلا، وقد عرفنا عبد الملك بن مروان على رجاحة عقله بالنسبة إلى قرابته، كيف

يدوي بها صريحة إن كل من يتطاول ليقول للخليفة أخطأت لا رادع له إلا السيف، وصدق حجاجه عندما يقول عن أهل العراق «رؤوس قد أينعت فحان قطافها»، نعم إن الرؤوس عند هؤلاء الناس ورود عبقة يتهادونها في ما بينهم بل يتسابقون لقطعها وتبليغها إرضاء لحضرة (الخليفة).

بقي أن القاعدة لذي هؤلاء تتمثل في أنهم يأخذون المسيء بالمحسن والمحسن بالمسيء، وإذا ما ارتابوا في أحد فلا هوادة «يقتلون على الغضب ويأخذون بالظن».

كما أن المقاييس عندهم مقلوبة «يؤمنون الخونة، ويقصون ذوى الأمانة» فلا سلامة في ظلال هذه الخلافة إلا بالبراعة في الخيانة «واجتناب كل ما يمت بصلة للأمانة»، أما عن حدود الله فلا تسل، فهذه حكر على من لا قرابة له ولا علاقة له بالقصر العالي، أما إن كنت من المقربين فافعل ما تشاء «ويعطلون الحدود بالشفاعات» لكنك إذا كنت الخليفة فاصنع ما شئت وفي كل عند الشعراء مفخرة وإن كان شرب الخمر وتعاطي الفحشاء جهارا. وان عطل هؤلاء الحدود الشرعية فإنهم أقاموا مقامها - إن صح التعبير - الحدود البشرية، أتعلمون أن من أجل متعة الخليفة «تضرب الإشار وتحلق الأشعار»، وكذا كان الأمر من أجل بردتي مولانا أمير المؤمنين اليزيد بن عبد الملك، وكيف وهو ابن الأكرمين، فأين أنت يا عمر يا من تقدم الدرة للمظلوم وتقول «إضرب ابن الأكرمين».

ولم يحتج أبو حمزة للحديث عن الولاة والقضاة والعمل لأن هؤلاء نسخة من سادتهم في دمشق لأن الإختيار جزء من كيان المرء ولا يمكن لليزيد إلا أن يختار من أمثال اليزيد والطيور على أشكالها تقع، وإذا كان رب الدار بالطبل ضاربا فلا تلومن الصغار على الرقص. ثم ليزيد أبو حمزة تدليلا على صدق ما يقول لأهل المدينة خاصة والمسلمين عامة حتى يريح عنهم حجاب الغفلة الذي نسجته عوادي الزمن منذ ما يقارب القرن، لكن أنى لأبي حمزة أن يسمع صوته، والناس في طغيانهم يعمهون، وقد ألفوا الظلام وحسبوه نورا، وتعودوا الظلم وصاروا يعتقدون ألا حياة بدون قهر لأن البشر مجبولون على الشر، لكنها كلمة الحق يجب أن تقال، وليكن ما يكون، إنها تتمثل في ما امتازت به الخطبة من تقصي لآثار جميع الخلفاء الذين يركع أمامهم الناس ساجدين، ويقبلون بين أيديهم ملبين ويدعون لهم في كل جمعة متضرعين.

إنهم جمعوا بين الماضي القاتم - لعناء - طرداء - وبين الحاضر والعبق بالجور والفجور، وتكفي بعض العبارات للدلالة على أن أصحابها محدودون لو كان للقرآن سلطان، «وأحل الفرج الحرام»، «يزيد الخمور» «فاسق في بطنه وفرجه» «مأبون في بطنه وفرجه».

فهل يستحق مثل هؤلاء اللعنة أم الخلافة؟، وصدق أبو حمزة عندما لم يغفل عن تحميل الأمة مسؤوليتها، «فيا لها أمة ما أضيعها وأضعفها»، «أصابوا (الأمويون). . . . قوما طغاة جهالا، لا يقومون لا بحق، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم» فحق لمن اتخذ غيره مربوبا أن يتخذ عبدا «واتخذوا عباد الله عبيدا» فلذلك لم يتحرك أحد عندما ضربت الأبشار وحلقت الأشعار بل كلما قام قائم يجيب داعي الرحمن تصدوا له ودافعوا عن مستحلي الأموال، والفروج وشرابي الخمور.

ويجد أبو حمزة مثال في عبودية أهل المدينة ـ ولا ينبغي أن يخلط القارىء فإن كانوا سكان المدينة فإن المدينة بقداستها وروحانياتها وما نزل فيها من وحي منهم براء ـ لبني مروان هؤلاء الذين عرف أبو حمزة بحقيقة أمرهم للتعريف بما وصلت إليه الرعية الأموية من خنوع وإنحراف وبعد عن نصرة الحق ـ الحق ينصر مهما كان مأتاه ـ وإن كان أهل المدينة على هذ الحال رغم معايشتهم لروضة الرسول عليه السلام صباح مساء فحدث عن البقية ولا حرج.

إن هؤلاء كانوا على عكس سلفهم من المهاجرين والأنصار فبقدر ما ضرب صحابة رسول الله ﷺ أروع مثال للبشرية جمعاء عقيدة وقولا وعملا، كان خلفهم على أسوا حال عقيدة وقولا وعملا، إذ غفلوا عن دين الله، وتركوا القرآن الكريم وسنة الرسول عليه السلام وراء ظهورهم، وأعرضوا عنهما تمام الإعراض، فقست القلوب وكانت تبعا للهوى، فخيم عليها الجهل فصارت كالحجارة أو أشد قسوة، فعشق أصحابها الباطل وكرهوا الحق، إلى حد أنهم صاروا يرون المنكر معروفا والمعروف منكرا، وعندما دعاهم أبو حمزة إلى طاعة الرحمن، ودعوة إلى طاعة الشيطان، وإلى إتباع حكم آل مروان، فاتضح أنهم صاروا للظلمة أعوانا، وللشيطان خلانا، وصدق عليهم إبليس ظنه.

ولم يكن أبو حمزة ليرسل القول جزافا، وإنما هي الحقيقة التي خبرها من زمان، وقد عرفنا مما سبق في الكتاب ما فيه الكفاية من شهادات الآخرين لما تردى إليه الوضع في مدينة الرسول عليه السلام خاصة والحجاز كافة، وما ذلك إلا بتدبير السادة من آل مروان، لإبعاد أحفاد الصحابة عن الميدان، عسى أن يدوم السلطان.

ولا نريد أن نمضي في التفصيل، فقد مضى في الكتاب من هذه الأخبار غير قليل، وإنما نكتفي بأن نقول مع أبي حمزة «يا أهل المدينة إن أولكم خير أول وآخركم شر آخر. . .» عمي القلوب صم الآذان، إتبتعم الهوى، فأرداكم عن الهدى وأسهاكم، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا، لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم. . . . . لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم».

ولم يقف أمر هذه الغفلة عند العامة بل نفذ الفقهاء والقراء، وهنا يلتفت أبو حمزة إلى هؤلاء ويحملهم مسؤولية ما عليه الأمة من غي وضلال، ذلك لانهم واكبوا السلطان، واستطابوا عطاءه، وزينوا له أعماله «يا أهل المدينة . . . . إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، فأصبحتم عن الحق ناكبين، وأمواتا غير أحياء وما تشعرون «ولعل أبا حمزة يشير إلى ما شاع في الأوساط آنذاك من ظاهرتي الجبر والإرجاء ومنطلقهما السياسة الأموية الهادفة إلى تمييع الناس وإخضاعهم لسلطانهم.

ومن ذلك أن معاوية نفسه يوهم في خطبة أنه لم يغتصب الحكم وأنه خازن من خزان الله، فيقول مرة «لو لم يرني ربي أهلا لهذا الأمر ما تركني وإياه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره» ويقول مرة اخرى «إنما انا خازن من خزان الله، أعطي من أعطاه وأمنع من منعه»[٢٠] وبما ان معاوية ومن ورثهم الحكم على هذا المستوى، لم يبق عى الأمة إلا الطاعة، وإن هي انحرفت في سلوكها فلا ضرر عليها لانه لا تضر مع الإيمان معصية، وإن أبدى أبو حمزة رفضه لظلم الراعي وخنوع الرعية على الإطلاق شنع بسياسة بني أمية المالية أيما تشنيع، ووزع ذلك في جل مراحل الخطبة، فإن لم ينتبه المستمع مرة فإنه لا يمكن أن يغفل في بقية المرات، «سألناكم: هل يستحلون المال الحرام . . . . ؟ فقلتم: نعم»، «يا أهل المدينة مررت بكم في زمان الأحول هشام بن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم فكتب بوضعها، فزاد الغني غنى والفقر فقرا . . . . . ».

«أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي ـ على حبه ـ للضعيف فجاء التاسع، وليس له منها ولا سهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟»، «معاوية إتخذ مال الله دولا»، «يزيد الخمور، ويزيد القصور. . .» وما يحتاج إليه هذه المتع من أموال، ثم تداولها بنو مروان بعده . . . . فأكلوا مال الله أكلا». «يزيد بن عبد الملك . . . . يشرب الحرام، ويأكل الحرام، ويلبس الحرام، ويلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على أهلها بألف دينار وأكثر وأقل، قد أخذت من غير حلها، وصرفت في غير وجهها، بعد أن ضربت فيها الأبشار، وحلقت فيها الاشعار. . .»

وقد علمنا أنه اشترى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار، «يأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها . . . .»، وأخذوا المال من غير حله فوضعوه في غير حقه . . . . . وأستأثروا بفيئنا فجعلوه دولة بين الأغنياء منه، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء . . .» هذه شهادة أهل المدينة في الولاة وفيمن ولاهم، نأكل

٢٩) القاضي عبد الجبار (٤١٥/١٠٢٥) كتاب فضل الاعتزال ١٤٣-١٤٤ .

ماله (اليتيم) ونفجر بأمه»، هكذا شهد إبن عطية القائد الأموي عندما سألهم الشراة عن مال اليتيم.

تلك هي السياسة المالية للدولة الأموية فإنها لم تكتف بجمع المال من موارد الزكاة التي حددها الله تعالى في القرآن الكريم، ﴿**وانما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾ [٩التوبة ٦٠] بل أضافوا سهما تاسعا، ولا تعجب إذا علمت أن هذا السهم المضاف إبتلع الأسهم الأخرى كلها وتجاوزها، فكان هؤلاء الخلفاء يسلطون جباتهم متعللين بالصدقة ولكن لا ينتظرون دوران الحول ولا يتوقفون عند الحد المفروض.

ثم يتجاوزون ذلك إلى ضرب أنواع الفيء والخراج والضرائب، تؤخذ من الناس أرادوا أو لم يريدوا، كل ذلك لا ليسخر في المصالح العامة، وإنما لينفق على من في القصور بما عرفوا به من بذخ ومعصية وفجور، وإلا كيف يسمح لنفسه من يلقب بأمير المؤمنين بأن يترنح بين المغنين والمغنيات على مرأى ومسمع من الأمة جميعها غنيها وفقيرها، وعاليها وجاهليها.

وكلما قامت ثورة قالوا أنها خروج عن الطاعة وتحولت الأموال إلى الإنفاق على الجيوش والسلاح للحفاظ على هيبة (الخلافة) وهل أبقى الخلفاء لهذه الخلافة هيبة؟ ويتألب أصحاب المصالح المنتفعون فيحصدون الرؤوس حصدا، ويرسلون ما طاب لهم منها إلى قصر الخلافة طمعا في الوجاهة لما تدر على صاحبها من مال.

وبهذا ومثله نفهم أنه حق لأبي حمزة وأصحابه أن يخططوا السنين والطوال ليصلوا إلى التعبير عن رأيهم علانية في عسف الأمويين وظلمهم السياسي والمالي، ورغم أن أهل المدينة بذلك معترفون، فإنهم للامويين موالون، وعنهم مدافعون، ولأبي حمزة وأصحابه محاربون، إنهم بحق كما قال أبو حمزة «يا أهل الضلالة والجهالة سراع إلى الفتنة بطاء عن السنة» ما داموا يقبلون الضيم مع الإعتراف بأنه قهر.

● **المنهج المقترح :-**

إن أبا حمزة على يقين من أن الناس لا يكتفون بالتعبير عن الرفض وإنما يطلبون البديل وهذا يستشف من عديد من التلميحات وان كان كما يقال بضدها تتمايز الأشياء، ولقد حدد أبو حمزة بوضوح أن العامل الأساسي للثورة لم يكن الرغبة في الملك، «إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا إشرا ولا بطرا، وعبثا ولا لهوا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه. . . .».

فموقف أبى حمزة واضح تمام الوضوح، لأنهم لو أرادوا الملك ما سلكوا مثل هذا المسلك، ولتقربوا مثلا إلى بني مروان، ونالوا مثل ما نال غيرهم من اللقم السائغة التي تسعد في الدنيا وتسخط الله في الآخرة.

نعم إنهم باعوا انفسهم في سبيل الله لتصحيح مسار التاريخ، لإرجاع العدل إلى نصابه، وفعلا خيروا أهل المدينة بين عدة إختيارات أبرزها أن يتركوا سبيلهم في مسيرتهم نحو إزهاق الباطل في معدنه، وهنا وعد أبو حمزة بمنهج الحكم المنتظر «يا أهل المدينة، إنا خارجون لحرب مروان، فإن نظهر نعدل في احكامهم، ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم بينكم».

تلك هي سياسة الفئة التي سمعت داعيا يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجابت داعي الله ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض﴾ [٤٦ الاحقاف ٣٢]، عدل في الاحكام، وإتباع للسنة، وقسمة بالعدل، وكيف لا تكون سياستها على هذا النسق وقد كان عامل قيامها ما ذكر تلبية من يدعو إلى حكم القرآن؟. لكن القرآن نص وكل يدعيه، وإن كان أبن عطية صرح بأنهم يضعونه في الجوالق، والوليد فعل معه ما علمت، وما كان أبـو حمزة من هذه الشاكلة، ولقد بين بكل وضوح أن الإمامة المثال لديهم تتمثل في دولة الرسول عليه السلام وفي خلاة العمرين وفي ست من خلافة عثمان وفي خلافة الإمام علي قبل التحكيم.

فهذه الخلافة نعلم أن الخليفة فيها لم يجد امرة ضائعة، وإنما تمت البيعة فيها عن طريق الإختيار بالنسبة لأبي بكر لأن من أختاره الرسول عليه الصلاة السلام أولى بأن يختار للدنيا، وعن طريق ولاية العهد بالنسبة إلى عمر، وعمر ليس من رهط أبى بكر الأقربين، وعن طريق الشورى بين ست لم يكن واحد منهم من قرابة عمر في شيء فالأساس في بيعة الخليفة ان اكرمكم عند الله اتقاكم.

ولم يكن هذا مجرد إدعاء وإنما هو واقع اذ قد تمت بيعة عبد الله إبن يحيى طالب الحق لما من به عليه المولى تعالى من تقوى، إذ لم يكن قرشيا، ولا من آل البيت، وإنما كان مؤمنا لا حنيفا، والناس جميعا يعلمون أن مصدر الشورى لتحديد هذه الإمامة بيد مولى من الموالى وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى عروة بن أدية التميمي.

وليس الإمام في مثل هذه الدولة إلا واحد من الرعية لا يحتجب عنهم كذا فعل الخلفاء الراشدون وكذا كان طالب الحق في اليمن، والكل يشهد أنه أحسن السيرة وكذا يشهدون في قائده أبى حمزة فلم يكن واحد منهما يعرف للحياة في القصور ولا بين القيان طعما، بل كانا

كأبسط واحد من الرعية، يسعدان لأفراحها ويألمان لآلامها، فالحاكمية لله وحده في هذه الأمة، ولا ننسى أن شعار هذه الطائفة من الناس من يومها الأول لا حكم إلا لله، وليست كلمة حق أريد بها باطل كما قيل، وإنما هي كلمة حق أريد بها حق، ولا منارة للحق إلا إذا خضع الحاكم والمحكوم لحكم الله المتجلي في كتابه الكريم وفي سنة نبيه الشريفة.

لا أريد أن أمضي في تفصيل ما جاء في القرآن الكريم من كليات في ضبط علاقة العدل والإنصاب بين طرفي الأمة، بين الراعي والرعية، أي بين الإمام والأمة، لأن هذا مبسوط في كتب الأحكام ولا تخفى على أحد، إلا أن المهم في أن هذه المعاني التي أشار إليها أبو حمزة جاءت قبل أن يعرف الناس التنظير، بل هي عند الأباضية خاصة أصل التنظير. ثم أن هذه السياسة قائمة على أساس أرقى من «أن نظهر نعدل في أحكامكم» وهو أساس «أحسن الى من أساء إليك» وفعلا فقد أساء أهل صنعاء وعلى رأسهم الوالي وعامله على حضرموت لطالب الحق، فما كان منه إلا أن عفا عنهما، ومكنهما من حريتهما المطلقة، ولكن كما يقال أن اللئيم إذا أكرمته تمرد كما سنعلم فيما بعد أن كل هذا كما نرى ليس مجرد قول، وإنما هو العمل إذ لا قيمة للقول والوعود بدون عمل، وما أكثر وعود الذين يتربعون على الكراسي في اليوم الأول، وما تربع أبو حمزة على كرسي، وما كان يرغب، وإنما هو طالب حق مع طالب الحق وهمهما في «أن نظهر نعدل في أحكامكم».

ولم يكن هذا النوع من الإمامة ليتوجه وجهة وراثية، وقد ذكرنا أن أبا حمزة ألح كل الالحاح في تحول الخلافة بين الخلفاء الراشدين على نفي عنصر القرابة والوراثة، وحقيق لمثل من يؤمن بهذا المبدأ أن يثور على حكم توارثه الأمويون قرنا من الزمن، جاثمين على صدور العباد، كأن البطون الأخرى عقمت عن ولادة الأئمة. أما عن العلاقة بين عناصر الأمة فهي الأخوة في الله وفي الله وحده «فأقبلنا من قبائل شتى قليلون مستضعفون في الأرض فآوانا الله وأيدنا بنصره وأصبحنا ـ ولله الحمد ـ بنعمته إخوانا».

يا لها من أمة، أليست صورة طبق الأصل للأمة التي إجتمعت حول الرسول محمد عليه السلام، وخلفائه البررة الكرام، لا تربط بين أفرادها لا الرباطة العرقية البغيضة، ولا العلاقة المصلحية الآنية، وإنما هي الأخوة الصادقة لإعلاء كلمة الله. وإذا أردت أن تتعرف على معدن أفرادها فهم على عكس ما عرفت من قبل من انصار بني مروان، الذين غلب عليهم الشيطان، لأن هؤلاء إهتدوا بهدى الرحمن، وانطلقوا في محاربة الطغيان، ومهما أوتيت وأوتي عيري من بيان، فلن نصل إلى تعريف أصحاب أبى حمزة كما عرفهم هو في خطبته التي سارت بها الركبان، وصارت أحسن رمز للبيان، على مر الزمان.

لقد عيره أهل الحجاز بحداثة أصحابه، فقلب الذم إلى مدح، وشاهده في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، نعم إن أصحابه شباب ولكنهم ليسو كالشباب، إذ يعلم الناس أن الشباب شعبة من الجنون، إنهم شباب في أجسامهم وأعمارهم لكن عقولهم إكتهلت واكتملت فهي في منتهى الرصانة لا يعرف التهور إليها سبيلا.

وقد كان لهذا الإكتهال أحسن الأثر في السلوك، فإن كان أمثالهم من الشباب يرتع، ويمرح، وينحرف، فإنهم أعرضوا عن الباطل إعراضا، وولوا وجوههم شطر الخير والصلاح، فعميت أبصارهم عن كل منكر، أما أرجلهم فلم تعرف إلى الحرام طريقا. ولم تكن هذه الإستقامة ناتجة عن الإكتهال فحسب، لأنه كم من كهل إنحرف، وكم من شيخ تصابى، وإنما هو التعايش المتواصل مع القرآن الكريم، لا يقرأونه فلا يتجاوز حناجرهم كما يدعي خصومهم الغارقون في القراءة التي لا تتجازو الشفتين، وإنما هم بكاؤون عند قراءته على مسلك أبي بكر، يتضاعف هذا البكاء فيتحول إلى شهيق بين آيات الوعد وآيات الوعيد.

تلك هي حالهم أيام السلم تقوى وصلاح، وأخوة ووئام، حتى تخال أنهم لا يعرفون إلى ميدان الحرب سبيلا، ولكن أبا حمزة يفجؤك وهو يتحول بك مع هؤلاء في نصرة الحق، ومقاتلة الجحافل المناصرة للباطل، إنه إقدام منقطع النظير، تتلقى فيه الضربات بالنحور، لا بالظهور، ولأنهم الكرار وليسوا بالفرار، إنه الشراء في سبيل الله في أعلى مراتبه فأما النصر وإما الشهادة ولا ثالث لهما.

إنه لمشهد مثير يختم به أبو حمزة هذا التعريف بأصحابه الذين تحولت أعضائهم الطاهرة الزكية إلى أفواه السباع ومناقير الطيور الكواسر. إنه الترحم على شهداء الحركة بما فيه من دفع للأصحاب حتى يبقوا على العهد، وردع للأعداء الذين كانوا سببا في أن تتحول هذه الأعضاء الخاشعة، والعيون الدامعة، إلى أشلاء في أفواه السباع الضارية ومناقير الكواسر الجارحة.

أين هؤلاء من أولئك وشتان بين الثرى والثرية، وهل تقارن أسفل الدركات بأعلى الدرجات أولئك حزب بني مروان أنصار الشيطان، وهؤلاء حزب الرحمن، وأهل القرآن. بقيت السياسة المالية للإمامة التي يدعو إليها أبو حمزة الذي شنع بموارد بني أمية الحرام، وبنفقاتهم الحرام إنها تتلخص في سطور قلائل «إن نظهر. . . نقسم بينكم»، «النفر منا على بعير واحد، وعليه زادهم، وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحدا»، وهذا متى، بعد أن أظهرهم الله على اليمن، وآلت اليهم خزائن بني ثقيف ولاة اليمن التي جمعوا فيها الأموال تجميعا، وقد علمنا ما فعلوا بهذه الأموال، طبقوا فيها شرع الله إذ المال الذي جهل أصحابه الفقراء أولى به.

إنها سياسة تقوم على التقشف، أساسها رفض المال الحرام والإكتفاء بالحلال من الموارد التي حددتها الشريعة وهي ليست بالقليل عند أصحاب الصلاح، والناس جميعا على علم أن زكاة الأغنياء من المسلمين زمن عمر بن عبد العزيز كفت مؤونة الفقراء والمتزوجين والمدنيين.

تلك هي إذن إمامة من أجابوا داعي الرحمن، دستورها القرآن، والقائم على حظوظها واحد من عباد الرحمن، تتم بيعته لتقواه، بقطع النظر عن لونه وقبيلته وجنسه، ولا حق له في أن يورثها لأحد من ورثته إذا تم له الأمر يعدل في الأحكام، ويحمل الناس على الشريعة السمحة ويعدل في القسم، يقول بأعلى صوته «الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن، أو كافر من أهل الكتاب، أو إماما جائرا» وبهذا يصبح الناس في إمامته إخوانا يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، يعيشون مع القرآن الكريم، وبالقرآن، وللقرآن ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ [٤٨ الفتح ٢٩]، لا تأخذهم في الله لومة لائم شروا أنفسهم إبتغاء مرضاة الله، همهم إما في تحقيق الإمامة العادلة أو الفوز بالشهادة.

٦) *أخطـــاء حركيـــة :ـ*

لقد إنتصر أبو حمزة إنتصارا باهرا في معركة قديد، وبهذا تكون الإمامة الإباضية قد أحرزت على إنتصارين لم تكن الدولة الأموية المحتضرة تقرأ لهما حسابا، ولكن شأن هذه الدولة كشأن كل مختضر أبت الا أن تبرز قدرتها قبل أن تلقي أنفاسها الاخيرة.

وإن عرفنا من قبل عوامل النصر فوجب أن نتساءل عن عوامل الفشل إذ كان النصر بقديد النصر الثاني والأخير وتبعته سلسلة من الهزائم كادت تمحو الإباضية من الخريطة محوا.

ولا تعتبرون ما سنبديه على هؤلاء الأبطال من تعليقات إستنقاصا لهم وتقليلا من قيمتهم، وإنما هو البعد عن المكان والزمان من شأنه أن يمكن الناقد من الإنتباه إلى بعض العثرات، وما إدعى عبد الله بن يحيى ولا أبو حمزة أنهما معصومان من الخطأ، ولا نشك في أنهما أخلصا لحركتهما إخلاصا منقطع النظير، وفي أنهما أحبا الخير للعالمين، ورغبا في تحقيق الإمامة العظمى في طرفة عين ـ وليست الأيام القلائل التي تقلد فيها الأمر ـ إلا لحظات في حياة الأمم.

* إنها السرعة لإيصال الخير إلى الناس :-

كان أولى في رأينا بطالب الحق أن يكتفي باليمن إلى حين، وذلك حتى يوطد أركان الإمامة في هذا الطرف البعيد عن مركز الدولة الأموية التي يستحيل سياسيا أن تسكت عن هذه الخسارة لولاية كانت تدر عليها من الأموال الكثير ومن الأنصار غير قليل.

وتوطيد الإمامة يعني ترويض الناس على العدل، وهذا لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها، فأنى لأناس وهم أغلب أهل البلد، يخالفون الإمام في الفرقة والمذهب ويعتقدون في قراره أنفسهم أن الإمام مغتصب، وأن الحق مع بني أمية، لأن الدعاية الأموية عودتهم على ذلك، فهم السلف، وهم بالمصطلح المتأخر أهل السنة والجماعة، بينما عبد الله ابن يحيى وإن أثبت لهم العدل ما أثبت خارجي مارق ضال.

إن هذه المفاهيم التي رسخت في أذهان أغلب الرعية في اليمن وغيرها، لا يمكن أن تستأصل إلا بمر الزمن عندما تقوم التجربة الواقعة مقام الدعاية - ولا بد من أن يقرأ لهذه الدعاية التي لا تتوقف ألف حساب. صحيح أن الناس إنتبهوا يوما، فاستمعوا إلى بيان لم يسبق لهم أن إستمعوا إلى مثله في حياتهم، لكن أتظن أنهم يصدقون لاول وهلة؟ وهم الذين نشئوا على سوء الظن، وكم مناهم ولاتهم الأماني ووعدهم الوعود فأخلفوا، أليس هذا الخطيب بشرا كبقية البشر؟ ألا يمكن أن يخلف الوعود، بل هو إلى ذلك أقرب لأنه خارجي؟.

وإن كان دخول حضرموت على حين غفلة من أهلها فإن صنعاء مع القاسم الثقفي قد خسرت الناس فيها من جراء ثورة طالب الحق الكثير من آبائهم وأبنائهم وأقاربهم، فلا يمكن أن ينظروا اليه إلا بمنظار مغتصب الحق من أهله، ووقفتهم مع الوالي الثقفي، رغم إعترافهم بظلمه أحسن دليل على ذلك. ومهما كان عدد الإباضية الموجودين هناك، والوافدين من المواطن الأخرى يصعب أن يقبلهم أهل صنعاء بصدر رحب فإنهم في رأيهم أهل فتنة وشغب، لا دعاة عدل وصلاح.

كل هذا يمكن أن يصلح لكن بخطة محكمة طويلة المدى تحول أنصار بني أمية إلى الولاء للإمام وأصحابه، وهذا يحتاج إلى تجنيد كل الذين أرسلوا إلى الحجاز والشام وغيرهم ليعرفوا الناس بحقيقة عقيدتهم ومذهبهم، مع العلم أن من نشأ على الجبر والإرجاء بصعب أن يتحول بسهولة إلى عقيدة الكسب والإقرار بعدم الخلف بالوعيد، والربط بين القلب واللسان والجوارح في الإيمان.

لكن أهل اليمن لم يروا إلا أمورا لعلهم إلى الإستخفاف بها أميل، ما لهذا الرجل يفرغ خزينة الدولة ليوزعها على الفقراء ودولته في أشد الحاجة إليها، أنه حق ولكنه يصعب أن يستساغ لدى من لم يتعود على الحق؟ ما لهذا الأمام يعفو عفوا مطلقا عمن لو وقع في يديه لذبحه ذبحا، وأرسل برأسه إلى دمشق؟ أليس هذا العدو الذي ناصبه العداء، واعلن الحرب بقادر على ان يعيد الكرة، او على الاقل ان يطلع سادته على خطط الامام واصحابه في الحرب والسلم؟ ألم يكن من الاولى على الاقل ان يحتفظ بالوالي وعامله هذا العامل الذي خان مرتين الى حين حتى تتضح الامور مع ردود الفعل لذي الدولة في مركزها؟.

لكن الإمام سلك هذا المسلك عن حسن نية، وأراد فعلا أن يبرهن لأهل اليمن وغيرهم إنهم بحق ليسوا طلاب ملك، لأن مثل هؤلاء الناس إذا أدركوا الكرسي لا يفكرون إلا في إستبقائه ولو بوجوه الحرام، لكن طالب الإمامة بمعناها السياسي يسعى بأن يكن مثالا رجاء أن ينضم إليه الناس عندما يرون أنه على حق، لكن أنى للمحموم أن يرى العسل حلوا، قد أفسد الداء حاسة الذوق فيه، إن طعم العسل لم يتغير ولكن ذوق المحموم يعفن، كذا حالة أهل اليمن وغيرهم آنذاك، افسد الظلم اذواقهم، فلا بد لهم من علاج، وفي الأغلب لا يكون الدواء إلا مرا، ولن نقول بمراراة كمرارة التي يذيقها الأمويون لمخالفيهم، وإنما شيء منها مما تتحمله أحوال الحرب ولكل مقام مقال، وسنرى كيف أن علي بن الصحين عندما إحتج لديه أبو حمزة بيسرة السلف قال لكم زمان سيرة، ألم يأمر الرسول عليه الصلاة السلام بقتل بعض المخالفين، ولو تعلقوا بأستار الكعبة؟ لكن للإمام عذره لانه أبى إلا أن يكون مثالا في الإلتزام بالمبدىء، محسنا الظن بالناس، فلم يكن منهم إلا أن قابلوا الإحسان بالإساءة فالذنب ليس ذنبه، وإنما هو ذنبهم، وأجره عند الله كامل.

*** لماذا الحجاز ثم الشام في ظرف شهر ؟**

لقد استطاعت الدولة الأموية رغم تصدع أركانها أن تصد جميع الهجومات الثورية لكنها تحطمت أمام بناة الملك الجدد الذين كانوا من نفس الطينة، خططوا وتربصوا، وانتظروا الفرصة السانحة، فادركوا الملك الذي يطلبون، ولم يربح العالم الإسلامي إلا تغير الإسم من عصبية أموية إلى عصبية عباسية توارث أصحابها الملك ردحا من الزمن ليس بالقصير.

إنطلق أبو حمزة بعدد قليل، وبإيمان راسخ، ليجهز على الدولة الأموية في عقر دارها وكما علمنا كانت الخطة أن ينقسم هذاالقليل إلى شطرين نصفه للحجاز والنصف الآخر لبلاد الشام.

وفعلا استطاع هذا العدد القليل أن يحقق ما كان إليه يصبو في الحرمين الشريفين، وكم كان يرجو أن يكون ذلك بدون إسالة دماء إنه إحسان الظن بالناس، إذ بتصور أبو حمزة أن أهل الحجاز وهم الذي يعبرون عن مقتهم للحكم الأموي لما أذاقهم من القهر سيكونون معه، وخاصة أنه قد سبقته أخبار حسن سيرة طالب الحق باليمن، لكن حسن الظن هذا كذبه الواقع ذلك أن أهل المدينة خرجوا بكل ما يقدرون عليه من قوة لا لصد أبى حمزة عن المدينة، وإنما للحيلولة دون وصوله إلى الشام، والحقيقة كما يقال أن الناس على دين ملوكهم، وأن للدولة الأموية واحد من أبنائها ينعم بكل خيرات الحجاز مع بني عمه في دمشق فكيف يترك هذا الخير كله ليصير واحدا من رعايا إمام متقشف.

أو قائد جيش جنوده يتداولون على جمل واحد، ويتعاورون لحافا واحدا، أنى لعبد الواحد أن يترك هذه المعاني إنه الولاية وإنه التوق إلى الملك، وواحد منهما يعمى ويصم، فكيف إذ إجتمعتا، نعم عندما فوجىء إستسلم وذلك شأن الراغبين في الملك، إنه لم يثنه ذلك ولم يؤثر فيه هجاء الهجائين، وإنما هو المكر والتخطيط لذلك حالما حل بالمدينة زاد في العطاء، وجمع قواه وبيَّن لبني عمه أنه درعهم الواقي ولعل هذا النصر يوصله إلى الشام حيث القصور، وحيث النداء بأمير المؤمنين لم لا؟ فيكن حينئذ بإيقاف هذا المد الإباضي ـ الخارجي عنده ـ عند هذا الحد.

وقد إلتف حوله من أول وهلة كل أهل المدينة ونصيب منهم من قريش وهم يعلمون موقف أبى حمزة من جعل الإمامة حقا من حقوق المسلمين جميعا مع عدم إعترافهم بإمامة الإمام الذي يدعو إليه، ومروان مهما يكن من أمر أقرب إليهم نسبا، وعلى ما يرتضون من حيث منهج الحكم، إذ وإن اغتصب أموال فانه يغدق الخيرات على أنصاره ويجازيهم أحسن الجزاء بما يشتهون من المال والعبيد والإماء، وذلك ما تعود عليه هؤلاء الناس.

كل هذه المعاني تصور أبو حمزة أنها تتبخر أمام صولة الحق، وأمام الدعوة إليه، وظل صامدا الى آخر لحظة أمام أهل المدينة عسى أن تفيدهم الحجة وأن ينضموا تحت لوائه ليتعاونوا جميعا على الإطاحة بالبغي والبغاة لكن أبى هؤلاء إلا أن يبدأو بالقتال فهناك فقاتلهم مضطرا، وكان ما كان مما يكره أبو حمزة ولكنه الواقع.

وإنبرى حمزة كما رأينا طيلة ثلاثة أشهر يسعى إلى رتق الصدع وهؤلاء الناس يعيرونه بأصحابه ويسخرون منهم، ومن سلوكهم المتقشف الزاهد، نعم إنه ترف هؤلاء الناس، ترف بلد الأذواق، وأفسد الطباع، لم يرتق الصدع بحد السيف عدا ما إضطر إليه من قتل بعض القرشيين في نهاية المعركة نزولا عند رغبة أصحابه وعلى رأسهم الخبير بشؤون أهل الحجاز أبو

الحر علي بن الحصين، وإنما عمد إلى إبيان فبيَّن لهؤلاء الناس غفلتهم عن حقيقة أمرهم عسى أن يكونوا من التائبين، وبسيرة سلفهم مقتدين، لكن هذه الصراحة لم تزد القوم إلا عنادا، ومكثوا يتربصون، ومع مركز الخلافة يخططون.

وفعلا ما هي إلا شهور ثلاثة حتى عادت إلى الباطل صولته، وإنقض بقضه وقضيضه على دعوة الحق وكانت الجولة له في هذه المرة.

نعم إن أبا حمزة وأصحابه تصورا أنهم بوصولهم إلى تخليص الحرمين على مرأى ومسمع من الحجاج من أطراف الأمصار سينضم إليهم كل صوت لإحياء الإمامة العادلة ولكن هؤلاء جميعا بقوا متفرجين، وكانوا لمن له الغلبة ولو كان جبارا مناصرين.

ذاك هو عمر الإمامة العادلة في الحرمين الشريفين أيام قلائل مع أبى حمزة الشاري، تصدى للحفاظ عليها، ولنشر رايتها في أطراف البلاد بكل ما يملك من قوة فاستشهد دونها وأصحابه وتبعهم بعد حين إمامهم، وعاد الباطل إلى صولته الأموية ثم تبعتها الصولة العباسية ولله في خلقه شؤون وله الأمر من قبل ومن بعد وهو على كل شيء قدير.

وهكذا يبدوا أن عمر الخير قصير، وحتى من أراد الخير قبل الى حمزة من صلب الدولة الأموية لم يعمر إلا قليلا وأبى الباطل إلا أن يصول فبيت لعمر السم كما بيت لأبى حمزة وأصحابه المحاربة والتقتيل ، وما ضره أن يبقى جسده مصلوبا ورأسه في متحف الأمويين محفوظا ما دامت روحه في جنات النعيم.

١) الأغاني ٢٣/١٢١ .
٢) ن . م ٢٣/ ١١٧ .
٣) الشماخي - سير ١٠٠ .
٤) الأغاني - سير ٢٣/١١٧ .
٥) الأغاني - ٢٣/١١٧ .
٦) ن . م - ٢٣/١١٧ .
٧) ن . م - ٢٣/١١٧ .
٨) الشماخي - سير ١٠٠ .
٩) ن . م - ١٠٠ .
١٠) الأغاني ٢٣/١١٧ - ١١٨ .
١١) الأغاني ٢٣/١١٨ .
١٢) ن . م - ٢٣/١١٨ .

١٣) مهدي طالب هاشم - الحركة الإباضية نقلا عن البلاذري وخليفة ابن خياط.
١٤) الأغاني ٢٣/١١٩ .
١٥) الأغاني ٢٣/١١٩ .
١٦) ن . م - ٢٣/١٢٣ .
١٧) ن . م - ٢٣/١٢١ .
١٨) ن . م - ٢٣/١٢٣ .
١٩) ن . م - ٢٣/١٢٣ .
٢٠) ن . م - ٢٣/١٢٣ .
٢١) ن . م - ٢٣/١٢٤ .
٢٢) ن . م - ٢٣/١٢٤ .
٢٣) ن . م - ٢٣/١٢٣ .
٢٤) ن . م - ٢٣/١٢٤ .
٢٥) .
٢٦) ن . م - ٢٣/١٢٥ .
٢٧) ن . م - ٢٣/١٢٦ .

٢٨) إبن عبد ربه أحمد بن محمد (٣٢٨-٩٣٩) العقد الفريد تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الإبياري - ط٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢ - ٥/٥٤.
٢٩) القاضي عبد الجبار (٤١٥/١٠٢٥) كتاب فضل الإعتزال ١٤٣-١٤٤ .

الفصل الثالث
النكبة والإستشهاد

١) *التعبئة الأموية :-*

توافد الولاة المغلوبين على قصر الخلافة فأطلعوا خليفتهم على حقيقة ما يجرى باليمن والحجاز فأثاروا فيه الحمية وأعتذروا لما أصابهم من إنكسار ودفعوه إلى الأخذ بالثأر.

«وما كان لمروان أن يسكت، وهو الذي ما يزال من يومه الأول يعمل على تثبيت عرش الأجداد حتى يصل إلى الأبناء والأحفاد، وحتى لا تكون النهاية على يديه على الأقل، وبأيدي قلة قليلة من الشراة الذين لم يقرأ لهم أحد حساب، وفعلا قرر الإنتقام لنفسه ولآل مروان فانتخب من عسكره أربعة آلاف وإستعمل عليهم عبد الملك بن عطية السعدي فأمره بالجد والسير، وأعطى كل رجل من أصحابه مائة دينار، وفرسا عربيا، وبغلا لثقله، وأمرها أن يمضي فيقاتلهم»[١]

ولم يكن قبول عبد الملك بن عطية لقيادة هذه الحملة لوجه الله وإنما كان مقيدا بشرط «وشرطوا على مروان أنه اذا قتلوا عبد الله ابن يحيى وأصحابه رجعوا إلى الجزيرة، ولم يقيموا بالحجاز فأجارهم إلى ذلك»[٢] .

واضح أنه لم يكن هم هؤلاء من الحملة نشر الخير في الحجاز أو حيثما حلوا، وإنما كان همهم في العودة إلى الجزيرة حيث يكونوا إلى العرش أقرب وحيث الإستفادة أيسر.

وفعلا مضى هذا الجيش الذي كلف الخزينة ما كلف ليثبت عرش بني مروان في الحجاز واليمن، وماذا يهم حتى وإن استنفذ الخزينة كلها فالضرائب عند الحاجة تعوض الأساس إن يستقر في العرش وإن هلك الناس جميعا، إن هؤلاء لا يتعاورون لحافا واحدا وإنما لكل واحد دابتان ومائة دينار مع وعود لا تخطر على بال إذا تم النصر. كما أن هذا الجيش عبىء أيضا نفسيا حتى لا يكون متهورا، إنهم الشراة، وإنهم الفرصة الأخيرة لمسح عار الهزيمتين السابقتين، ومهما يكن من أمر فإن للعدد قيمة، وفعلا إنطلق الجيش متفائلا ومتخايلا بماله من صولة وعدة وعدد.

---

١) الاغاني ٢٣/ ١٤٠ .

٢) ن . م - ٢٣/ ١٤٥ .

ماذا تظن أن أبا حمزة فاعل أمام هذا الجيش العرمرم أتتصور أنه يخطر بباله أن يتراجع أو أن يجزع كلا لا سبيل إلى ذلك، إنه الشراء مهما كان الثمن، إنها الشهادة المطلوبة أو الإمامة المنشودة وكلاهما خير.

٢) ***الهزيمة في الميدان :-***

* **معركة وادي القرى :**

ما أن بلغ أبا حمزة خبر إقبال جيش الشام - وكم كان يرجو لو أنه هاجمه في عقر داره، كما كان الأمر مقررا من قبل - حتى بعث قائده بلج بن عقبة في ستمائة رجل للقائه.

ستمائة همهم أن تكون كلمة الله هي العليا، ولم يهلهم ما رأوا من إمتداد جيش عبد الملك بن عطية لأنهم على يقين أن هؤلاء على باطل، فإن إنتصروا فإنها الإمامة وإن غلبوا فإنها الشهادة. إنهم أربعة آلاف همهم نصرة آل مروان والرجوع إلى الجزيرة، دوى الأفق بصهيل خيولهم، وقعقعة سيوفهم إستعدادا لتحقيق غرض الخليفة والذود عن مركزها ببلاد الشام.

وانطلقت المناقشات بين الطرفين بعد أن تراءى الجمعان وإحتل كل مكانه استعدادا للمواجهة، فلم يكن من بلج أن أن اقام الحجة فدعا عبد الملك بن عطية ومن معه إلى كتاب الله والسنة مذكرا بانحراف بني أمية، وبظلمهم، وبأن بغيتهم في نصرة الحق وإحياء الإمامة العادلة.

ولكن ما كان لابن عطية أن يسكت وهو الذي جاء معتزا بالسلطان، ومعتبرا ألا حق إلا مع بني مروان، فانهال على أبى حمزة وأصحابه شتما وسبا، واحتقارا، معتبرا إياهم أعداء الله ومبينا أنهم أحق بأن يوصموا بالظلم من بني أمية الذين لم يعرف المسلمون معهم إلا خيرا.

الجـــولة الاولـــى :

وعلى مسلك الشراة القائم على السرعة في الهجوم لإ دخال الخلل في جيش العدو حمل بلج وأصحابه على جيش الشام فأنكشفت طائفة منهم وكاد الجزع يدخل في هذه الألوف المؤلفة، لكن عبد الملك كان عليما من قبل بمثل هذه الخطة التي ينتصر بها العدد القليل على العدد الكبير، ولا شك أن القاسم الثقفي قد وصف له ذلك ونبهه من خطر الإنقضاض من الشراة الذين يطلبون الموت كما يطلب غيرهم الحياة، لذلك فانه صمد مع عصبة ممن كانوا معه وكانت الجولة الثانية.

الجـــولة الثـــانيـة :

نادى المنادي أمام هذه الهجمة من بلج بن عقبة التي كاد ينهد لها جيش الشام «يا أهل الشام، يا أهل الحفاظ، ناضلوا عن دينكم وأميركم» فثارت فيهم الحمية والكبرياء وعوض أن يتفرق شملهم ويولوا هاربين وقفوا صامدين «فكروا وصبروا صبرا حسنا وقاتلوا قتالا شديدا» وهنالك صبوا ثقلهم على القائد وهم يعلمو أنه يعدل ألفا، وهم يعلمون أنهم لو قتلوه قاربوا النصر، وفعلا لم يستقر لهم قرار حتى قتلوا بلجأ والكتيبة التي كانت تشدد عضده وبهذا تصورا أن المعركة إنتهت في يومها الأول لكن كانت الجولة الثالثة بعد إستشهاد القائد.

الجـــولة الثالثـــة :

لم يبق من جيش بلج إلا سدسه بعد أن استشهد في الجولتين السابقتين خمسمائة فانجاز هؤلاء المائة إلى جبل من جبال المدينة بقيادة أبرهة بن عبد الله بن الصباح الحميري، واستمرت المناورات بينهم وبين جيش إبن عطية ثلاثة أيام في كل مرة يقذفون ببعض من فيقتلون من الجيش الأموي ما شاء الله، لكن الكثرة تحدق بهذه القلة وتعمل على إبادتها مهما كان الثمن إلى أن أحس أبرهة أنه لم يبق من أصحابه إلا ثلاثون حسب رواية الأغاني فعبر بهم الجبل في ظلام الليلة الرابعة ليلتحقوا بأبى حمزة في المدينة ظانين أنهم فروا من الزحف إلا أن القائد طمأنهم أنهم ليسوا فرارا وإنما هو لهم فئة وإليه إنحازوا كما يقول الله تعالى ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ [٨ الأنفال ١٦].

وهكذا تنتهي هذه المعركة بعد أربعة أيام أذاق فيها الشراة الجيش الشامي الويلات إذ كاد هؤلاء على قلة عددهم أن ينتصروا في الجولة الأولى لكن العدد المدرب والعدة قد غلبت هذه المرة وما ذلك بغريب في المقاييس العسكرية، ولم يطمئن بال ابن عطية إلا بعد أن تأسى بأسلافه من قواد الجيش الأموي فنصب رأس بلج على رمج وطاف به في أطراف جنده، ولكن ما كان رأس بلج يبتغى وإنما همه في رأسين آخرين، أبى حمزة والإمام عبد الله، وليبدأ بأقربهما إليه في المدينة.

٣) *معركة مكة ١٣٠/٧٤٧ واستشهاد ابى حمزة :-*

بعد أن وصل أبرهة إلى المدينة أدرك أبو حمزة أنه لا سبيل إلى مواجهة إبن عطية إلا بوصول المدد من اليمن وليكن ذلك في مكة المكرمة فستخلف الفضل على المدينة وتوجه نحو مكة.

ويبدوا أن أبا حمزة أخطأ في هذا الإجراء لأنه يعلم ما يكن أهل المدينة لأصحابه من عداء، وأن إبن عطية مدركهم لا محالة، ولا قدرة لهم للوقوف أمامة، فكان أولى أن يترك المدينة، وأن يأخذ معه كل أصحابه إستعداد للمواجهة الحاسمة.

وفعلا لم يكن من عمر بن عبد الرحمن إبن الخطاب إلا أن جمع السوقة والبربر والعبيد، وهجموا على المفضل وأصحابه فقتلوا من أدركوا منهم وفر الباقون مدركين أصحابهم بمكة وفي ذلك يقول الشاعر:

ليت مروان رآنا يوم الإثنين عشية
إذ غسلنا العار وانتضينا المشرفية

وهكذا كفى عمر هذا عبد الملك بن عطية المؤونة فدخل المدينة وعادت للدولة الأموية بعد أن خلت من الإباضية وأقام هناك شهرا إستعدادا لاقتناص رأس أبى حمزة، وهو ليس منه ببعيد إذ علم أنه توجه إلى مكة، وفي مكة - حتى وفي هذا الظرف الحرج - يبقى أبو حمزة طالب إمامة محافظا على العهود والإلتزامات، لكن ليت الأطراف المقابلة تفعل بالمثل، وهذا ما إعتبره أقرب أصحابه إليه من الأخطاء الحركية فأبو الحر على بن الحصين ما يزال يلح عليه بأن لكل زمان سيرة، ولكن أبى حمزة أبى إلا أن يقف عند الحدود الملتزمة وبما أن أهل مكة قد دخلوا في الطاعة فلا سبيل الى أعمال السيف فيهم، وتأمل في هذه المحاورة بين أبى حمزة وأبى الحر «فقال له (لأبى حمزة) أنى قد كنت أشرت عليك يوم قديد وقبله أن تقتل هؤلاء الأسرى كلهم فلم تفعل، وعرفتك أنهم سيغدرون فلم تقبل، حتى قتلوا المفضل وأصحابنا المقيمين بالمدينة، وأنا أشير عليك اليوم أن تضع السيف في هؤلاء فإنهم كفرة فجرة ولو قدم عليك إبن عطية لكانوا عليك أشد منه فقال: لا أرى ذلك لأنهم قد دخلوا في الطاعة، وأقروا بالحكم، ووجب لهم حق الولاية، فقال: إنهم سيغدرون فقال: أبعدهم الله ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [٤٨ الفتح ١٠]»[٣]

والفارق واضح بين الرجلين إذ أراد أبو الحر أن تطبق أحكام الحرب كاملة حتى بعد أن تحط الحرب أوزارها، وذلك لخبرته بأستعداد أهل المدينة وأهل مكة للقدر، بينما ميز أبو حمزة بين الحرب والسلم فإذا حطت الحرب اوزارها فلا سبيل إلى القتل، وما دامت بيده القيادة فقد طبق سيرة السلف كاملة، وإعتبر من الغدر أن يقتل هؤلاء الذين دخلوا في الطاعة ولكنهم في الحقيقة مكرهون على الطاعة فما أن حانت الفرصة حتى صدق فيهم قول أبى الحر، وهو بهم عليم، لأنه بينهم مقيم، منذ أمد من السنين.

٣) ن . م - ١٤٣/٢٣ .

المواجهة الأولى للمعركة :

ما يزال ابن عطية يستنبط الخطط المضادة لمسلك أبى حمزة على قلة عدده إلى قسمين فصير طائفة بالأبطح، وتولى هو الطائف الثانية بأسفل مكة إزاء أبى حمزة.

ومن وفاء أبى حمزة للمبدىء الذي يتمثل في إقامة الحجة على الطرف المقابل لما التقى بابن عطية قال: «لا تقاتلوهم حتى تخيروهم، فصاح بهم، ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فصاح إبن عطية: نضعه في جوف الجوالق، قال: فما تقولون في مال اليتيم؟ قال: نأكل ماله ونفجر بأمه... فلما سمعوا كلامهم قاتلوهم.....»[٤]

وفعلا إضطر أبو حمزة أن يوجه أبرهة في ثمانين فارسا إلى الأبطح فقاتل أهل الشام قتالا مريرا وهزمهم إلى عقبة منى، وهكذا أفلح أبرهة في الجولة الأولى ولو كان وراءه مدد لاستطاع أن يواصل النصر ولكن أين العدد والقسم الثاني من الجيش في الواجهة الثانية، وهناك وقف أهل الشام على عقبة منى وكروا بعددهم وعدتهم وهم على علم بأن العدد المقابل قليل وعملوا على قتل القائد ولكن لا عن طريق المواجهة في هذه المرة وإنما كمن له إبن هبار القرشي وهو على خيل دمشق فقتله عند بئر يقتلونهم حتى دخلوا المسجد، وهكذا سقط القائد الثاني من أعضاد أبى حمزة في المواجهة الأولى فلم يبق له الان إلا أن يحسم الموقف بنفسه.

المواجهة الثانية :

وتم اللقاء بين إبن عطية وأبى حمزة في أسفل مكة وكان ضاريا في بداية المواجهة لكن ما أن علم أهل مكة بانكسار المواجهة الأولى حتى أقبلوا يزفون، وصدق فيهم قول أبى الحر لأبى حمزة «ولو قدم عليك إبن عطية لكانوا أشد عليك منه» وحوصر أبو حمزة بمن معه بين فكين فقاتلوا إلى اخر رمق واستشهد أبو حمزة الشاري واستشهد معه زوجته وهي ترتجز:

انا الجعيداء بنت الأعلم من سأل عن إسمى فاسمى مريم
بعت سوارى بسيف مخذم

ولم يبق بعد أبى حمزة من رؤوس الحركة إلا أبو الحر علي بن الحصين، ولم يطمئن الأمويون إلا بعد أن حاصروه في دار من درو قريش فأضرموا فيها النيران مما دفعه الى أن يرمى بنفسه فقاتلهم حتى أسر وما كان هؤلاء أن يعفوا عن الأسرى وخاصة على رجل من أمثال أبى الحر الذي انفلت من أسرهم من قبل بأعجوبة فقتل.

٤) ن . م - ٢٣/١٤٥ .

وهكذا أفلحت خطط عبد الملك بن عطية العسكرية التي أدخلت الإرتباك في الأقلية الإباضية مع ما ظهر من سلاح جديد لم يعرف من قبل «ومنهم من عليه درعان أو درع وسنور وتجافيف وعدة لم ير مثلها في ذلك الزمان»[٥] ، وهذا ما جعل ضربات أبى حمزة وأصحابه تذهب سدى.

ثم أقبل إبن عطية في صولة النصر ياسر من بقي من أصحاب أبى حمزة فإذا بهم أربعمائة فدعا بهم لينتقم الإنتقام الأخير.

وعلى طريقة الأمويين لا يشفى غليلهم بعد تحقيق الغلة إلا صلب أجساد رؤوس الحركة «الخارجية» وفي هذه المرة كان الصلب من نصيب أبى حمزة وأبرهة بن الصباح وأبى الحر علي بن الحصين ورجلين من أصحابهم على فم شعب الخيف، «ولم يزالوا مصلوبين حتى أفضى الأمر الى بني العباس» وحج مهلهل الهجيمي في خلافة أبى العباس فأنزل آبا حمزة ليلا فدفنه ودفن خشبته»[٦]

أما البقية الباقية من أصحاب أبى حمزة فإنهم التحقوا بمركز الإمامة باليمن وتروى المصادر أن البعض منهم التحق بالبصرة مركز الدعوة.

وهكذا بعد هذه المعركة الضارية عادت الحجاز إلى دائرة العسف والظلم بعد أن حرص أبو حمزة على إذاقة أهلها لذة العدل والإنصاف ما يقارب السبعة أشهر أبتداء من دخولهم في التاسع من ذي الحجة ١٢٩/٧٤٦ حتى لحظة استشهاد أغلبهم في معركة مكة التي كانت في نهاية جمادي الثانية أو بداية شهر رجب ٣٠/٧٤٧.

وبهذه الصورة تنتهي حياة المجاهد أبى حمزة الشاري الذي أبى إلا أن يموت شهيدا وهو في ساحة القتال، شهيدا من أجل نصرة الحق، شهيدا من أجل أحباط الباطل، شهيدا من أجل إحياء الإمامة العظمى، ويبقى جثمانه مصلوبا سنتين كاملتين صامدا لعوادي الزمن ليشهد سقوط الدولة التي طالما رجا من الله سقوطها، لكن لا لتقوم الإمامة وإنما لتحل محلها دولة أخرى لا تقل عنها جورا.

أما رأسه فقد نعم بما لم ينعم به في حياة صاحبه إذ وصل إلى قصر مروان ونحن نعلم أن أفخم هدايا أنصار الخليفة رؤوس الذين يدعون إلى حكم الرحمن ويلحون على مخالفة حكم مروان. ويكفي أبا حمزة ومن معه فخرا أنهم لم يجزعوا كما هو شأنهم أمام العدد والعدة ولم يستسلم واحد منهم مع حفاظ على ما ألتزم به من المبادىء تجاه الذين أقروا بالطاعة فلم يلق الله خائنا وإنما كانت الخيانة من قبلهم في مكة والمدينة.

٥) الطبري - تاريخ ٤/٣٣١ . ٦) الاغاني - ٢٣/١١٤ . ٧) ن . م - ٢٣/١٤٤ .

ويكفيه فخرا انه دوخ الدولة الاموية بمن معه من فئة قليلة لم تتجاوز الالف في اغلب المواجهات فنهضت بطم طميمها وهيأت من العتاد ما لم يعرف له مثيل في ذلك الزمان ومع ذلك لم يكتب لها الغلبة إلا بعد جهد وعناء واثبتت مرة اخرى ظلمها وعسفها مع قائدها عبد الملك بن عطية السعدي على عكس ما بين طالب الحق وقائده ابو حمزة من شيم في الحرب والسلم كانت وحدها جديرة ـ لو كانت للناس عقول ـ بأن تحول مجرى التاريخ في اتجاههم، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وفعلا ما تزال رياح القهر عاصفة والناس من حولها يهتفون لانها اذا سكتت وحلت محلها نسمات العدل يكونوا اول من يختنق بها اذ في نفحاتها لا سبيل لهم إلا أن يكونوا «من الذين في كل واد يهيمون».

نعم هذا هو ابو حمزة لقد عاش حميدا ومات شهيدا وما يزال كلما ذكر الشراء اعتبر رمزا من اهم رموزه، وكلما ذكرت الخطابة شهد الناس انه علم من اعلامها، ومن منا لم يتعايش مع بعض هذه الخطب وخاصة منها تلك التي ينوه فيها بخصال اصحابه في السلم والحرب «شباب والله مكتهلون في شبابهم. . . .» ، وأحسن ما نورد هنا مرثية عمر بن الحصين ـ ويقال الحسين ـ العنبري مولى لهم في عبد الله بن يحيى وابى حمزة واصحابهما.

حقا انها مرثية لا تبعد في جودتها عن خطبة ابى حمزة في تعريف اصحابه والنصان ينبعان من مشكاة واحدة اساسها المحبة المخلصة لشباب الحركة الاباضية الذي ابى إلا ان يبيع نفسه في سبيل احياء الامامة العظمى التي اندرس رسمها تحت سياط بني امية وسيوفهم وسنابك خيولهم.

يا رب فاسلكني سبيلهم ذا العرش واشدد بالتقى أزري
في فتية صبروا نفوسهم للمشرفية والقنا السمر
تالله القى الدهر مثلهم حتى اكون رهينة القبر
اوفي بذمتهم اذا عقدوا وأعف عند العسر واليسر
متأهلين لكل صالحة ناهين من لاقوا عن النكر
صمت اذا احتضروا مجالسهم أذن لقول خطيبهم وقر
الا تحيهم فأنهم رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهين كأن جمر غصا للخوف بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم لخشوعهم صدورا عن الحسر
فهم كأن بهم جوى مرض او مسهم طرف من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشي النوم بالسكر

ألا كذا خلسا وآونة حذر العقاب وهم على ذعر
كم من أخ لك قد فجعت به قوام ليلته إلى الفجر
متأوه يتلو قوارع من أي القرآن مفزع الصدر
نصب تجيش بنات مهجته بالموت جيش مشاشة القدر
ظمآن وقدة كل هاجرة تراك لذته على قدر
تراك ما تهوى النفوس إذا رغب النفوس دعت إلى النذر
ومبرأ من كل سيئة عف الهوى ذو مرة شذر
والمصطلى بالحرب يسعرها بغبارها وبفتية سعر
يختاضها بأقل ذي شطب عضب المضارب قاطع البتر
لا شيء يلقاه أسر له من طعنة في ثغرة النحر
كخليلك المختار أذك به من مغتد في الله أو مسرى
خواض غمرة كل متلفة في الله تحت العثير الكدر
تراك ذي النخوات مختضبا بنجيعة بالطعنة الشزر
وابن الحصين وهل له شبه في العرف أنى كان والنكر
بسامة لم تحن أضلعه لذوي أخوته على غمر
طلق اللسان بكل محكمة رآب صدع العظم ذي الوقر
لم ينفك في جوفه حزن تغلى حرارته وتستتشرى
ترقى وآوانة يخفضها بتنفس الصعداء والزفر
ومخالطي بلج وخالصتي سم العدو وجابر الكسر
نكل الخصوم إذا هم شغبوا وسداد ثلمة عورة الثغر
والخائض الغمرات يخطر في وسط الأعادي أيما خطر
بمشطب أو غير ذي شطب هام العدا بذبابه يفرى
وأخيك أبرهة الهجان أخي الحرب العوان ملقح الجمر
بمرشة فرغ تثج دما ثج الغوى سلافة الخمر
والضارب الاخدود ليس لها حد ينهها عن السحر
وولي حكم فجعت به عمرو فواكبدي على عمرو
قول محكمة وذي فهم عسف الهوى متثبت الأمر
ومسيب فاذكر وصيته لا تنس أما كنت ذا ذكر
فكلاهما قد كان محتسبا لله ذا تقوى وذا بر

في مخبتين ولم أسمهم كانوا يدي وهم أولو نصرى
وهم مساعر في الوغي رجح وخيار من يمشي على العفر
حتى وافوا لله حيث لقوا بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجات أنفسهم وعداتهم بقواضب بتر
وأسنة أثبتن في لدن خطية بأكفهم زهر
تحت العجاج وفوقهم خرق يخفقن من سود ومن حمر
فتفرجت عنهم كماتهم لم يغمضوا عينا على وتر
فشعارهم نيران حربهم ما بين أعلى السحر والنحر
صرعى فحاجلة تنوبهم وخوامع لحمانهم تبرى

٤) *النكبة في اليمن :-*

أنتهى أمر الحجاز لكن ما تزال الإمامة قائمة في صنعاء ولا يمكن بحال أن يسكت أحد الطرفين، وفعلا أمر مروان بعد أن استبشر برأس أبى حمزة قائده عبد الملك بالمسير إلى اليمن.

كما أن الإمام عبد الله بن يحيى وأن لم يدرك قائده أبا حمزة فانه قرر المسير إلى الحجاز، والتقى الجيشان وكانت معارك عنيفة أنتهت باستشهاد الإمام وأستشهاد الكثير من أتباعه، وأنسحب الباقون إلى صنعاء.

وكالعادة تطير البشرى إلى دمشق مع يزيد بن عبد الملك أبن عطية حاملة معها رأس طالب الحق كأفخر هدية لينضم إلى بقية الرؤوس التي ستزيد في حسنات الأمويين يوم يلقون ما عملت أيديهم بين يدي رب العالمين الذي يمهل ولا يهمل.

٥) *العودة إلى مسلك الدفاع ثم الكتمان :-*

رغم المجازر الأنتقامية التي أقامها أبن عطية لم تكن اليمن لتستسلم وقد رسخت في جانب منها العقيدة الأباضية بل ظلت معقلا من معاقل الأباضية حتى القرن السابع للهجرة.

وقبل أن نودع اليمن لا ينبغي أن نغفل عن القائد المظفر عبد الملك بن عطية فانه ما أن أستقر في صنعاء حتى أراد سيده مروان أن يكرمه بالإشراف على موسم الحج فهب ملبيا طلب من لا يرد له طلب، لكن القدر أعترض هذا الذي يضع المصحف في الجوالق ويأكل مال

اليتيم ويفجر بأمه فتعجل في بضعة عشر رجلا اعترضتهم كوكبة الشراة ولما ادركوا أنه ابن عطية ثأروا لاخوانهم ونصبوا رأسه، وهكذا نصب رأس ناصب الرؤوس وصالب الاجساد لكن لم يحصل له شرف القرار في قصر الخلافة وإنما دس بعد حين في تراب اليمن.

٦) ***تحويل الوجهة الى عمان والمغرب :-***

وما أن عرف الأباضية فشل إمامة الظهور في اليمن حتى ولوا وجوههم شطر عمان حيث بايعوا الجلندى بن مسعود إماما للظهور (سنة ١٣٢ / ٧٤٩) ثم شطر المغرب حيث بويع عبد الخطاب المعافري إمام ظهور في طرابلس سنة (١٤٠/٧٥٧)، وهكذا ما إن ماتت إمامة حتى قامت مقامها إمامتان إحداهما في المشرق والثانية في المغرب وقد كان لكل منهما من الأثر ما كان.

١) الأغاني ٢٣/ ١٤٠ .
٢) ن . م - ٢٣/ ١٤٥ .
٣) ن . م - ٢٣/ ١٤٣ .
٤) ن . م - ٢٣/ ١٤٥ .
٥) الطبري - تاريخ ٤/ ٣٣١ .
٦) الأغاني - ٢٣/ ١١٤ .
٧) ن . م - ٢٣/ ١٤٤ .

خـــاتمـــــة

لقد عشنا في صفحات هذا البحث مع المجاهد أبي حمزة الشاري، رمز من رموز الشراء، وعلم من أعلام الثورة على الباطل أدرك أن الجهاد واجب مقدس، فأنبى مع من معه من شباب مكتهلين في شبابهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، فرفعوا لواء هذا الواجب، عاملين على تصحيح مجرى تاريخ المسلمين، همهم إحياء الإمامة العظمى التي تملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.

هكذا يقول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز «الوليد بالشام والحجاج بالعراق، وأخوه باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، وامتلأت الأرض والله جورا».

فثورة أبي حمزة لم تكن ثورة عشوائية أو للاستئثار بالملك وقد حاولنا في هذا البحث أن نبرز عواملها والاستعداد لها وحقيقتها عندما قامت وما حققته من نتائج مع أبي حمزة قائد الأمام عبد الله بن يحيى طالب الحق من سيرة حسنة في الناس في الأيام القلائل التي كتب لها فيها النصر، وما نتج عن ذلك من تألب الشر عليها لما علم فيها من عقيدة راسخة.

أما عن أسبابها فإن خلافة المسلمين قد ماتت بين لعين وطريد، وبين ناقص وخليع وحمار، وبين نديم للقرد، وفاسق في بطنه وفرجه، وبين ممزق للعطاء ومستأثر بالفيء، وبين مظهر لزي فرعون، وضعيف سفيه متربع على العرش بين حبابة وسلامة، لم يسلم من هؤلاء إلا واحد أراد تصحيح المسار، فأرست به سفينة الخلافة على ضفاف العدل، لكن سرعان ما عصفت الرياح، رياح الظلم لتعود المسيرة إلى ما كانت عليه وأشد.

ألم يحق لأبي حمزة أن يثور، والخليفة دليل الأمة ومرشدها هذه حالة، والخلافة رمز العدل قد تحولت إلى عنوان للطغيان.

وإذا كان الأمر هكذا في قصر الخلافة فحدث عن الولايات والولاة ولا حرج في هذا القصر يختار أشد ما في كنانته ليقذف به المسلمين حتى يأتوا خاضعين، وتغتصب منهم أموالهم كارهين، بل وتؤخذ الجزية عن بعضم وهم صاغرون، وظلم زياد وخلفه الحجاج من بعدهما كاف لتقوم في كل يوم ثورة. نعم قامت الثورات هنا وهناك فتصدى لها هؤلاء وقتلوا من أجل الحفاظ على العرش الآلاف من الأبرياء وأبتنوا عرشهم هذا على أبراج من الجماجم، جعلوا أسهاما يحتفظون به من رؤوس في متاحف قصر الخلافة.

نعم من حق أبى حمزة أن يثور، ألم يكن يتردد على الحرمين الشريفين معدن البر والتقوى، فلا يجد إلا فسقا وإنحرافا، ألم يتحول موسم الحج إلى موعد بين المغنين والشعراء والعشاق؟ ألم تصر مدينة رسول الله ﷺ ، ينتحب فيها المنتحبون لا من خشية الله، وإنما جزعا لفراق فاسقة من الفاسقات؟ نعم من حق عبد الله بن يحيى وهو يتولى القضاء في اليمن أن يقول أنه رأى باليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا، وسيرة في الناس قبيحة، مبينا أنه لا يحل المقام على ما يرى، ولا يسع الصبر عليه، وقد علمنا ما ذاقت اليمن السعيدة التي أرادت أن تزداد سعادة بالمسلمين من قسوة الثقفيين الذين توارثوا فيها كرسي الولاية صاغرا عن كابر كما توارثوا روح الطغيان عن بعضهم البعض.

وفعلا تم الأتصال مع مركز الدعوة بالبصرة هذا المركز الذي ما يزال يستعد للظهور منذ أن حول الأئمة فيه مسار حركتهم بعد أبى بلال من الشراء إلى القعود والكتمان. هكذا كان مسلكهم مع الأمامين عبد الله بن أباض وجابر بن زيد يقوم على تنظيم حركة سرية تكون الأنصار وتدفع بهم إلى الأمصار حتى يحين الوقت للثورة والظهور، ثم جاء أبو عبيدة فأحكم مسار الحركة إحكام واستجلب الدعاة من أطراف البلاد من اليمن والمغرب وعمان خاصة، وعبأهم تعبئة إيمانية صادقة في سرداب من سراديب البصرة ومصنع من مصانع القفاف، وهو في الحقيقة مصنع للأئمة والمجاهدين.

إلى أن أهل هذا السرداب ـ وهو واحد منهم ـ أطلق عبد الله بن يحيى صيحة، فدوت جنباته مهللة، ولبت نداء أبنه البار، فقذفت باطل اليمن بفلذات كبدها ومن بينهم أبو حمزة.

أبـو حمزة المختـار بن عوف السليمي الأزدي، الذي ورث الشجاعة من أصله العربي المجيد، وزادها صقلا وتهذيبا في صحار أعرق الأمصار، ثم أستقبلته حلقات أبى عبيدة بالبصرة أحسن استقبال، فأذكت فيه شعلة الغيرة على الدين لما وجدت فيه من نبوغ منقطع النظير، وأنتدبته لتحسس الأخبار في الحرمين الشريفين حيث يتولى أمر الدعوة أبو الحر على بن الحصين، فانبرى في كل محفل يدعو جهارا إلى مخالفة بني مروان وإلى إقامة دولة القرآن والإمامة التي تبدد كل طغيان ، وذلك بأفصح بيان لما وهبه الله من ذلاقة لسان، فتصدى له زبانية مروان وأذاقوه من جلد السياط ألوانا، فلم يزده ذلك إلا إيمانا.

وما أن نادى منادي الجهاد لنصرة الحق حتى أنطلق شاريا ليردف العمل بالقول فلم يكن خارجيا سفاكا للدماء مستعرضا لدماء الأبرياء، وإنما كان شاريا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر باليد لا يقاتل إلا من يبدأه بالقتال.

ذالك هو مسلكه ـ شراء بمفهومه الإسلامي السامي ـ عندما كان جنديا من جنود الإمام طالب الحق باليمن، لم يستنكف من أن يكون مقودا رغم ماله من عبقرية في ساحة القتال، بل أستسمات مع الفئة القليلة عند أبواب مدينة صنعاء حتى أتت مستسلمة رغم ما أعد قاسمها من الألوف المؤلفة للحفاظ على التركة الموروثة ومورد رزقه ورزق سيده مروان.

وكيف لا يأتمر بأمر إمام بايعه عن رغبة وإقتناع ورأى من سيرته ما أحيى سيرة العمرين، ألم يعف عن عامل حضرموت مرتين، ألم يعف عن الوالي المستبد، ألم يأمر بعدم الأجهاز على الجرحى، ألم يأمر بألا غنيمة، ألم يوزع ما وجد في الخزينة من أموال على فقراء اليمن، نعم حق لمثل هذا الإمام أن يطاع بل من الشرف أن يكون أبو حمزة من أعضاده وجنوده.

وما كان للأمام أن يغفل عن مواهب خلانه على درب الإيمان، نعم إنها الحكمة، لقد أدخر جهد أبى حمزة في القيادة لمرحلة لاحقة، وهاهي قد جاءت وقد كان ذلك بتخطيط من مركز القيادة بالبصرة. وما إن أستقر الأمر في اليمن حتى سرح الإمام طالب الحق أبا حمزة على رأس جيش للحجاز لتتقدم منه فصيلة بعد حين مع بلج بن عقبة إلى بلاد الشام، إنه المجاهد القائد، فهلا أصابه شيء من الصلف، كلا والله ألم نعلم أنه كان يتداول وجنوده على بعير واحد، ويتعاورون لحافا واحدا، إنه شار وكفى، باع مهجته في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

وقف مع جيشه على جبل عرفات حيث تستدر الرحمات ليعلم المسلمين جميعا أنه لا يقصد ترويع وفود الرحمٰن، وإنما يدعو إلى مخالفة مروان وإلى إقامة دولة القرآن، فلم يكن من ممثل مروان إلا أن طالب بالهدنة فبين أبو حمزة أنه وأصحابه بحجهم أضن، ولم تثر القائد الشاري الأستفزازات وإنما حافظ على العهد إلى أن أدخله الله المسجد الحرام آمنا، بعد أن أنسحب الوالي في أول النفر، فخر لرب العالمين ساجدا وقام في الناس خطيبا موضحا أن الغاية هي نصرة الحق.

ثم من مكة قصد القائد بلاد الشام لكن أبى أهل المدينة إلا أن يصدوه، فحاورهم طويلا، وأقام عليهم الحجة بكل ما أوتي من بيان، لكن فرضوا عليه القتال، فكان من أمر قديد ما كان، ودخل مدينة رسول الله ﷺ، وألقى البيان تلو البيان ليوضح للناس بأفصح لسان، حقيقة الطغيان الذي تجسم في آل مروان، ولكنه منهج من لبوا داعي الرحمن، لأقامة دولة الأيمان، لكن ما يزال أهل المدينة يعيرونه بأصحابه حتى فضح جميع عيوبهم «سراع الى الفتنة، بطاء عن السنة» وعرفهم بما يتحلى بن أصحابه من خصال الإسلام» غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم.»

في هذه الأشهر الثلاثة أحسن القائد في الحجاز السيرة وحرص على أن يذوق الناس في ظل حكمة العدل والأيمان لكن أنى لنفوس تلوثت في العفن أن تنعم بعبيق الورود.

وهناك تدور الدوائر ويتنمر مروان وكيف لا يتنمر وقد أنفلتت منه اليمن ثم الحجاز مع تصدع مواطن أخرى ويقذف بجيش نظامي مكنه من عدة لم يعرف لها مثيل، ومنهم من عليه درعان وستور وتجافيف، وعدة لم ير مثلها في ذلك الزمان «فتكون ضربات جيش مروان قاتلة بينما تضيع ضربات جيش أبى حمزة في صولة الحديد، وما هما إلا معركتان حتى تحولت الغلبة إلى معسكر الطغيان وأستشهد أبو حمزة وأصحابه في نصرة كلمة الإيمان، لم يتراجعوا ولم يتأخروا إلى أن أتت الحرب على إمامهم باليمن وأبى الطغيان إلا أن يميت دعوتهم لكن أبت إلا أن تبقى صادمة عبر الزمن بعد أن ثارت في الحين من راس أبن عطية فدسته في تراب اليمن دون أن ينتشي بجروبته بين يدي مروان، ثم تعصف الرياح بمروان وبآل مروان، وسيكون اللقاء بين يدي الرحمن إنه هو الواحد الديان، وإننا لنسأل الله جزيل الثواب والغفران، وأن يعفو عنا زلات القلب واللسان، وأن يرفع درجاتنا في أعلى الجنان، وأن يقيض في كل زمان عبادا للرحمن، ينتصرون للحق، ويثورون بحق على الطغاة والطغيان.

**** كتب الشيخ أبى الحر على بن الحصين العنبري المكي إلى الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي لما كان إماما على اليمن :-**

أما بعد ، فانظر رحمك الله نفسك حين ينفعك النظر، وتفكر وأعتبر ينفعك العبر والتذكر، فإنه ﴿انما يتذكر أولو الألباب﴾ [٣٩ الزمر ٩]، وتفقد نفسك وأنظر أي رجل أنت اليوم بمنزلتك التي أنت فيها، وأي رجل كنت قبل اليوم وأي عبد كنت قبل اليوم في حالك، وفي معرفتك لربك، وحيث بلغت أمنيتك التي تتمناها لربك، ولنفسك، وكيف شكرك وصبرك، فإن عرفت من وحيث بلغت أمنيتك التى تتمناها لربك، ولنفسك، وكيف شكرك وصبرك، فإن عرفت من نفسك وحالك في دينك ودنياك ولباسك ومعيشتك، وأجتهادك لربك، وتواضعك وربعتك، وأقتصادك على ما كنت عليه لربك قبل أن تنزل منزلتك التي أنت بها وعليها بارجاء لنفسك وإرجائها لربك.

فإن أنكرتها ولم تعرفها في دينها ودنياها، ومعيشتها وقلة همها وما كفيت، وما حمل عنها مما حد لها، وما شغلت به عما كانت به مشتغلة ومعنية، فأبك عليها بكاء من أهلك نفسه، وهلكت على يديه، وبكاء من خاف الله بما ركب وضيع، فإن الجاهل بعد العلم من ترك ما يعلم إلى ما لايعلم، وعمل بما يجهل، وإن الأعمى بعد البصر من أتبع الهوى، وركب ما

نهى عنه إلى ما يهوى، وإن المستحق لعقوبة ربه من أخذ المعية متعمدا، ورجا على نفسه في النصب لربه، وأتباع شهوته من الدنيا، ولذته فيها، وإن العالم بالله إنما يبكي لنفسه في دنياه رجاء السرور لها في الآخرة، والبشرى بما أضحك المتقين.

فالله الله يا أخي أن تعمى بعد البصر، أو تضل بعد الهدى، وبعد معرفة الاسلام، وبعد إخلاص الطاعة لا بالتقوى، فإن أولى الألباب والنهى لم يكونوا أهل لهو ولا لعب، ولم يكونوا أهل نسيان ولا غفلة، ولا أهل راحة ولا فترة، ولا أهل تلذذ بالدنيا ومطايب عيشها، ولم يكونوا أصحاب نعيم ولا فخر، ولا أصحاب أبل ولا بقر، ولا أصحاب خيل ولا ركب، ولم يكونوا أصحاب رغبة في مال ولا أهل، ولا ولد ألا ما أعطاهم الله، فان كثيرا رفضوه عن أنفسهم، ورفضوه الى ما يخافون عيبه، وآثروا به أهل الفاقة من خلقه، تخوفا أن يفسدهم ذلك عن الله، فيبطروا، ويشروا، ويمرحوا ويشغلهم ذلك عن الذي وكلوا به، والذي هم به معنيون، فكان الأقل من الدنيا أحب إليهم م الشبع ما لم يجهداو، وهم في الشبع على أنفسهم أخوف وفي الجوع أرجاء وأذكر، وكان الفقر أحب إليهم من الغنى، وهم في الفقر أعبد لله وأتقى، وفي الغنى أنسى لله وأعصى، لضعفهم عن الشكر وحبسهم ما ليس لهم، وأستيثارهم به عن أهله، وكان البلاء أحب إليهم من الرخاء، للذي يرجون من الأجر، ويخافون من الإثم في الرخاء، ولم يكونوا بطالين في العشيات والضحى، ولكنهم كانوا يصبرون أنفسهم ﴿مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهة﴾ [١٨ الكهف ٢٨]، ويجعلون عشياتهم وغدواتهم معادن لذكر الله وعبادات ومحاضر، فكانت مضاربهم التي يجرون فيها أنفسهم، وخيلهم، طاعة لله وذكره بالغدوة والآصال، زجلهم فيها وأصواتهم القرآن، ومنازعتهم وشغلهم ذكر الرحمن، يسارعون بها في ذلك الليل والنهار، ويذكرونها تعاهدا بالعشي والإبكار، نصبا لله بعبادته، وسابقة إلى رحمته التي أمروا بها، وأمروا بالتعاهد لها، يسابقون إليها أهل السباق وأهل اليقين بعلم يوم التلاق، وينافسون أهل العمل الصالح ليدركوهم أو يسبقوهم، ويضمرون بطونهم وأجسادهم تحففا من الربو والبدونة، ويتخوفون أن يثقلوا عن جزيهم أو يقعدوا عن سفرهم، أو يسبقوا في يوم مجاريهم، ويوم سبقهم، يؤخذ السبق الذي جعل لهم دونهم ويمنى به غيرهم.

وهكذا الأكياس يصنعون، فكانت أنفسهم خيلهم التي يجرون ومضامرهم مجالس الذكر التي يحضرون، يغدون إليها ويروحون، ومساجد الله التي يعمرون يبيتون فيها سجدا، وقياما، و﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فهي القلوب والأبصار﴾ [٢٤ النور ٣٧]، هي مضامرهم، وعاداتهم التي إليها يغدون،

وإليها يروحون، وكان ضمارهم الصيام، فبطونهم التي يجيعون وأبصارهم التي في ليلهم يسهرون أناء الليل سجدا وقياما ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [٥١ الذاريات ١٨] يعملون أبدانهم ويتحملون على أقدامهم، وينضبون أنفسهم في العبادة، فتحملوا المكارة من طاعة الله، والمؤنة من العبادة، وتعاهدوا الفريضة، وأتبعوا السنة، ولزموا ذكر الله من الحمد والتسبيح بالغدي والعشي، يروحون بذلك وبه يغدون، يذكرون النعم التي يخافون كفرها، ويكثرون ذكر ربهم لئلا ينساهم عند فضله، وما أنعم عليهم به فينزع ما أعطاهم، ويغير ما بهم، ويرغبون في أستتمام ما أنعم عليهم به ليزدادوا به من خير ما عنده، ويستوجبوا المزيد من فضله وثوابه، ورفضوا الدنيا وأقبلوا قبل الآخرة، كأنها نصب أعينهم، إليها يسارعون، وإليها يسابقون، فكأنما الدينا غائبة عنهم، ليروا مع أهلمها وليسوا منهم، ويروا فيها وهم في غيرها، يقينا بما أبصروا وعلما بما نظروا، خوفا مما حذروا، فأدركوا باليقين ما طلبوا، وأمنوا بالخوف ما كرهوا، وسبقوا أهل كل سبق مسارع، وأهل كل مسارع الى متسرع، فاستراحوا وروحوا، وروح عنهم قبل كل شاخص ناصب، وقبل كل متعب تاعب، وقدموا قبل كل سريع سابق، فنزلوا المواطن وتوطنوا المنازل قبل كل مرتاد طالب، وقبل كل مسارع مسابق في خير ما طلبوا، وفي خلاف ما سارعوا وسابقوا.

وأعلم أن كل مرتاد وماهد، ومسارع ومسابق، ينوي نفسه قبل إنقطاع الدنيا عنه، ويمهد لها ويسابق لها، أما منزل غبطة لا ينبغي عنه حولا، وأما محل نقمة لا يجدون دونه موئلا، حين ليس لنادم من ردة من بعد إنقطاع المدة، وإنما يمهد لها الجنة أو النار إما مسابقا إلى الجنة أو النار، وإما مشغولا بما له أو عليه أو ساعيا بما يسعد به أو يشقى، أو لاهيا بما يصيب به الراحة أو تعبا مع العناء.

فالله !! الله !!فإنك قد سمعت ورأيت ما يتحدث الناس به، ويخبرون عن من مضى من أصحاب رسول الله عليه السلام، كيف ساروا حين ولوا وتولوا، وحين غنموا واستغنوا، حين ملكوا وملكوا، وحين صاروا حكاما على العباد، وملوكا في البلاد، وكيف تحول بعضهم عما كانوا عليه يحمدون ويذكرون، وكيف أصبحوا اليوم يذمون ويمقتون بما أحدثوا وتركوا من سبيل ربهم وسنة نبيهم.

وأذكر أبا بكر وعمر بن الخطاب، وأذكر عمارا وأبا بلال وجابرا وشراة المسلمين رحمهم الله، وأذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير ومعاوية. واذكر أهل الحق والباطل ممن مضى من هذه الأمة والقرون الأولى، كيف كانوا وإلى ما صاروا، بعد كل شيء جاءهم وبعد متابعة النبي عليه السلام، وبما نجا من نجا وبما هلك من هلك، وبما حمد من حمد، وبما ذم من ذم، فأركب

من ذلك ماترجو به اللحوق بهم . . . . فهم على الوفاء وركب الطريقة الحق وسبيل الهدى، فإنهم كثيراً ما يجوعون، وقليل ما يشبعون، وكثيراً ما يشتغلون، وقليلا ما يتفرغون، وكثيرا ما يخافون ويبكون، وقليلا ما يضحكون ويفرحون، ولم يكونوا أصحاب لهو ولا لعب، ولا باطلا ولا هزل، ولا أصحاب خيل، ولا مصارات، ولا مراكب، ولا أصحاب أرزاق واسعة في ما عملوا، ولا أصحاب كسوة فاضلة في ما تواضعوا لله ونصبوا، ولم يكونوا أصحاب أموال فائضة في ما أنفقوا وأكلوا وشربوا وإنما كانوا أصحاب رحلة، وقريبا من العراء، وقريبا من الجوع والفقر، فارقوا الدنيا ولم يعرفوا كثيرا من عيش أهلها في زمانك هذا ولا كثيرا من شهواتها ولذاتها من الطعام والشراب والكسوة والمركب، ولا يعرفونه ولا يشتهونه.

ولقد بلغنا وبلغك أو ما شاء الله أن رسول الله ﷺ لم يشبع من خبز البر حتى لحق بالله، ولم يلبس الحرير من الثياب حتى لحق بالله، ولم يأكل اللحم والسمن في مجلس، ولا كما يروى بعض الناس وكما يقولون والله أعلم.

ولقد حدثني المغيرة أبو عبد الله أنه حمل إليه طعام في قصعة وهو مع أصحابه فتشوق ومد اليها عنقه فما وضعت بين يديه قال «ظننت أنها لحم» فما ظنك بنفسك وبأصحابك؟.

وبلغنا أن أبا بكر رحمه الله إنما كان له لقحة يشرب لبنها وعبد يقوم عليها ويصقل سيوف المسلمين، وإنما كان رزقه في سلطانه على العمل بطاعة الله. . . .

ملاحظة: يتوقف النص عند هذا الحد في المخطوطة التي بين أيدينا، وعسى الله أن يمن ببقية الكتاب الذي وجهه أبو الحر علي بن الحصين إلى الامام طالب الحق.

المصـــادر والمراجـــع

(الترتيب ألف بائي حسب أسماء المؤلفين)

* أبـن الاثير (٦٣٠ / ١٢٣٢) الكـامـل في التـاريخ، دار الـفـكـر، بـيروت ١٩٨٧/٣٩٨، ج٣ .

* أبن حجر العسقلاني (١٤٤٩/٨٥٢) فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، ط. دار المعرفة، بيروت (د.ت)، ج٤ .

* أبن خلدون (١٤٤٦/٨٠٨) المقدمة، والعبر، ط. دار الكتاب اللبناي ١٩٧٧م، م٣ .

* أبن خلدون (ق١٢/٦) أجوبة ابن خلفون، تحقيق وتعليق د. عمر خليقة النامي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت ط. ١، ١٣٩٤/١٩٧٤ .

* أبن سلام الأباضي (٨٨٧/٢٧٣) بدء الأسلام وشرائع الدين، تحقيق قيروز شقارتس والشيخ سالم بن يعقوب، ط. دار صادر بيروت ١٤٠٦/١٩٨٦ .

* أبن عبد ربه (٩٣٩/٣٢٨) العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين و. . . ط. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢، ج٤ .

* أبن العماد الحنبلي (١٦٧٨/١٠٨٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت)، ج١ .

* أبن مداد ( ) سيرة العلامة المحقق عبد الله بن مداد، نشر وزارة التراث العماني عدد ٥٦، المطابع العالمية عمان ١٤٠٤/١٩٨٤ .

* أبن يعقوب سالم (أطال عمره) تقييدات من مكتبة الخاصة، نسخها من خزانة المدرسة الأباضية بالقاهرة بوكالة الجاموس.

* أبو غانم الخراساني (٢/٨) المدونة الكبرى، ترتيب محمد أطفيش، قدم له سالم بن حمد الحارثي، دار اليقظة العربية، سوريا لبنان ١٣٩٤/١٩٧٤، مصورة عن مخطوطة الأزرقي (محمد بن عبد الله) (٢٥٠/٨٦٤) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي صالح ملحس، دار الثقافة، بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩، ج١.

* الأصفهاني (٣٥٦/٩٦٦) الأغاني، بيروت ١٣٨٠/١٩٦١، ج٢٣، ١١١ - ١٥٨.

* أطلس (محمد أسعد) (معاصر) تاريخ العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ط٣ ١٤٠٠/١٩٨٣، م١.

* أحمد أمين (١٣٤٤/١٩٥٤) فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط.٦، ١٩٦٤.

* باجية صالح (معاصر) الأباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، ط.١، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٣٩٦/١٩٧٦.

* البرادي (أبو القاسم) (١٤/٨) كتاب الجواهر المنتقاه في إتمام ماأحل به كتاب الطبقات (الدرجيني) ط. حجرية، القاهرة ١٣٠٢/١٨٨٥.

* جابر بن زيد (٧١١/٩٣) جوابات الإمام جابر بن زيد، مرقونة بالمكتبة الاسلامية بروي، عمان.

* الجاحظ (٢٥٥/٨٦٩) البيان والتبيين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ط.٥، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ١٤٠٥/١٩٨٥، ج٢.

* الجعبيري (فرحات)نظام العزابة عند الأباضية في حربة، المطبعة العصرية، وزارة الشؤون الثقافية، المعهد القومي للآثار، تونس ١٣٩٤/١٩٧٥.

* البعد الحضاري للعقيدة الأباضية، مطبعة جامعة السلطان قابوس، مسقط عمان ١٤٠٨/١٩٨٧.

* الجيطالي (أسماعيل) (٧٥٠/١٣٤٩) قناطر الخيرات، القسم الأول حققه وعلق عليه عمرو خليفة النامي، مكتبة وهبة الزحيلي، ط. ١، ١٣٨٥/١٩٦٥.

* الحديدي (عادل) (معاصر) المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان، نشر وزارة الداخلية، مسقط ١٤٠٢/١٩٨٢م.

* حسين (طه) (١٣٩٣/١٩٧٣) المجموعة الكاملة، حديث الأربعاء، دار الكتاب اللبناني بيروت ط. ٢، ١٩٨٠، م٢.

* الحموى (ياقوت) (٦٢٦/١٢٢٨) معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت).

* الحوفي (أحمد محمد (معاصر) الفكاهة في الأدب، القاهرة ١٩٦٦.

* خالد محمد خالد (معاصر) خلفاء الرسول، عمر بن عبد العزيز، دار الكتاب العربي، بيروت ط. ٢، ١٣٩٤/١٩٧٤.

* خليفات (عوض) (معاصر) نشأة الحركة الأباضية، ط. دار الشعب عمّان، الأردن ١٣٩٨/١٩٨٨م.

* الخليلي (أحمد) (معاصر) حوار حول معالم شخصية أبى حمزة، روي سلطنة عمان، شعبان ١٤٠٩/ مارس ١٩٨٩م.

* الدرجيني (أبو العباس أحمد) (حوالي ٦٧٠/١٢٧١) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر (د.ت).

* دروزة (محمد عزة) (معاصر) تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية، بيروت، ط.١، ١٤٠٣/١٩٨٣، ج٨.

* محسن عبد الأمير (معاصر الخلافة الأموية (٨٦٠٦٥/٦٨٤-١٧٠٥) دراسة سياسة دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ط.١، ١٣٨٣/١٩٧٣.

* الرازي (أحمد) (٤٦٠/١٠٨٦) تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، ط.٢، صنعاء، السمن ١٤٠١/١٩٨١، لم يذكر طالب الحق.

* الرقيشي (أحمد بن عبد الله) (ق١١/١٧) مصباح الظلام، دار الكتب المصرية رقم ٢٠٥٤٩، نقلا عن مهدي طالب هاشم، الحركة الأباضية.

* الزركلي (معاصر) الأعلام دار العلم للملايين بيروت، ط. ٦ ١٤٠٤/١٩٨٤.

* سالم عبد العزيز (معاصر) تاريخ الدولة العربية، تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٠/١٩٧٠.

* السالمي (عبد الله) (١٣٣٢/١٩١٤) جوهرة النظام في علمي الأديان والأحكام (أرجوزة شعرية)، تحقيق أبن أسحاق إبراهيم أطفيش، مطبعة النصر ١٣٩٤/١٩٧٤م.

* تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، تحقيق أبى إسحاق إبراهيم أطفيش، مطبعة الشعب، القاهرة ط.٢، ١٣٥٠/١٩٣١.

* الشقصي (خميس بن سعيد) (ق ١١/١٧) منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه (د.ت)، ج١.

* الشماخي (أحمد) (٩٢٨/١٩٢٢) كتاب السير، ط. حجرية، القاهرة ١٣٠١/١٨٨٣.

* صفوة (أحمد زكي جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج٢، العصر الأموي المكتبة العلمية، بيروت ١٣٥٢/١٩٣٣.

* ضيف (شوقي) (معاصر) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ط. دار المعارف القاهرة.

* الطبري (٣١٠/٩٢٢) تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ط.٢، ١٤٠٨/١٩٨٨، ج٣ و٤.

* عبد الجبار (القاضي) (٤٠٥/١٠١٤) كتاب فضل الأعتزال وطبقات المعتزلة تحقيق فؤاد السيد الدار التونسية للنشر، تونس ١٣٩٣/١٩٧٤.

* عفيف (أحمد جابر) الحركة الوطنية في بلاد اليمن، ط.١، دار الفكر دمشق، ١٤٠٢/١٩٨٢.

* العقاد (١٣٨٣/١٩٦٤) معاوية بن أبى سفيان، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).

* العوتبي (سلمة بن مسلم) (ق ٥/١١) الإنسان، ط. دار جريدة عمان للصحافة والنشر، نشر وزارة التراث العماني، عمان ١٤٠٤/١٩٨٤، ج٢.

* القلقشندي (٨٢١/١٤١٨) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية بيروت، ط.١، ١٤٠٥/١٩٨٤.

* كحالة (عمر رضا) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط.٣، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢.

* المبرد (٢٨٥/٨٩٨) الكامل في اللغة والأدب، ط. مكتبة المعارف، بيروت (د.ت).

* المجذوب (البشير) (معاصر) الظرف والظرفاء بالحجاز في العصر الأموي دار التركي للنشر ١٤٠٨/١٩٨٨.

* المجذوب (عبد العزيز) (معاصر) الصراع المذهبي بأفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر ٣٩٥/١٩٧٥.

* المسعودي (٣٤٦/٩٥٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني ١٤٠٢/١٩٨٢، م٢، ج٣.

* معمر (علي يحيى) (١٤٠١/١٩٨٠) الأباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، نشأة الأباضية ط. مكتبة وهبة القاهرة، ١٣٨٤/١٩٦٤.

* النامي (عمرو خليفة) (معاصر) أطروحة باللغة الأنجليزية من نشأة الفكر الأباضي وتطوره، نوقشب بكمبردج ١٣٩١/١٩٧١.

* هاشم (مهدي طالب) (معاصر) الحركة الأباضية في المشرق العربي، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث هـ، دار الاتحاد العربي للطباعة، بغداد، ، ط. ١ ٣٩٧/١٩٧٧.

* الوارجلاني (أبو زكريا) (ق ٦/١٢) كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر ١٤٠٥/١٩٨٥.

* اليماني (تاج الدين) تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط. ٢ ١٤٠٥/١٩٨٥.

طبع بالمطابع الذهبية ـ ص.ب ٦٨٩٦ ـ سلطنة عمان